الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

هو العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الرابع

وقرئ (مُكَلِّبِينَ) بالتخفيف. وأفعل وفعل يشتركان كثيراً. والإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه ، لقوله عليه السلام لعديّ بن حاتم «و إن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه» «1» وعن على رضى اللَّه عنه : إذا أكل البازي فلا تأكل «2». وفرق العلماء ، فاشترطوا في سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدّب بالضرب ، ولم يشترطوه في سباع الطير. ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلا ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى هريرة رضى اللَّه عنهم : إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه وذكرت اسم اللَّه عليه فكل «3». فإن قلت : إلام رجع الضمير في قوله وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ قلت. إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته ، أو إلى ما علمتم من الجوارح. أى سموا عليه عند إرساله.

[سورة المائدة (5) : آية 5]

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (5)

طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قيل : هو ذبائحهم. وقيل : هو جميع مطاعمهم. ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن على رضى اللَّه عنه : أنه استثنى نصارى بنى تغلب وقال : ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر «4» ، وبه أخذ الشافعي. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : لا بأس «5». وهو قول عامة التابعين ، وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه.

(1). متفق عليه من حديث عدى بن حاتم.
(2). لم أجده.
(3). حديث سلمان أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب عن سلمان في الكلب يرسل على الصيد إن أكل ثلثيه فكل الثلث الباقي. وحديث أبى هريرة كذلك رواه ابن أبى شيبة من طريق الشعبي عنه قال «إذا أرسلت كلبك فأكله فكل وإن أكل ثلثه» وحديث سعد ابن أبى وقاص كذلك أخرجه ابن أبى شيبة من رواية بكر بن الأشج عن حميد بن مالك عن سعد في الصيد يرسل عليه الكلب قال : كله وإن لم يبق منه إلا بضعة منه.
(4). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية إبراهيم النخعي عن على. وهو منقطع. وأخرجه الشافعي وعبد الرزاق موصولا من رواية عبيدة عن على رضى الله عنه.
(5). أخرجه في الموطأ عن ثور عن ابن عباس بهذا. وهو منقطع. ثور لم يلق ابن عباس. وإنما أخذه عن عكرمة فحذفه مالك. وروى ابن أبى شيبة من طريق عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس. قال «كلوا ذبائح بنى تغلب وتزوجوا نساءهم».

وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبى حنيفة. وقال صاحباه : هم صنفان : صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة. وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوس فقد سنّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم. وقد روى عن أبى المسيب أنه قال : إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسي أن يذكر اسم اللَّه ويذبح فلا بأس. وقال أبو ثور : وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ فلا عليكم أن تطعموهم «1» ، لأنه لو كان حراما عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم. الْمُحْصَناتُ الحرائر أو العفائف. وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق ، وكذلك نكاح غير العفائف منهن ، وأما الإماء الكتابيات ، فعند أبى حنيفة : هن كالمسلمات ، وخالفه الشافعي ، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات ، ويحتج بقوله «و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ» ويقول : لا أعلم شركا أعظم من قولها : إن ربها عيسى. وعن عطاء : قد أكثر اللَّه المسلمات ، وإنما رخص لهم يومئذ مُحْصِنِينَ أعفاء وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ صدائق ، والخدن يقع على الذكر والأنثى وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ بشرائع الإسلام وما أحلّ اللَّه وحرّم.

[سورة المائدة (5) : آية 6]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

(1). قال محمود : «معناه فلا عليكم أن تطعموهم ... الخ» قال أحمد : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة، لأن التحليل حكم ، وقد علقه بهم في قوله : (وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) كما علق الحكم بالمؤمنين.
وهذه الآية أبين في الاستدلال بها من قوله : (لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) فان لقائل أن يقول في تلك الآية : نفى الحكم ليس بحكم ، ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه : لأن الحكم فيها مثبت واللَّه أعلم. ولما استشعر الزمخشري دلالتها على ذلك وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة ، أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب ، كما رأيته في كلامه أيضا. [.....]

إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ كقوله «فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللَّه» «1» وكقولك : إذا ضربت غلامك فهوّن عليه ، في أن المراد إرادة الفعل. فإن قلت : لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت : لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه ، فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم : الإنسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر ، أى لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى : (نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ) يعنى إنا كنا قادرين على الإعادة ، كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل ، وذلك لأنّ الفعل مسبب عن القدرة والإرادة ، فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما ، ولإيجاز الكلام ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب قولهم : كما تدين تدان ، عبر عن الفعل المبتدأ الذي هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذي هو مسبب عنه. وقيل : معنى قمتم إلى الصلاة قصدتموها لأنّ من توجه إلى شيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة ، فعبر عن القصد له بالقيام إليه. فإن قلت : ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة «2» محدث وغير محدث ، فما وجهه؟ قلت : يحتمل أن يكون الأمر للوجوب ، فيكون الخطاب للمحدثين خاصة ، وأن يكون للندب. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والخلفاء بعده ، أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة «3». وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «من توضأ على طهر كتب اللَّه له عشر حسنات «4». وعنه عليه السلام : أنه كان يتوضأ لكل صلاة «5».

(1). قال محمود : «قوله إذا قمتم كقوله فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللَّه ... الخ» قال أحمد هذا الكلام يستقيم وروده من السنى ، كما يستقيم من المعتزلي لأنا نقول : الفعل يوجد بقدرة العبد ملتبسا بها ومقارنا لها ، والمعتزلي يقوله ويعنى مخلوقا بها وناشئا عن تأثيرها ، فالعبارة مستعملة في المذهبين ولكن باختلاف المعنى ، واللَّه الموفق.
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت : ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم ... الخ» قال أحمد : الزمخشري أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد من معانيه على الجمع ، وقد سبق له إنكار ذلك ومن جوز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك في الآية ، ومن المجوزين لذلك الشافعي رحمه اللَّه تعالى. وناهيك بإمام الفن وقدوته. هذا إذا وقع البناء على أن صيغة «أفعل» مشتركة بين الوجوب والندب صح تناولها في الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين ، وتناولها للمتطهرين من حيث الندب ، واللَّه أعلم.
(3). أخرجه البخاري من رواية عمرو بن عامر عن أنس بلفظ «عند كل» وزاد «قلت : كيف كنتم تصنعون قال : يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث ، والترمذي من رواية حميد عن أنس نحوه ، وزاد «طاهرا وغير طاهر» ولمسلم من حديث يزيد «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة ، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر : فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال : قد فعلته يا عمر» وسيأتى بعد قليل ، ولأبى داود والحاكم وأحمد من حديث أسماء بنت زيد بن الخطاب عن عبد اللَّه بن حنظلة بن الغسيل «أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهراً أو غير طاهر. فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك» وقوله : «و كان الخلفاء بعد النبي صلى اللَّه عليه وسلم يتوضئون لكل صلاة : أخرجه ابن أبى شيبة والطبري من رواية أبى عوانة عن محمد بن سيرين قال : «كان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى اللَّه عنهم يتوضئون لكل صلاة».
(4). أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر رضى اللَّه عنهما. قال الترمذي : إسناده ضعيف.
(5). تقدم التنبيه عليه وأن مسلماً أخرجه دون ذكر المسح. وكذلك أخرجه أصحاب السنن.

فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه وصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد ، فقال له عمر : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه. فقال : «عمداً فعلته يا عمر» يعنى بياناً للجواز؟ فإن قلت : هل يجوز أن يكون الأمر شاملا للمحدثين وغيرهم ، لهؤلاء على وجه الإيجاب ، ولهؤلاء على وجه الندب. قلت : لا ، لأنّ تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية. وقيل : كان الوضوء لكل صلاة واجباً أوّل ما فرض ، ثم نسخ. (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقاً. فأما دخولها في الحكم وخروجها ، فأمر يدور مع الدليل ، فمما فيه دليل على الخروج قوله : (فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ) لأن الإعسار علة الإنذار. وبوجود الميسرة تزول العلة ، ولو دخلت الميسرة فيه لكان مُنظراً في كلتا الحالتين معسراً وموسراً. وكذلك (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ) لو دخل الليل لوجب الوصال. ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره لأنّ الكلام مسوق لحفظ القرآن كله. ومنه قوله تعالى : (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله إِلَى الْمَرافِقِ وَ(إِلَى الْكَعْبَيْنِ) لا دليل فيه على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل. وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها. وعن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم أنه كان يدير الماء على مرفقيه «1». وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ المراد إلصاق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح ، كلاهما ملصق للمسح برأسه. فقد أخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية ، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو ما روى : أنه مسح على ناصيته «2».

وقدر الناصية بربع الرأس. قرأ جماعة (وَأَرْجُلَكُمْ) بالنصب «3» ،

(1). أخرجه الدارقطني من حديث جابر «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه» وإسناده ضعيف.
(2). أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة في قصة فيها «و مسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه» وللطبراني من حديثه «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته».
(3). قال محمود : «قرأ جماعة (وَأَرْجُلَكُمْ) بالنصب ... الخ» قال أحمد : ولم يوجه الجر بما يشفى الغليل.
والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان من حيث أن كل واحد منهما إمساس بالعضو فيسهل عطف المغسول على الممسوح من ثم ، كقوله :
متقلدا سيفاً ورمحا وعلفتها تبناً وماء باردا
ونظائره كثيرة. وبهذا وجه الحذاق ، ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب؟ وهلا أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة؟ فيقال : فائدته الإيجاز والاختصار. وتوكيد الفائدة بما ذكره الزمخشري وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلا : واغسلوا أرجلكم غسلا خفيفا لا إسراف فيه ، كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد باشراكه الأرجل مع الممسوح ، ونبه بهذا التشريك - الذي لا يكون إلا في الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدا - على أن الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب المسح وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة ، وهذا تقرير كامل لهذا المقصود ، واللَّه أعلم.

فدل على أن الأرجل مغسولة فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح؟ قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها ، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه ، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل إِلَى الْكَعْبَيْنِ فجيء بالغاية إماطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة ، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن على رضى اللَّه عنه : أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً ، فقال : ويل للأعقاب من النار ، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلا ويدلكونها دلكا. وعن ابن عمر : كنا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال : «ويل للأعقاب من النار «1»» وفي رواية جابر «ويل للعراقيب «2»» وعن عمر أنه رأى رجلا يتوضأ فترك باطن قدميه ، فأمره أن يعيد الوضوء ، وذلك للتغليظ عليه «3». وعن عائشة رضى اللَّه عنها لأن تقطعا أحب إلىّ من أن أمسح على القدمين بغير خفين «4». وعن عطاء : واللَّه ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مسح على القدمين «5». وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح.

وعن الحسن : أنه جمع بين الأمرين. وعن الشعبي : نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن : وأرجلكم ، بالرفع بمعنى وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين.

(1). متفق عليه من طريق يوسف بن ماهك عن عبد اللَّه بن عمرو قال «خلف رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عنا في سفرة فأدركنا - فذكره - وفيه : وأعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم من مكة إلى المدينة» ولأبى نعيم في المستخرج «و أعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم من مكة إلى المدينة ولأبى نعيم في المستخرج : وأعقابهم بيض تلوح (تنبيه) لم أره من حديث ابن عمر ، وكأنه تحرف على صاحب الكتاب ، أو بعض من أخذه عنه.
(2). أخرجه ابن ماجة وأحمد وابن أبى شيبة وإسحاق وأبو يعلى من رواية أبى إسحاق عن سعيد بن أبى كريب عن جابر وهي عند مسلم من حديث أبى هريرة. وللنسائي في حديث عبد اللَّه بن عمرو المذكور ولأبى يعلى من حديث عائشة. ولسعيد بن منصور من حديث أبى ذر رضى اللَّه عنه
(3). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية أبى قلابة «أن عمر رأى رجلا يتوضأ فبقى في رجله قدر ظفر. فقال : أعد الوضوء» وهو منقطع. ورواه البيهقي موصولا من طريق الثوري عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر «أن عمر رأى رجلا» فذكره بلفظ «لمعة» وقد روى مرفوعا. أخرجه أحمد وأبو داود من رواية خالد بن معدان عن بعض الصحابة «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم رأى رجلا وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة. وقال الأثرم عن أحمد : إسناده جيد. وقال أبو داود : هو مرسل. وتعقبه ابن دقيق العبد بأن عدم ذكر اسم الصحابي حدثه. وهو موصوف بكثرة الإرسال (تنبيه) قوله «تغليظاً عليه» من كلام صاحب الكشاف. وفيه نظر ، لاحتمال أن يكون المراد بقوله «أعد الوضوء» أى اغسل رجليك من إطلاق الكل وإرادة البعض. وأما الذي في المرفوع فيحتمل أن يكون الأمر المذكور بعد أن أحدث الرجل
(4). أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية من رواية القاسم عنها دون قوله «بغير خفين» وفي إسناده محمد ابن مهاجر البغدادي ، رادعي ابن الجوزي أنه وضعه.
(5). لم أجده.

وقرئ (فَاطَّهَّرُوا أى فطهروا أبدانكم ، وكذلك ليطهركم. وفي قراءة عبد اللَّه : فأمّوا صعيداً ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ في باب الطهارة ، حتى لا يرخص لكم في التيمم وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمته فيثيبكم.

[سورة المائدة (5) : آية 7]

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7)

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وهي نعمة الإسلام وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ أى عاقدكم به عقداً وثيقاً هو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا وقالوا : سمعنا وأطعنا. وقيل : هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان.

[سورة المائدة (5) : الآيات 8 إلى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (10)

عدّى يَجْرِمَنَّكُمْ بحرف الاستعلاء مضمنا معنى فعل يتعدّى به ، كأنه قيل : ولا يحملنكم. ويجوز أن يكون قوله : (أَنْ تَعْتَدُوا) بمعنى على أن تعتدوا ، فحذف مع أن ونحوه قوله عليه السلام : «من اتبع على مليء فليتبع «1»» لأنه بمعنى أحيل. وقرئ (شَنَآنُ) بالسكون. ونظيره في المصادر «ليان» والمعنى : لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما «2» في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى نهاهم أوّلا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ،

(1). متفق عليه من حديث الأعرج عن أبى هريرة بلفظ «و إذا اتبع أحدكم على مليء فليتبع» وفي رواية لأحمد «و إذا أحيل أحدكم على مليء فليحتل» وبهذا اللفظ أخرجه البزار من حديث ابن عمر رضى الله عنهما. [.....]
(2). قوله «و تتشفوا بما في قلوبكم» لعله مما. (ع)

ثم استأنف فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله : (هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى) أى العدل أقرب إلى التقوى ، وأدخل في مناسبتها. أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفا فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله ، كأنه قال : قدّم لهم وعداً فقيل : أى شيء وعده لهم؟ فقيل : لهم مغفرة وأجر عظيم. أو يكون على إرادة القول بمعنى وعدهم وقال لهم مغفرة. أو على إجراء وعد مجرى قال : لأنه ضرب من القول. أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التي هي لهم مغفرة ، كما وقع (تركنا) على قوله : (سَلامٌ عَلى نُوحٍ) كأنه قيل : وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول ، فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم.

وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة ، فيسرون به ويستروحون إليه ويهوّن عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب.

[سورة المائدة (5) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)

روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا ، وذلك بعسفان في غزوة ذى أنمار. فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم ، فقالوا : إنّ لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها. فنزل جبريل بصلاة الخوف «1». وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلىّ رضى الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، اجلس حتى نطعمك ونقرضك ، فأجلسوه في صفة وهموا بالفتك به ،

(1). أخرجه الطبري من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغير فيه ، ولفظه قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة. فلقى المشركين بعسقلان ، فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض : كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم : فان لهم صلاة أخرى» والباقي نحوه. وأصله في مسلم من رواية أبى الزبير عن جابر «غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم قوما من جهينة فقاتلونا قتالا شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون : لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا : إنهم سيأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ذلك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما حضرت العصر صففنا صفين - الحديث» وللترمذي والنسائي من طريق عبد الله بن شقيق عن أبى هريرة نحوه.

وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه ، فأمسك اللَّه يده ونزل جبريل فأخبره ، فخرج «1». وقيل : نزل منزلا وتفرق الناس في العضاه يستظلون بها ، فعلق رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى فسلّ سيف رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال : من يمنعك منى؟ قال : اللَّه ، قالها ثلاثا ، فشام الأعرابى السيف «2» فصاح رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم ، وأبى أن يعاقبه «3». يقال : بسط إليه لسانه إذا شتمه ، وبسط إليه يده إذا بطش به (وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ) ومعنى «بسط اليد» مدّها إلى المبطوش به. ألا ترى إلى قولهم : فلان بسيط الباع ، ومديد الباع ، بمعنى.

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ فمنعها أن تمدّ إليكم.

[سورة المائدة (5) : الآيات 12 إلى 13]

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (12) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)

(1). أخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البيهقي وأبو نعيم في الدلائل. قال : حدثني والدي إسحاق بن يسار بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد اللَّه بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما من أهل العلم قالوا : قدم أبو براد عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم - فذكره مطولا - وفيه قال «ثم خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم في القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري فيما حدثني يزيد بن رومان قال : كان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يستعينهم قالوا : نعم ، اجلس يا أبا القاسم فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا. من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك منهم عمرو بن جحاش بن كعب ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال - ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى ، فأتاه جبريل من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، ثم أمر بحربهم والمسير إليهم. فسار الناس» (تنبيه) في كلام صاحب الكشاف «أنهما كانا مسلمين» ولم أجد ذلك في شيء من طرقه بل صرح موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد وفي الدلائل لأبى نعيم من حديث ابن عباس : فلقى عمرو بن أمية رجلين من بنى كلاب معهما أمان ولم يعلم به فقتلهما».
(2). قوله «فشام الأعرابى السيف» في الصحاح. شمت السيف أغمدته. وشمته : سللته وهو من الأضداد. (ع)
(3). متفق عليه من رواية أبى سلمة عن جابر نحوه. وللبخاري من وجه آخر.

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم اللَّه بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إنى كتبتها لكم داراً قراراً ، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ، وإنى ناصركم ، وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقه عليهم ، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون ، فرأوا أجراماً عظيمة وقوّة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدّثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم ، فنكثوا الميثاق ، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون من سبط أفراييم بن يوسف ، وكانا من النقباء.

والنقيب : الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها ، كما قيل له : عريف ، لأنه يتعرفها إِنِّي مَعَكُمْ أى ناصركم ومعينكم عَزَّرْتُمُوهُمْ نصرتموهم ومنعتموهم من أيدى العدوّ. ومنه التعزير ، وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد. وقرئ بالتخفيف يقال : عزرت الرجل إذا حطته وكنفته. والتعزير والتأزير من واد واحد. ومنه : لأنصرنك نصراً مؤزراً ، أى قويا. وقيل معناه : ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثنى عشر ملكا يقيمون فيهم العدل ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام في لَئِنْ أَقَمْتُمُ موطئة للقسم وفي لَأُكَفِّرَنَّ جواب له ، وهذا الجواب سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعا بَعْدَ ذلِكَ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم. فإن قلت : من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضلّ سواء السبيل. قلت : أجل ، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم ، لأنّ الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة ، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى لَعَنَّاهُمْ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا. وقيل : مسخناهم. وقيل : ضربنا عليهم الجزية وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى قست قلوبهم. أو أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست. وقرأ عبد اللَّه : قسية ، أى ردية مغشوشة ، من قولهم : درهم قسيّ وهو من القسوة لأنّ الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوش فيه يبس وصلابة ، والقاسي والقاسح - بالحاء - أخوان في الدلالة على اليبس والصلابة وقرئ : قسية ، بكسر القاف للإتباع يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ بيان لقسوة قلوبهم ، لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على اللَّه وتغيير وحيه وَنَسُوا حَظًّا

وتركوا نصيبا جزيلا وقسطا وافيا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ من التوراة ، يعنى أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم ، أو قست قلوبهم وفسدت فحرّفوا التوراة وزالت أشياء منها عن حفظهم. وعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية «1».

(1). أخرجه ابن المبارك في الزهد. قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودي عن القاسم عن عبد اللَّه قال «إنى لأحسب الرجل ينسى العلم يعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع وكذا أخرجه الدارمي والطبراني.

وتلا هذه الآية. وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم وبيان نعته وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ أى هذه عادتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ينكثون عهودك ويظاهرون المشركين على حربك ويهمون بالفتك بك وأن يسموك عَلى خائِنَةٍ على خيانة ، أو على فعلة ذات خيانة ، أو على نفس ، أو فرقة خائنة. ويقال : رجل خائنة ، كقولهم : رجل راوية للشعر للمبالغة. قال :
حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تَكُنْ لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مَضَلَّ الْأُصْبُعِ «1»

وقرئ على خيانة مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وهم الذين آمنوا منهم فَاعْفُ عَنْهُمْ بعث على مخالفتهم. وقيل هو منسوخ بآية السيف. وقيل : فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم.

[سورة المائدة (5) : آية 14]

وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (14)

أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من قوم موسى ، أى مثل ميثاقهم بالإيمان باللَّه والرسل وبأفعال الخير. وأخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك. فإن قلت :

فهلا قيل : من النصارى؟ «2» قلت : لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة اللَّه ، وهم الذين قالوا لعيسى : نحن أنصار اللَّه ، ثم اختلفوا بعد : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكانية.

(1) أقرين إنك لو رأيت فوارسى بعمايتين إلى جوانب صلفع
حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغدر خائنة مضل الأصبع
للكلابى ، يخاطب ضيفاً نزل عنده فطمع في جاريته. والهمزة للنداء و«عمايتين» اسم جبلين. و«صلفع» اسم موضع. أى ياقرين لو رأيت فوارسى بهذين الجبلين ممتدين إلى جوانب صلفع ، لحدثت نفسك بوفاء العهد خوفاً منى كما هو الواجب عليك ، ولم تكن لأجل العدو. أو ولم تكن مجعولا للغدر خائنة ، على أنه خبر بعد خبر ، أى كثير الخيانة ، فالتاء للمبالغة كرواية. ولعله كان قد أشار للجارية بإصبعه ، فسمى الاشارة به للخيانة إضلالا له :
ويروى مغل الأصبع بالغين وغل وأغل إذا سرق شيئاً تافها ، كأنه جعل أصبعه غالا ، أى سارقا ، للاشارة به.
(2). قال محمود : «فان قلت : فهلا قيل من النصارى ... الخ» قال أحمد : وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضع بإسناد النصرانية إلى دعواهم ولم يتفق ذلك في غيره. ألا ترى إلى قوله تعالى : (وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) فالوجه في ذلك واللَّه أعلم أنه لما كان المقصود في هذه الآية ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرة اللَّه تعالى ، ناسب ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا اللَّه ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة ، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها ، واللَّه أعلم.

أنصارا للشيطان «1» فَأَغْرَيْنا فألصقنا وألزمنا من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره.

ومنه الغراء الذي يلصق به بَيْنَهُمُ بين فرق النصارى المختلفين. وقيل : بينهم وبين اليهود.

ونحوه (وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً) ، (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ).

[سورة المائدة (5) : الآيات 15 إلى 16]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)

يا أَهْلَ الْكِتابِ خطاب لليهود والنصارى مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ من نحو صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ومن نحو الرجم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته «2» مما لا بدّ من بيانه ، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن : ويعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يريد القرآن ، لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق. أو لأنه ظاهر الإعجاز مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ من آمن به سُبُلَ السَّلامِ طرق السلامة والنجاة من عذاب اللَّه أو سبل اللَّه.

[سورة المائدة (5) : آية 17]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

قولهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ معناه بت القول ، على أن حقيقة اللَّه هو المسيح لا غير. قيل : كان في النصارى قوم يقولون ذلك. وقيل : ما صرّحوا به ولكن مذهبهم يؤدّى إليه ، حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ويدبر أمر العالم فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئا إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ من دعوه إلها من المسيح وأمّه دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد.

(1). قوله «و ملكانية أنصاراً للشيطان» في الخازن فرقة رابعة وهي المرقوسية اه. (ع)
(2). قوله «إلا اقتضاء حكم وصفته» لعل هنا سقطاً أو تحريفاً أوجب خفاء المعنى فليحرر. (ع)

وأراد بعطف (مَنْ فِي الْأَرْضِ) على : (الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ) أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية يَخْلُقُ ما يَشاءُ أى يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى «1» ، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له ، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك. فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده.

[سورة المائدة (5) : آية 18]

وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)

أَبْناءُ اللَّهِ أشياع ابني اللَّه عزير والمسيح «2» ، كما قيل لأشياع أبى خبيب وهو عبد اللَّه بن الزبير «الخبيبون» وكما كان يقول رهط مسيلمة : نحن أنبياء اللَّه. ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه : نحن الملوك. ولذلك قال مؤمن آل فرعون : لكم الملك اليوم فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ فإن صحّ أنكم أبناء اللَّه وأحباؤه فلم تذنبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياما معدودات على زعمكم. ولو كنتم أبناء اللَّه ، لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب. ولو كنتم أحباءه ، لما عصيتموه ولما عاقبكم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ من جملة خلق من البشر يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وهم أهل الطاعة وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وهم العصاة «3».

[سورة المائدة (5) : آية 19]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19)

يُبَيِّنُ لَكُمْ إما أن يقدّر المبين وهو الدين والشرائع ، وحذفه لظهور ما ورد الرسول لتبيينه.

(1). قوله «كما خلق عيسى» في النسفي : ويخلق من ذكر من غير أنثى ، كما خلق حواء من آدم. (ع)
(2). قال محمود : «معنى قولهم أبناء اللَّه أشياع ابني اللَّه عزير ... الخ» قال أحمد : ومنه قول الملائكة لأنهم خواص عباد اللَّه (إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ) إلى قوله : (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ) فأضافوا التقدير إليهم ، وفي الحقيقة المقدر اللَّه «و كذلك قول الدابة - لأنها من خواص آيات اللَّه - (أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ) فيمن جعله من قول الدابة ، واللَّه أعلم.
(3). قال محمود : «يعنى أهل الطاعة (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) قال : يعنى العصاة» قال أحمد رحمه اللَّه : بل مشيئة اللَّه تعالى تسع التائب المنيب ، والعاصي المصر إذا كان موحداً. والزمخشري أخرج هذا التفسير على قاعدته المتكررة في غير ما موضع ، وهي القطع بوعيد العصاة المصرين الموحدين ، وأن المغفرة لهم محال.

أو يقدّر ما كنتم تخفون ، وحذفه لتقدّم ذكره. أو لا يقدر ويكون المعنى. يبذل لكم البيان ، ومحله النصب على الحال ، أى مبيناً لكم. وعَلى فَتْرَةٍ متعلق بجاءكم ، أى جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحى أَنْ تَقُولُوا كراهة أن تقولوا فَقَدْ جاءَكُمْ متعلق بمحذوف ، أى لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل : كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة. وقيل : ستمائة. وقيل : أربعمائة ونيف وستون. وعن الكلبي : كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء.

ثلاث من بنى إسرائيل ، وواحد من العرب : خالد بن سنان العبسي. والمعنى : الامتنان عليهم ، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى أحوج ما يكون إليه ، ليهشوا إليه ويعدّوه أعظم نعمة من الله ، وفتح باب إلى الرحمة ، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم.

[سورة المائدة (5) : الآيات 20 إلى 24]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (20) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (21) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (22) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (24)

جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ لأنه لم يبعث في أمّة ما بعث في بنى إسرائيل من الأنبياء «1»

(1). قال محمود : «لم يبعث في أمة ما بعث في بنى إسرائيل من الأنبياء ... الخ» قال أحمد : والحامل على تفسير الملك بهذه التفاسير أن الله تعالى أنبأ في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكا بقوله : (وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً) ولم يقل (و جعل فيكم ملوكا) كما قال : (جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ) فلما عمم الملك فيهم ، ولا شك أن الملك - المعهود هو الاستيلاء العام - لم يثبت لكل أحد منهم ، فيتعين حمل الملك على ما كان ثابتا لجميعهم أو لأكثرهم من الأبعاض المذكورة.
هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك ، والله أعلم. وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم إلا أنه كان ثابتا لملوكهم وهم منهم ، إذ إسرائيل لأب الأقرب يجمعهم ، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم ، جاز الامتنان عليهم بهذه الصنيعة ، والمعنى مفهوم. وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفا في قول اليهود والنصارى (نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) وما بالعهد من قدم. فان قلت : فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء لأن الأنبياء منهم كما قلت في الملوك؟ قلت : النبوة مزية غير الملك. وآحاد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكا ، ولا كذلك النبوة فان درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها وخصوصيتها ونعتها، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك ، والله أعلم. [.....]

(وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه ، وبعد الجبابرة ملكهم ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل : كانوا مملوكين في أيدى القبط فأنقذهم الله ، فسمى إنقاذهم ملكا. وقيل : الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل : من له بيت وخدم. وقيل : من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ من فلق البحر ، وإغراق العدوّ ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الأمور العظام ، وقيل : أراد عالمى زمانهم الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ يعنى أرض بيت المقدس. وقيل : الطور وما حوله. وقيل : الشام. وقيل : فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل : سماها الله لإبراهيم ميراثا لولده حين رفع على الجبل ، فقيل له. انظر ، فلك ما أدرك بصرك ، وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ قسمها لكم وسماها ، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً ، وقيل : لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ليتنا متنا بمصر. وقالوا : تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. ويجوز أن يراد : لا ترتدوا على أدباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم : فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. الجبار «فعال» من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد قالَ رَجُلانِ هما كالب ويوشع مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ من الذين يخافون الله ويخشونه ، كأنه قيل : رجلان من المتقين. ويجوز أن تكون الواو لبنى إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف تقديره : من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون، وهما رجلان منهم أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بالإيمان فآمنا ، قالا لهم : إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها ، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم ، يشجعانهم على قتالهم. : وقراءة من قرأ : يخافون ، بالضم شاهدة له : وكذلك أنعم الله عليهما ، كأنه قيل : من الخوفين. وقيل : هو من الإخافة ، ومعناه من الذين يخوفون من الله بالتذكرة والموعظة. أو يخوّفهم وعيد الله بالعقاب. فإن قلت : ما محل أنعم الله عليهما؟ قلت : إن انتظم مع قوله «من الذين يخافون» في حكم الوصف لرجلان فمرفوع.

وإن جعل كلاما معترضاً فلا محلّ له. فإن قلت : من أين علما أنهم غالبون؟ قلت : من جهة إخبار موسى بذلك. وقوله تعالى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وقيل ، من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة اللَّه في نصرة رسله ، وما عهدا من صنع اللَّه لموسى في قهر أعدائه ، وما عرفا من حال الجبابرة.

والباب : باب قريتهم لَنْ نَدْخُلَها نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس.

وأَبَداً تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول. وما دامُوا فِيها بيان للأبد فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب «1» ولكن كما تقول : كلمته فذهب يجيبنى ، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب ، كأنهم قالوا : أريدا قتالهم. والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة باللَّه ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء ، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية اللَّه عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أنّ موسى وهرون عليهما السلام خرّا لوجوههما قدّامهم لشدّة ما ورد عليهما ، فهموا برجمهما. ولأمر مّا قرن اللَّه اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا).

[سورة المائدة (5) : الآيات 25 إلى 26]

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (25) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (26)

لما عصوه وتمرّدوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ لنصرة دينك «2» إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي وهذا من البث والحزن والشكوى إلى اللَّه والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ونحوه قول يعقوب عليه السلام نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ).

(1). قال محمود : «يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : يريد الزمخشري سألوا رؤية اللَّه جهرة وهي محال عقلا تعنتا منهم. وقد مر له ذلك ، وبينا ان تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الايمان به على التعيين اقتراحا وتقاعسا عن الحق في قوله : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً).
(2). عاد كلامه. قال محمود : «قال رب إنى لا أملك لنصرة دينك إلا نفسي ... الخ» قال أحمد : وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء لنبينا عليه الصلاة والسلام : إنى جربت بنى إسرائيل وخبرتهم ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فان أمتك لا تطيق ذلك. وتكريره هذا القول مراراً مصداق لما ذكره الزمخشري. وأما إن كان المراد بالرجلين غير يوشع وكالب - وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل - ويكون معنى يخافون أى يخافهم بنو إسرائيل - فالضمير على هذا يرجع إلى بنى إسرائيل ، والعائد محذوف وهو المفعول. فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بنى إسرائيل المكتوب عليهم قتال العمالقة. وإنما عنى موسى عليه السلام : إنى لا أملك من بنى إسرائيل المفروض عليهم القتال أمر أحد إلا نفسي وأخى ، واللَّه أعلم.

وعن على رضى اللَّه عنه أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة ، فما أجابه إلا رجلان فتنفس الصعداء «1». ودعا لهما وقال : أين تقعان مما أريد؟ وذكر في إعراب «أخى» وجوه : أن يكون منصوبا عطفا على نفسي أو على الضمير في «إنى» ، بمعنى : ولا أملك إلا نفسي «2» وإن أخى لا يملك إلا نفسه. ومرفوعا عطفاً على محل إن واسمها ، كأنه قيل : أنا لا أملك إلا نفسي ، وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه أو على الضمير في لا أملك. وجاز للفصل. ومجروراً عطفا على الضمير في نفسي ، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور «3» إلا بتكرير الجار. فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران؟

قلت : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما ، لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره.

ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه. ويجوز أن يريد : ومن يؤاخينى على دينى فَافْرُقْ فافصل بَيْنَنا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، وهو في معنى الدعاء عليهم. ولذلك وصل به قوله : (فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ) على وجه التسبيب ، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم «كقوله : (وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّها فإن الأرض المقدسة مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ لا يدخلونها ولا يملكونها ، فان قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله (الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل : فإنها محرمة عليهم. والثاني : أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب ، فقد روى أن موسى سار بمن بقي من بنى إسرائيل

وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء اللَّه ثم قبض صلوات اللَّه عليه. وقيل : لما مات موسى بعث يوشع نبياً ، فأخبرهم بأنه نبىّ اللَّه ، وأن اللَّه أمره بقتال الجبابرة ، فصدقوه وبايعوه وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم ، وصار الشام كله لبنى إسرائيل. وقيل : لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال : (إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها) وهلكوا في التيه ونشأت نواشئ من ذرّياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها والعامل في الظرف إما (مُحَرَّمَةٌ) وإما (يَتِيهُونَ) ومعنى يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً. والتيه : المفازة التي يتاه فيها. روى أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرون كل يوم جادين ، حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه ، وكان الغمام يظللهم

(1). قوله «فتنفس الصعداء» في الصحاح : الصعداء بالضم والمد تنفس ممدود اه. (ع)
(2). قوله «بمعنى لا أملك إلا نفسي» لعله بمعنى إنى لا أملك. وعبارة النسفي. أى إنى لا أملك ... الخ. (ع)
(3). قوله «على ضمير المجرور» لعله على الضمير. (ع)

من حرّ الشمس ، ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم ، وينزل عليهم المنّ والسلوى ، ولا تطول شعورهم ، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله. فإن قلت : فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون؟ قلت : كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركا لهم «1» ، وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة. ومثل ذلك مثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتثقف ولا يقطع عنه معروفه وإحسانه. فإن قلت : هل كان معهم في التيه موسى وهرون عليهما السلام؟

قلت : اختلف في ذلك ، فقيل لم يكونا معهم لأنه كان عقابا ، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم. وقيل : كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحا لهما وسلامة ، لا عقوبة ، كالنار لإبراهيم ، وملائكة العذاب. وروى أن هرون مات في التيه ، ومات موسى بعده فيه بسنة.

ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر. ومات النقباء في التيه بغتة ، إلا كالب ويوشع فَلا تَأْسَ فلا تحزن عليهم لأنه ندم على الدعاء عليهم ، فقيل : إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب ، فلا تحزن ولا تندم.

[سورة المائدة (5) : الآيات 27 إلى 32]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(32)

(1). قوله «عركا لهم» في الصحاح : عركت الشيء دلكته. وعرك البعير جنبه بمرفقه. وفيه أيضا : الدعك مثل الدلك. وقد دعكت الأديم والخصم : لينته. (ع)

هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل ، أوحى اللَّه إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمة الآخر ، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها «إقليما» فحسد عليها أخاه وسخط. فقال لهما آدم : قرّبا قربانا ، فمن أيكما تقبل زوّجها ، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته فازداد قابيل حسدا وسخطا ، وتوعده بالقتل. وقيل : هما رجلان من بنى إسرائيل بِالْحَقِّ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة. أو اتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقا لما في كتب الأوّلين ، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ويبغون عليه.

أو اتل عليهم وأنت محق صادق. وإِذْ قَرَّبا نصب بالنبإ ، أى قصتهم وحديثهم في ذلك الوقت.

ويجوز أن يكون بدلا من النبأ ، أى اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت ، على تقدير حذف المضاف.

والقربان : اسم ما يتقرّب به إلى اللَّه من نسيكة أو صدقة ، كما أنّ الحلوان اسم ما يحلى أى يعطى.

يقال : قرّب صدقة وتقرّب بها ، لأن تقرّب مطاوع قرّب : قال الأصمعي : تقربوا قرف القمع «1» فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب. فإن قلت : كيف كان قوله إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ جوابا لقوله : (لَأَقْتُلَنَّكَ)؟ قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلي ، فلم تقتلني؟

ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى اللَّه التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أنّ اللَّه تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم. وعن عامر بن عبد اللَّه : أنه بكى حين حضرته الوفاة ، فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال إنى أسمع اللَّه يقول (إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ). ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ قيل : كان أقوى من القاتل وأبطش منه ، ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من اللَّه لأنّ الدفع لم يكن مباحا في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ أن تحتمل إثم قتلى لك لو قتلتك وإثم قتلك لي. فإن قلت : كيف يحمل إثم قتله له ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ قلت : المراد بمثل إثمى على الاتساع في الكلام ، كما تقول : قرأت قراءة فلان ، وكتبت كتابته ، تريد المثل وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره.

(1). قوله «تقربوا قرف القمع» في الصحاح : القرف القشر. والقمعة رأس السنام ، والجمع قمع. والقمع أيضا : بثرة تخرج في شفر العين. (ع)

ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام «المستبان ما قالا فعلى البادي ما لم يعتد المظلوم «1»» على أنّ البادي عليه إثم سبه ، ومثل إثم سب صاحبه لأنه كان سببا فيه ، إلا أن الإثم محطوط عن صاحبه معفوّ عنه ، لأنه مكافئ مدافع عن عرضه. ألا ترى إلى قوله «ما لم يعتد المظلوم» لأنه إذا خرج من حدّ المكافأة واعتدى لم يسلم. فإن قلت : فحين كف هابيل قتل أخيه واستسلم وتحرج عما كان محظورا في شريعته من الدفع ، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثمان؟ قلت : هو مقدّر فهو يتحمل مثل الإثم المقدّر ، كأنه قال : إنى أريد أن تبوء بمثل إثمى لو بسطت يدي إليك. وقيل (بِإِثْمِي) بإثم قتلى (وَإِثْمِكَ) الذي من أجله لم يتقبل قربانك. فإن قلت : فكيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه «2» بالنار؟ قلت : كان ظالما وجزاء الظالم حسن جائز أن يراد.

ألا ترى إلى قوله تعالى وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ وإذا جاز أن يريده اللَّه ، جاز أن يريده العبد لأنه لا يريد إلا ما هو حسن «3». والمراد بالإثم وبال القتل وما يجره من استحقاق العقاب. فإن قلت : لم جاء الشرط بلفظ الفعل «4» والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله : (لَئِنْ بَسَطْتَ .....)

(1). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. وللبخاري في الأدب المفرد عن أنس نحوه.
(2). قال محمود : «إن قلت : كيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه ... الخ» قال أحمد : وهذا من دسه للمعتقد الفاسد في بيان كلامه ، والفاسد من هذا اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مرادا للَّه تعالى وتلك القبائح بجملتها ، فإنها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية ، وهذا هو الشرك الخفي فإياك أن تحوم حول شركه والعياذ باللَّه فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه : إنى لا أريد أن أقتلك فأعاقب ، ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين : إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مريد للأول اضطر إلى الثاني ، فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ولم تكن حينئذ مشروعة فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه. وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة. ومعناها أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم ، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل اللَّه رجاء إثم الكافر بقتله ضمنا وتبعا. والذي يدل على ذلك أنه لا فرق في حصول درجة الشهادة ، وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر ، وبين أن يختم له بالايمان فيحبط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيدا ، أعنى بقي الإثم على قاتله أو حبط عنه إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيدها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمني باعتبار بقائه وإحباطه فدل على أنه أمر لازم تبع لا مقصود. واللَّه أعلم.
(3). قوله «لأنه لا يريد إلا ما هو حسن» هذا مذهب المعتزلة أما عند أهل السنة ، فاللَّه يريد كل كائن حسنا كان أو قبيحا كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(4). عاد كلامه. قال : «فان قلت : لم جاء الشرط بصيغة الفعل والجزاء باسم الفاعل ... الخ» قال أحمد :
وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل لا تعطى سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير. وأما اتصاف الذات به فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل. ومن ثم يقولون : قام زيد فهو قائم ، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئا عن صدوره منه ، ولهذا المعنى قوله تعالى : (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) عدولا عن الفعل الذي هو لنرجمنك إلى الاسم تغليظا. يعنون أنهم يجعلون هذه لثبوتها ووقوعها به كالسمة والعلامة الثابتة ، ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به.

(ما أَنَا بِباسِطٍ)؟ قلت : ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع. ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فوسعته له ويسرته ، من طاع له المرتع : إذا اتسع. وقرأ الحسن : فطاوعت. وفيه وجهان : أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل ، وأن يراد أنّ قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه

فطاوعته ولم تمتنع ، وله لزيادة الربط كقولك : حفظت لزيد ماله. وقيل : قتل وهو ابن عشرين سنة ، وكان قتله عند عقبة حراء ، وقيل بالبصرة في موضع المسجد الأعظم فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً روى أنه أوّل قتيل قتل على وجه الأرض من بنى آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به ، فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع ، فبعث اللَّه غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ ويروى أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال : ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسودّ جسدك. وروى أنّ آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك» وأنه رثاه بشعر ، وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون. وقد صحّ أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. لِيُرِيَهُ ليريه اللَّه. أو ليريه الغراب ، أى ليعلمه لأنه لما كان سبب تعليمه ، فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز سَوْأَةَ أَخِيهِ عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده. والسوأة: الفضيحة لقبحها. قال : يَا لَقَوْمِ لِلسَّوْأةِ السَّوْآء «1»

أى للفضيحة العظيمة فكنى بها عنها فَأُوارِيَ بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ بالسكون على : فأنا أوارى. أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف مِنَ النَّادِمِينَ على قتله ، لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره ، وتبين له من عجزه ، وتلمذه للغراب ، واسوداد لونه وسخط أبيه ، ولم يندم ندم التائبين مِنْ أَجْلِ ذلِكَ بسبب ذلك وبعلته. وقيل : أصله من أجل شرا إذا جناه يأجله أجلا. ومنه قوله : وَأَهْلِ خِبَاءٍ صَالحٍ ذَاتُ بَيْنِهِمْ قَدم احْتَرَبُوا فِى عَاجِلٍ أَنَا آجِلُهْ «2»

(1). قوله «يا لقوم» يروى يا لقومي. (ع)
(2) وأهل خباء صالح ذات بينهم قد احتربوا في عاجل أنا آجله
فأقبلت في الباغين أسأل عنهم سؤالك بالأمر الذي أنت جاهله
لخوات بن جبير ، يصف نفسه بأنه مهياج للشرور والحروب ، يقول : ورب أهل خباء ، أى بيوت متلاصقة كأنها بيت واحد. أو كنى به عن تقاربهم في النسب صالح ذات بينهم. أى الحال التي بينهم صالحة ، قد تحاربوا بسبب شر عاجل أنا آجله أى جانبه قبل الحرب ومهيجه. وفيه شبه التضاد. ويقال : أجل الشر أجلا إذا جناه وهيجه ، فمحاربتهم كانت من أجله وبسببه ، فانخذل الباغون للشر ، فأقبلت أسأل عنهم ، كسؤالك بالأمر : أى عن الأمر الذي أنت جاهله ، أفاد بالتشبيه أنه كان ليس جاهلا بهم حين سؤاله ، وإنما كان يريهم أنه معهم ومحب لهم لا لعدوهم.

كأنك إذا قلت : من أجلك فعلت كذا ، أردت من أن جنيت فعله وأوجبته ، ويدل عليه قولهم : من جراك فعلته ، أى من أن جررته بمعنى جنيته. وذلك إشارة إلى القتل المذكور ، أى من أن جنى ذلك القتل الكتب وجرّه كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ و«من» لابتداء الغاية ، أى ابتدأ والكتب نشأ من أجل ذلك. ويقال : فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال : أجل كذا ، بحذف الجار وإيصال الفعل قال : أجل أنّ اللَّه قد فضلكم. وقرئ : من اجل ذلك ، بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر : من إجل ذلك ، بكسر الهمزة وهي لغة فإذا خفف كسر النون ملقيا لكسرة الهمزة عليها بِغَيْرِ نَفْسٍ بغير قتل نفس ، لا على وجه الاقتصاص أَوْ فَسادٍ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد فِي الْأَرْضِ وهو الشرك.

وقيل : قطع الطريق وَمَنْ أَحْياها ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك. فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت : لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على اللَّه وثبوت الحرمة ، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على اللَّه وهتكت حرمته وعلى العكس ، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك. فإن قلت : فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها لأنّ المتعرّض لقتل النفس إذا تصوّر قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه ، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد : قاتل النفس جزاؤه جهنم ، وغضب اللَّه ، والعذاب العظيم. ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن : يا ابن آدم ، أرأيت لو قتلت الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازى ذلك فيغفر لك به؟ كلا إنه شيء سوّلته لك نفسك والشيطان ، فكذلك إذا قتلت واحداً بَعْدَ ذلِكَ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات لَمُسْرِفُونَ يعنى في القتل لا يبالون بعظمته.

[سورة المائدة (5) : الآيات 33 إلى 34]

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (33) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)

يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يحاربون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ومحاربة المسلمين في حكم محاربته وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً مفسدين ، أو لأنّ سعيهم في الأرض لما كان على طريق الفساد نزل منزلة : ويفسدون في الأرض فانتصب فسادا. على المعنى ، ويجوز أن يكون مفعولا له ، أى للفساد. نزلت في قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عهد وقد مرّ بهم قوم يريدون رسول اللَّه فقطعوا عليهم. وقيل : في العرنيين ، فأوحى إليه أنّ من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أفرد القتل قتل. ومن أفرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال ، ورجله لإخافة السبيل. ومن أفرد الإخافة نفى من الأرض. وقيل : هذا حكم كل قاطع طريق كافرا كان أو مسلما. ومعناه أَنْ يُقَتَّلُوا من غير صلب ، إن أفردوا القتل أَوْ يُصَلَّبُوا مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما اللَّه ، يصلب حيا ، ويطعن حتى يموت أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ إن أخذوا المال أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ إذا لم يزيدوا على الإخافة. وعن جماعة منهم الحسن والنخعي : أن الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفي : الحبس عند أبى حنيفة ، وعند الشافعي : النفي من بلد إلى بلد ، لا يزال يطلب وهو هارب فزعا ، وقيل : ينفى من بلده ، وكانوا ينفونهم إلى «دهلك» وهو بلد في أقصى تهامة ، و«ناصع» وهو بلد من بلاد الحبشة خِزْيٌ ذلّ وفضيحة إِلَّا الَّذِينَ تابُوا استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة. وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فإلى الأولياء ، إن شاءوا عفوا ، وإن شاءوا استوفوا. وعن على رضى اللَّه عنه : أنه الحرث بن بدر «1» جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق ، فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة.

[سورة المائدة (5) : آية 35]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35)

الوسيلة : كل ما يتوسل به أى يتقرّب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى اللَّه تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي. وأنشد للبيد :

أَرَى النَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا قَدْرُ أَمْرِهِمْ أَلَا كُلُّ ذِّ لُبٍ إِلَىَ اللَّهِ وَاسِلُ «2»

---

(1). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية مجالد عن الشعبي. قال : كان حارثة بن بدر التميمي قد أفسد في الأرض وحارب ، فذكر قصة هذا فيها. [.....]

(2) ألا تسألان المرء ما ذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ألا كل ذى لب إلى اللَّه واسل
ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

للبيد بن ربيعة العامري. وهمزة الاستفهام التي بعدها النفي للتحضيض على الفعل ، أى : سلاه وقولا له : ما الذي تريده وتجهد نفسك في تحصيله؟ وعبر بلفظ الغيبة نظرا للفظ المرئي. وخطاب المثنى عادة جارية على لسان العرب ، وإن كان المراد غيره. وقوله «أنحب» بدل «ما» والنحب : النذر والحمد والسرعة ، كما أن النعب - بالعين - : السرعة ، أى أغرض صحيح فيقضى له ، أم باطل فلا ينبغي؟ أو المعنى : أشى أوجبه على نفسه فهو يسعى في قضائه ، أم ضلال؟

وعلى كل فلا ينبغي : وقوله «ما قدر أمرهم» أى ما الذي هم فيه من شئون الدنيا وسرعة فنائها. و«ألا» استفتاحية «كل ذى لب» أى عقل «واسل» إلى اللَّه لا إلى غيره ، أى متوسل به ومتلجئ إليه من شر الدنيا وشر من لا يعقل ، أو متقرب إليه بما ينفعه. ويروى «بلى كل» وهي أوقع معنى ، لأنها رد لدعوى تعميم السابقة. ويروى «واصل» بالصاد ، أى صائر أو متوجه بكليته. ويجوز فيه وفي واسل أنهما بمعنى متقرب إلى اللَّه بالطاعة ، لا مشتغل بالدنيا الفانية كغيره من الجهال. و«باطل» خبر كل شيء. و«زائل» خبر كل نعيم. و«لا محالة» اعتراض مؤكد.

و«الدويهية» تصغير الداهية وهي المنية ، بقرينة ما بعد. وتصغيرها للتعظيم والتهويل ، أو للتحقير على زعم الغافلين المتهاونين ،

[سورة المائدة (5) : الآيات 36 إلى 37]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (37)

لِيَفْتَدُوا بِهِ ليجعلوه فدية لأنفسهم. وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم ، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه. وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «يقال للكافر يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدى به ، فيقول : نعم ، فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك «1»» و«لو» مع ما في حيزه خبر «أن». فإن قلت : لم وحد الراجع في قوله : (لِيَفْتَدُوا بِهِ) وقد ذكر شيئان؟ قلت : نحو قوله : فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ «2»

(1). متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى الله عنه.
(2) دعاك الهوى والشوق لما ترنحت هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوبها ورق أصخن لصوتها فكل لكل مسعد ومجيب
فمن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيار بها لغريب
لضابئ بن الحرث البرجمي حين حبسه عثمان بن عفان لما هجا بنى نهشل. والترنح : التمايل. ويروى «ترنمت» أى تغنت بحسن صوتها. وهتفت الحمامة إذا غردت ، فهي هتوف أى مفردة. و«بين» ظرف للترنح. و«طروب» مبالغة في الطرب ، يوصف به المذكر والمؤنث ، كهتوف. وهو فاعل ، وهتوف حال وإضافته لا تفيده التعريف في المعنى. ويجوز رفعه على أنه فاعل ، وطروب نعته لأنه وصف مضاف فلا تعريف له في اللفظ أيضا.
و«الورق» جمع ورقاء نوع من الحمام. و«أصخن» ملن واستمعن. ويروى «أرعن» ولم أجد في كتب اللغة «رعن» إلا بمعنى زكى ونمى ، فلعل معناه نشطن على المجاز. وروى «و من يك» بالواو. ومرفوع «أمسى» ضمير «من».
وجملة «بالمدينة رحله» خبره ، والجملة خبر يكن. ويجوز أن مرفوعه هو رحله ، وجواب الشرط محذوف ، أى ومن أمسى رحله بالمدينة حسن حاله ، بخلاف حالى ، فانى غريب لأن رحلي - أى منزلي - ليس فيها ، وإنما فيها أنا وفرسي فقط. و«قيار» اسم فرسه. وقيل جمله. وقيل غلامه. وهو مبتدأ أو معطوف على محل اسم «إن» حذف خبره اختصاراً لدلالة المذكور عليه ، فالعطف من عطف الجمل أو المفردات. وفيه العطف قبل تمام المعطوف عليه ، لكنه على نية التقديم والتأخير ، وهو سماعي لا يجوز القياس عليه، ولا يجوز جعل الغريب خبراً عنهما لئلا يتوارد عاملان على معمول واحد ، ولا جعله خبرا عن قيار لأن لام الابتداء لا تدخل على الخبر المؤخر. والبيت لفظه خبر ، ومعناه إنشاء التحسر والتحزن ، لكونه غريباً وحيداً.

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة ، كأنه قيل : ليفتدوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في : (مِثْلَهُ) بمعنى «مع» فيتوحد المرجوع إليه. فإن قلت : فبِمَ ينصب المفعول معه؟ قلت : بما يستدعيه «لو» من الفعل ، لأن التقدير : لو ثبت أن لهم ما في الأرض. قرأ أبو واقد (أن يخرجوا) بضم الياء من أخرج. ويشهد لقراءة العامّة قوله : (بِخارِجِينَ). وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار «1» وقد قال الله تعالى : (وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها) فقال : ويحك «2» ، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار.

فمما لفقته المجبرة «3» وليس بأول تكاذيبهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده «4» من بنى عبد المطلب وهو حبر الأمّة وبحرها ومفسرها ، بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا ، ويرفعه إلى عكرمة دليلين ناصين أن الحديث فرية ما فيها مرية.

[سورة المائدة (5) : الآيات 38 إلى 40]

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40)

(1). قال محمود : «و ما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يا أعمى البصر أعمي القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار ... الخ» قال أحمد : في هذا الفصل من كلامه وتمشدقه بالسفاهة على أهل السنة ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكذب والتخليق والافتراء ما يحمي الكبد المملوء بحب السنة وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه ، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية ، ولا وقف الله صحة العقيدة على صحتها.
(2). لم أجده. وقد أنكره صاحب الكشاف وقال : هذا مما لفقه المجبرة. وليس أول تكاذيبهم إلى آخر كلامه
(3). قوله «فمما لفقته المجبرة «يعنى أهل السنة القائلين بخروج صاحب الكبيرة من النار لأنه مؤمن خلافا للمعتزلة القائلين لا مؤمن ولا كافر بل واسطة. وتحقيق المبحث في علم التوحيد. (ع)
(4). قوله «و أنضاده» في الصحاح : أنضاد الرجل ، أعمامه وأخواله المتقدمون في الشرف. (ع)

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف «1» عند سيبويه ، كأنه قيل : وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما. ووجه آخر وهو أن يرتفعا بالابتداء ، والخبر فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط ، لأنّ المعنى : والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا أيديهما ، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب ، وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر لأنّ «زيداً فاضربه» أحسن من «زيد فاضربه» (أَيْدِيَهُما) يديهما ، ونحوه (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف.

(1). قال محمود : «رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه كأنه ... الخ» قال أحمد : المستقرأ من وجوه القرآت أن العامة لا تتفق فيها أبداً على العدول عن الأفصح. وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لا يخلو من الأفصح وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها.

وسيبويه يحاشى من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح ، واشتماله على الشاذ الذي لا يعد من القرآن. ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل. قال سيبويه - في ترجمة باب الأمر والنهى ، بعد أن ذكر المواضع التي يختار فيها النصب - : وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر فذاك موضع اختيار النصب ، ثم قال : كالموضح لامتياز هذه الآية عما اختار فيها النصب. وأما قوله عز وجل : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ...) الآية وقوله : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا ...) فان هذا لم يبن على الفعل ، ولكنه جاء على مثال قوله : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) ثم قال بعد (فِيها أَنْهارٌ) فيها كذا ... قلت : يريد سيبويه تمييز هذه الآي عن المواضع التي بين اختيار النصب فيها ، ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيها مبنيا على الفعل. وأما في هذه الآي فليس بمبني عليه ، فلا يلزم فيه اختيار النصب. عاد كلامه. قال : وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصاً ، فكأنه قال : ومن القصص مثل الجنة ، فهو محمول على هذا الإضمار والله أعلم. وكذلك الزانية والزاني لما قال جل ثناؤه (سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها) قال في جملة الفرائض (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) ثم جاء (فَاجْلِدُوا) بعد أن مضى فيها الرفع. قلت : يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنيا على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئا. عاد كلامه. قال : كما جاء

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر ، وكذلك (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) وفيما فرض عليكم السارق والسارقة ، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث. وقد قرأ ناس (السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) بالنصب وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلا الرفع ، قلت : يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنيا على الفعل ، غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويا بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم ، وليس يعنى أنه قوى بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ، فانه قد بين أن ذلك يخرجه من الباب الذي يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه ، والباب مع القراءتين مختلف. وإنما يقع الترجيح بعد التساوي في الباب فالنصب أرجح من الرفع ، حيث ينبنى الاسم على الفعل والرفع متعين ، لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم ، ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ، ولو كان كما ظنه الزمخشري لم يحتج سيبويه إلى تقدير ، بل كان يرفعه على الابتداء ويجعل الأمر خبره كما أعربه الزمخشري ، فالملخص على هذا أن النصب على وجه واحد وهو بناء الاسم على فعل الأمر ، والرفع على وجهين : أحدهما ضعيف وهو الابتداء ، وبناء الكلام على الفعل ، والآخر قوى بالغ كوجه النصب ، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دل عليه السياق ، وحيثما تعارض لنا وجهان في الرفع وأحدهما قوى والآخر ضعيف ، تعين حمل القراءة على القوى كما أعربه سيبويه رضى اللَّه عنه. واللَّه تعالى أعلم.

وأريد باليدين اليمينان ، بدليل قراءة عبد اللَّه : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ، والسارق في الشريعة : من سرق من الحرز : والمقطع. الرسغ. وعند الخوارج : المنكب. والمقدار الذي يجب به القطع عشرة دراهم عند أبى حنيفة ، وعند مالك والشافعي رحمهما اللَّه ربع دينار. وعن الحسن درهم وفي مواعظه : احذر من قطع يدك في درهم جَزاءً ونَكالًا مفعول لهما فَمَنْ تابَ من السرّاق مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ من بعد سرقته وَأَصْلَحَ أمره بالتفصى عن التبعات فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ويسقط عنه عقاب الآخرة. وأمّا القطع فلا تسقطه التوبة عند ابى حنيفة وأصحابه وعند الشافعي في أحد قوليه تسقطه مَنْ يَشاءُ من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرين والتائبين. وقيل : يسقط حدّ الحربي إذا سرق بالتوبة ، ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه ، ولا يسقطه عن المسلم «1» : لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة (وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ). فإن قلت : لم قدّم التعذيب على المغفرة «2»؟ قلت : لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة.

[سورة المائدة (5) : آية 41]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (41)

قرئ (لا يحزنك) بضم الياء. ويسرعون. والمعنى : لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين فِي الْكُفْرِ أى في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين ، فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرّهم. يقال : أسرع فيه الشيب ، وأسرع فيه الفساد ، بمعنى : وقع فيه سريعاً ،

(1). قوله «و لا يسقطه عن المسلم» لعله «و لا يسقط» أو «و لا تسقطه». (ع)

(2). قال محمود : «فان قلت لم قدم التعذيب على المغفرة ... الخ» قال أحمد : هو مبنى على أن المراد بالمغفور لهم التائبون ، وبالمعذبين السراق. ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة إلا بقيد التوبة ، لأن غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء اللَّه المغفرة له ، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم ذكره. ونحن نعتقد أن المغفرة في حق غير التائب من الموحدين تتبع المشيئة ، حتى أن من جملة ما يدخل في عموم قوله : (وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ) السارق الذي لم يتب. وعلى هذا يكون تقديم التعذيب لأن السياق للوعيد فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر واللَّه أعلم.

فكذلك مسارعتهم في الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه ، أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطؤها. وآمَنَّا مفعول قالوا : وبِأَفْواهِهِمْ متعلق بقالوا لا بآمنا وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا منقطع مما قبله خبر لسماعون ، أى : ومن اليهود قوم سماعون. ويجوز أن يعطف على : (مِنَ الَّذِينَ قالُوا) ويرتفع سماعون على : هم سماعون. والضمير للفريقين.

أو للذين هادوا. ومعنى سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على اللَّه وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان. ومنه «سمع اللَّه لمن حمده» سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يعنى اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتجافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة ، أى قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك. وقيل : سماعون إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لأجل أن يكذبوا عليه بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ، سماعون من رسول اللَّه لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه. وقيل : السماعون : بنو قريظة. والقوم الآخرون : يهود خيبر يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ يميلونه ويزيلونه مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ التي وضعه اللَّه تعالى فيها ، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع إِنْ أُوتِيتُمْ هذا المحرف المزال عن مواضعه فَخُذُوهُ واعلموا أنه الحق واعملوا به وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ وأفتاكم محمد بخلافه فَاحْذَرُوا وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال.

وروى أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدّهما الرجم في التوراة ، فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك ، وقالوا : إن أمركم محمد بالجلد والتحميم «1» فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا ، وأرسلوا الزانيين معهم ، فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ، فقال هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا : نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض ورضوا به حكما. فقال له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : أنشدك اللَّه الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه ، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن؟ قال : نعم ، فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال : خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب. ثم سأل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه النبي الأمى العربي الذي بشر به المرسلون ،

(1). قوله «و التحميم» أى التسويد. وفي الصحاح «الحمة» بالضم : السواد. (ع)

وأمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الزانيين «1» فرجما عند باب مسجده «2» وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ تركه مفتوناً «3» وخذلانه «4» فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فلن تستطيع له من لطف اللَّه وتوفيقه شيئا أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ) (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ).

[سورة المائدة (5) : الآيات 42 إلى 43]

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43)

لِلسُّحْتِ كل ما لا يحل كسبه ، وهو من - سحته - إذا استأصله لأنه مسحوت البركة كما قال تعالى : (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا) والربا باب منه. وقرئ (لِلسُّحُتِ) بالتخفيف والتثقيل. والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته. والسحت ، بفتحتين. والسحت ، بكسر السين. وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام.

(1). قوله «الزانيين» لعله بالزانيين. (ع)
(2). أخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني ابن شهاب سمعت رجلا من مزينة يحدث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة - فذكره ، دون أوله ، ودون قوله فيه : فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور ، يسكن فدك. ودون ما في آخره. وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري مطولا - زاد فيه قصة الملك الذي كان زنى منهم فلم يرجموه ، وأصله في الصحيحين من حديث أبى هريرة وغيره مختصرا.
(3). قال محمود : «معنى ومن يرد اللَّه فتنته : ومن يرد تركه مفتونا ... الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : كم يتلجلج والحق أبلج هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة في أن اللَّه تعالى أراد الفتنة من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الايمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ولكن لم يقع ، فحسبهم هذه الآية وأمثالها ، لو أراد اللَّه أن يطهر قلوبهم من وضر البدع. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها. وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله : لم يرد اللَّه أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع ، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وإذا لم تنجع ألطاف اللَّه تعالى ولم تنفع ، فلطف من ينفع وإرادة من تنجع؟ وليس وراء اللَّه للمرء مطمع. [.....]
(4). قوله «تركه مفتونا وخذلانه» قدر هذا بناء على أنه تعالى لا يريد الشر عند المعتزلة لكن عند أهل السنة يريد الشر والخير كما حقق في محله. (ع)

وعن الحسن : كان الحاكم في بنى إسرائيل إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمه فأراها إياه وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه ، فيأكل الرشوة ويسمع الكذب. وحكى أن عاملا قدم من عمله فجاءه قومه ، فقدم إليهم العراضة «1» وجعل يحدّثهم بما جرى له في عمله ، فقال أعرابى من القوم : نحن كما قال اللَّه تعالى : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى «2» به» قيل : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مخيراً - إذا تحاكم إليه أهل الكتاب - بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وعن عطاء والنخعي والشعبي : أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين ، فإن شاءوا حكموا وإن شاءوا أعرضوا. وقيل : هو منسوخ بقوله : (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ) وعند أبى حنيفة رحمه اللَّه : إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام ، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئا أقيم عليه الحدّ. وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم ، يذهبون إلى أنهم قد صولحوا على شركهم وهو أعظم الحدود. ويقولون : إنّ النبي صلى اللَّه عليه وسلم رجم اليهوديين قبل نزول الجزية فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، كالجلد مكان الرجم. فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم ، شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم وكانوا خلقاء بأن يعادوه ويضاروه ، فأمن اللَّه سربه بِالْقِسْطِ بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه ،

(1). قوله «فقدم إليهم العراضة» في الصحاح : العراضة - بالضم - : ما يعرض المائر ، أى يطعمه من الميرة.
ويقال : اشتر عراضة لأهلك ، أى هدية وشيأ تحمله إليهم. (ع)

(2). أخرجه الحاكم من رواية زيد بن أرقم عن أبى بكر الصديق رضى اللَّه عنه : سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول «من نبت لحمه من السحت فالنار أولى به» وأخرجه ابن عدى في ترجمة عبد الواحد بن زمعة وضعف به وفي الباب عن معمر عند الطبراني وابن عدى في أثناء حديث وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي. وهو ضعيف.
وعن حذيفة أخرجه إسحاق بن راهويه من طريق كردوس قال «خطب حذيفة بالمدائن - فذكر الخطبة. وفيها الحديث ، بلفظ «ليس لحم ينبت من سحت فيدخل الجنة» وأخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أيوب بن سويد عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة بلفظ «لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به» قال أبو حاتم في العلل : أخطأ أيوب بن سويد فيه. والصواب موقوف. وعن ابن عمر أخرجه الطبراني والحارثي في الغريب.
وابن مردويه في الغريب من طريق عمر بن حمزة عنه. ورجاله ثقات إلا أن عمر لم يسمع من ابن عمر. وعن ابن عباس أخرجه الطبراني والبيهقي من وجهين ضعيفين. وروى الترمذي من حديث كعب بن عجرة في حديث طويل في آخره «يا كعب بن عجرة ، إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا وكانت النار أولى به ، وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وسألت محمدا عنه فاستغربه. وقال أبو يعلى من وجه آخر عن كعب بن عجرة ، وله شاهد فيه ابن حبان من رواية عبد اللَّه بن خيثمة عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد اللَّه «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال :
يا كعب بن عجرة - فذكر مثله سواء» وأخرجه أحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى والحاكم من هذا الوجه ، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة. فذكر مثل حديث كعب بن عجرة «أنه صلى اللَّه عليه وسلم خاطب به عبد الرحمن» وسعيد بن بشير ضعيف.

مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ بكتابهم كما يدّعون. أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم. فإن قلت : فِيها حُكْمُ اللَّهِ ما موضعه من الإعراب؟ قلت : إمّا أن ينتصب حالا من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك : وعندهم التوراة ناطقة بحكم اللَّه وإمّا أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة ، لأنّ عندهم ما يغنيهم عن التحكيم ، كما تقول : عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب ، فما تصنع بغيره؟ فإن قلت : لم أنثت التوراة؟ قلت : لكونها نظيرة لموماة ودوداة ونحوها في كلام العرب. فإن قلت : علام عطف ثم يتولون؟ قلت : على يحكمونك.

[سورة المائدة (5) : آية 44]

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (44)
فِيها هُدىً يهدى للحق والعدل وَنُورٌ يبين ما استبهم من الأحكام الَّذِينَ أَسْلَمُوا صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح «1» ، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح ،

(1). قال محمود : «قوله أسلموا صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح ... الخ» قال أحمد : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح أن الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها ، فذكر النبوة يستلزم ذكرها ، فمن ثم حملها على المدح. وفيه نظر فان المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التي يتميز بها الممدوح عمن دونه.
والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم. ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي أن يقتصر على كونه رجلا مسلما فان أقل متبعيه كذلك. فالوجه واللَّه أعلم أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر ، كما يكون تنويها بقدر

موصوفها. فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة ، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها. وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى : (وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) وأمثاله ، تنويهاً بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء وبعثا لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته ، وكذلك قيل في قوله تعالى : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) فأخبر عن الملائكة المقربين بالايمان تعظيما لقدر الايمان ، وبعثا للبشر على الدخول فيه ليساووا الملائكة المقربين في هذه الصفة ، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنين ليس إلا ، ولهذا قال : (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعنى من البشر لثبوت حق الاخوة في الايمان بين الطائفتين ، فكذلك - واللَّه أعلم - جرى وصف الأنبياء في هذه الآية بالإسلام تنويهاً به. ولقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف ، والناظم في مدحه عليه الصلاة والسلام

فلئن مدحت محمداً بقصيدتي فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف إذ حاصله معرفة اللَّه تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز في حقه ، إلا أن النبوة أشرف وأجل ، لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة ، فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبوة في سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز ، وفي كلام العرب الفصيح ، وهو الترقي من الأدنى إلى الأعلى لا النزول على العكس. ألا ترى أبا الطيب كيف تزحزح عن هذا المهيع في قوله :

شمس ضحاها هلال ليلتها در تقاصيرها زبرجدها

فنزل عن الشمس إلى الهلال. وعن الدر إلى الزبرجد ، في سياق المدح ، فمضغت الألسن عرض بلاغته ، ومزقت أديم صيغته. فعلينا أن نتدبر الآيات المعجزات ، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها في البلاغة المعهود لها ، واللَّه الموفق للصواب.

وأريد بإجرائها التعريض باليهود ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث ، وأنّ اليهودية بمعزل منها. وقوله : الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا مناد على ذلك وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ والزهاد والعلماء من ولد هارون ، الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ بما سألهم أنبياؤهم حفظه من التوراة ، أى بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل.

و(مِنْ) في : (مِنْ كِتابِ اللَّهِ) للتبيين وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ رقباء لئلا يبدل. والمعنى يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى ، وكان بينهما ألف نبىّ وعيسى للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة لا يتركونهم أن يعدلوا عنها ، كما فعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم وإرغام أنوفهم ، وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد. وكذلك حكم الربانيون والأحبار والمسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب اللَّه والقضاء بأحكامه ، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في : (اسْتُحْفِظُوا) للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من اللَّه ، أى كلفهم اللَّه حفظه وأن يكونوا عليه شهداء فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ نهى للحكام عن خشيتهم غير اللَّه في حكوماتهم وإدهانهم «1» فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء وَلا تَشْتَرُوا ولا تستبدلوا ولا تستعيضوا (بآيات اللَّه) وأحكامه ثَمَناً قَلِيلًا وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، كما حرّف أحبار اليهود كتاب اللَّه وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلبا للرئاسة فهلكوا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مستهينا به فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ والظالمون والفاسقون : وصف لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات اللَّه بالاستهانة. وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : أنّ الكافرين والظالمين والفاسقين : أهل الكتاب.

(1). قوله «و ادهانهم فيها» في الصحاح : المداهنة - كالمصانعة. والادهان مثله. (ع)

وعنه : نعم القوم أنتم ، ما كان من حلو فلكم ، ومن كان من مرّ فهو لأهل الكتاب ، من جحد حكم اللَّه كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي : هذه في أهل الإسلام ، والظالمون في اليهود ، والفاسقون في النصارى. وعن ابن مسعود : هو عام في اليهود وغيرهم.

وعن حذيفة : أنتم أشبه الأمم سمتا ببني إسرائيل : لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة «1» ، غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا؟

[سورة المائدة (5) : آية 45]

وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

في مصحف أبىّ : وأنزل اللَّه على بنى إسرائيل فيها. وفيه : وأن الجروح قصاص. والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل أن النفس ، لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا ، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول : كتبت الحمد للَّه ، وقرأت سورة أنزلناها.

ولذلك قال الزجاج : لو قرئ : إن النفس بالنفس ، بالكسر لكان صحيحاً. أو للاستئناف.

والمعنى : فرضنا عليهم فيها أَنَّ النَّفْسَ مأخوذة بِالنَّفْسِ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق وَكذلك الْعَيْنَ مفقوءة بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ مجدوع بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ مصلومة بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ مقلوعة بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ ذات قصاص ، وهو المقاصة ، ومعناه : ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة. وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت فَمَنْ تَصَدَّقَ من أصحاب الحق بِهِ بالقصاص وعفا عنه فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر اللَّه من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته ، وعن عبد اللَّه بن عمرو يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به ، وقيل : فهو كفارة للجاني ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه ، وفي قراءة أبىّ : فهو كفارة له يعنى فالمتصدق كفارته له أى الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها ، وهو تعظيم لما فعل ، كقوله تعالى : (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) وترغيب في العفو.

[سورة المائدة (5) : الآيات 46 إلى 47]

وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (47)

(1). قوله «و القذة بالقذة» القذة. ريشة السهم اه. (ع)

قفيته مثل عقبته ، إذا أتبعته ، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به ، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء فإن قلت : فأين المفعول الأول في الآية؟ قلت ، هو محذوف والظرف الذي هو عَلى آثارِهِمْ كالسادّ مسدّه لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، والضمير في آثارهم للنبيين في قوله : (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا). وقرأ الحسن : الإنجيل بفتح الهمزة فإن صح عنه فلأنه أعجمى خرج لعجمته عن زناة العربية ، كما خرج هابيل وآجر وَمُصَدِّقاً عطف على محل (فِيهِ هُدىً) ومحله النصب على الحال وَهُدىً وَمَوْعِظَةً يجوز أن ينتصبا على الحال. كقوله : (مُصَدِّقاً) وأن ينتصبا مفعولا لهما ، كقوله : (وَلْيَحْكُمْ) كأنه قيل. وللهدى والموعظة آتيناه الإنجيل ، وللحكم بما أنزل اللَّه فيه من الأحكام. فإن قلت : فإن نظمت (هُدىً وَمَوْعِظَةً) في سلك مصدقا ، فما تصنع بقوله وليحكم قلت : أصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولا لهما ، فأقدّر : وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللَّه آتيناه إياه. وقرئ : وليحكم على لفظ الأمر بمعنى : وقلنا ليحكم. وروى في قراءة أبى : وأن ليحكم ، بزيادة «أن» مع الأمر على أنّ «أن» موصولة بالأمر ، كقولك : أمرته بأن قم كأنه قيل : وآتيناه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل : إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة. وظاهر قوله (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ) يردّ ذلك ، وكذلك قوله: (لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً) وإن ساغ لقائل أن يقول : معناه : وليحكموا بما أنزل اللَّه فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

[سورة المائدة (5) : آية 48]

وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)

فإن قلت : أى فرق بين التعريفين في قوله وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ وقوله لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ؟ قلت : الأول تعريف العهد ، لأنه عنى به القرآن. والثاني تعريف الجنس ، لأنه غنى به جنس الكتب المنزلة : ويجوز أن يقال : هو للعهد لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق وإنما أريد نوع معلوم منه ، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن وَمُهَيْمِناً ورقيبا على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات. وقرئ (وَمُهَيْمَناً عَلَيْهِ) بفتح الميم ، أى هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل ، كما قال : (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ) والذي هيمن عليه اللَّه عزّ وجلّ أو الحفاظ في كل بلد ، لو حُرِّف حَرْف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ، ولاشمأزوا رادّين ومنكرين. ضمن وَلا تَتَّبِعْ معنى ولا تنحرف فلذلك عدّى بعن كأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ أيها الناس شِرْعَةً شريعة. وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين وَمِنْهاجاً وطريقا واضحا في الدين تجرون عليه.

وقيل : هذا دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً جماعة متفقة على شريعة واحدة ، أو ذوى أمة واحدة أى دين واحد لا اختلاف فيه وَلكِنْ أراد لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ من الشرائع المختلفة ، هل تعملون بها مذغنين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات ، معترفين بأن اللَّه لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة؟ أم تتبعون الشبه وتفرطون في العمل؟ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ فابتدروها وتسابقوا نحوها إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات فَيُنَبِّئُكُمْ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفرطكم في العمل.

[سورة المائدة (5) : آية 49]

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (49)

فإن قلت : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ معطوف على ما ذا؟ قلت : على : (الْكِتابَ) في قوله (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ) كأنه قيل : وأنزلنا إليك أن احكم على أنّ «أن» وصلت بالأمر ، لأنه فعل كسائر الأفعال : ويجوز أن يكون معطوفا على : (بِالْحَقِّ) أى أنزلناه بالحق وبأن احكم أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ أن يضلوك عنه ويستزلوك : وذلك أن كعب بن أسيد وعبد اللَّه بن صوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود ، وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا ، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدّقك ، فأبى ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فنزلت. فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الحكم بما أنزل اللَّه إليك وأرادوا غيره فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ يعنى بذنب التولي عن حكم اللَّه وإرادة خلافه ، فوضع بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ موضع ذلك وأراد أنّ لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد ، وأنّ هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها ، وهذا الإيهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه. ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد :

أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا «1»

أراد نفسه : وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام ، كأنه قال : نفسا كبيرة ، ونفساً أىّ نفس ، فكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فكذلك إذا صرح بالبعض لَفاسِقُونَ المتمرّدون في الكفر معتدون فيه ، يعنى أنّ التولي عن حكم اللَّه من التمرّد العظيم والاعتداء في الكفر.

[سورة المائدة (5) : آية 50]

أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)

أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ فيه وجهان ، أحدهما : أنّ قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى : وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال لهم «القتلى بواء» فقال بنو النضير : نحن لا نرضى بذلك «2» فنزلت : والثاني : أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم ، وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل ، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من اللَّه تعالى : وعن الحسن : هو عامّ في كل من يبغى غير حكم اللَّه : والحكم حكمان : حكم بعلم فهو حكم اللَّه ، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض ، فقرأ هذه الآية : وقرئ :

تبغون ، بالتاء والياء : وقرأ السلمى : أفحكم الجاهلية يبغون ، برفع الحكم على الابتداء ، وإيقاع يبغون خبراً وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في : (أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) وعن الصفة في : الناس رجلان : رجل أهنت ، ورجل أكرمت. وعن الحال في «مررت بهند يضرب زيد» وقرأ قتادة (أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ) على أنّ هذا الحكم الذي يبغونه إنما يحكم به أفعى نجران ،

(1) تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
للبيد بن ربيعة من معلقته. يقول : أنا كثير ترك الأمكنة إذا لم أرض الاقامة بها. أو يربط ويحتبس بعض النفوس ، يعنى نفسه «حمامها» أى موتها المقدر لها فإذا رضيتها أو احتبسني الموت فيها فكيف أتركها؟ فقوله «يرتبط» بالجزم ، عطف على المجزوم قبله. وقيل «أو» بمعنى «إلا» لكن كان حقه النصب حينئذ. ولعله سكن للضرورة. وكما أن التنوين يفيد معنى التعظيم ، فكذلك كل ما فيه إبهام كالبعضية هنا ، فعبر عن نفسه ببعض النفوس دلالة على التعظيم.
بل ربما ادعى أنها كل النفوس مبالغة.

(2). لم أجده هكذا ، وفي ابن أبي شيبة من طريق الشعبي قال : كان بين حيين من العرب قتال - فذكر قصة فيها : فارتفعوا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : «القتلى بواء» أى سواء.

أو نظيره من حكام الجاهلية ، فأرادوا بسفههم أن يكون محمد خاتم النبيين حكما كأولئك الحكام. اللام في قوله لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ للبيان كاللام في : (هَيْتَ لَكَ) أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون ، فإنهم الذين يتيقنون أن لا أعدل من اللّه ولا أحسن حكما منه.

[سورة المائدة (5) : الآيات 51 إلى 53]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53)

لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهى بقوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر ، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من اللّه وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله ، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا تراءى ناراهما» «1» ومنه قول عمر رضى اللّه عنه لأبى موسى في كاتبه النصراني : لا تكرموهم إذ أهانهم اللّه ، ولا تأمنوهم إذ خوّنهم اللّه ، ولا تدنوهم إذ أقصاهم اللّه «2» : وروى أنه قال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به ، فقال : مات النصراني والسلام ، يعنى هب أنه قد مات ، فما كنت تكون صانعاً حينئذ فاصنعه الساعة ، واستغن عنه بغيره إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر «3»

(1). أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث جرير «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود - الحديث» وفيه : وقال «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا : ولم؟
قال : لا تراءى ناراهما» وصله أبو معاوية عن إسماعيل عن قيس عنه. وأرسله غيره من أصحاب إسماعيل كعبدة بن سليمان ووكيع وهشيم ومروان وتابعه حجاج بن أرطاة عن إسماعيل موصولا. وحجاج ضعيف ورجح البخاري وغيره المرسل. وخالف الجميع حفص بن غياث فرواه عن إسماعيل عن قيس عن خالد بن الوليد أخرجه الطبراني.
(2). أخرجه البيهقي في أدب القاضي من السنن الكبير مطولا دون ما في آخره ، فلينظر.
(3). قوله «بموالاة الكفر» لعله الكفرة. (ع)

يمنعهم اللّه ألطافه ويخذلهم مقتا لهم يُسارِعُونَ فِيهِمْ ينكمشون في موالاتهم ويرغبون فيها ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان ، أى صرف من صروفه ودولة من دوله ، فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم. وعن عبادة بن الصامت رضى اللّه عنه أنه قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّ لي موالي من يهود كثيراً عددهم ، وإنى أبرأ إلى اللّه ورسوله «1» من ولايتهم وأوالى اللّه ورسوله فقال عبد اللّه بن أبىّ : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالىّ وهم يهود بنى قينقاع فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ يقطع شأفة اليهود «2» ويجلبهم عن بلادهم ، فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم : وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويقولون : ما نظن أن يتم له أمر ، وبالحرى أن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء. وقيل أو أمر من عنده : أو أن يؤمر النبىّ صلى اللّه عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل : أو أمر من عند اللّه لا يكون فيه للناس فعل كبني النضير الذين طرح اللّه في قلوبهم الرعب ، فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا قرئ بالنصب عطفاً على أن يأتى ، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ ، أى : ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت : وقرئ : يقول ، بغير واو ، وهي في مصاحف مكة والمدينة والشأم كذلك على أنه جواب قائل يقول : فما ذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل : يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا. فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت : إمّا أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتباطاً بما منّ اللّه عليهم من التوفيق في الإخلاص أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار.
وإمّا أن يقولوه لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة ، كما حكى اللّه عنهم (وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ). حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ من جملة قول المؤمنين ، أى بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأى أعين الناس. وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم! فما أخسرهم! أو من قول اللّه عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجباً من سوء حالهم.

[سورة المائدة (5) : آية 54]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54)

---

(1). أخرجه الطبري من رواية عطية بن سعيد العوفى قال : جاء رجل يقال له عبادة بن الصامت - فذكره مرسلا وأتم منه ومن هذا الوجه أخرجه ابن أبى شيبة. وله طرق أخرى في المغازي لابن إسحاق عن أبيه عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فذكر نحوه.

(2). قوله «يقطع شأفة اليهود» في الصحاح «الشأفة» قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، فضرب بها المثل في الاستئصال اه باختصار. (ع)

وقرئ (مَنْ يَرْتَدَّ ومن يرتدد ، وهو في الإمام بدالين ، وهو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها. وقيل : بل كان أهل الردّة إحدى عشرة فرقة : ثلاث في عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : بنو مدلج ، ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي ، وكان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده ، وأخرج عمال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فكتب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن ، فأهلكه اللَّه على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بقتله ليلة قتل ، فسرّ المسلمون وقبض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من الغد. وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول «1». وبنو حنيفة ،

---

(1). قوله : إن أهل الردة كانوا إحدى عشرة فرقه ثلاثة في عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وسبعة على عهد أبى بكر رضى اللَّه عنه وواحدة على عهد عمر. فالتي في عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي. قلت : ليس قوله الأسود المذكور بنى مدلج ، بل بنو مدلج قوم من بنى كنانة بن مضر إخوة قريش والأسود المذكور كان باليمن. وقومه بنو عنس - بفتح العين المهملة وسكون النون بعدها سين مهملة. قال الزمخشري كان الأسود المذكور كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبي صلى اللَّه عليه وسلم فكتب النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن ، فأهلكه اللَّه على يد فيروز الديلمي فقتله. وأخبر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بقتله ليلة قتل. فسر المسلمون بذلك. وقبض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من الغد في آخر شهر ربيع الأول. قلت : وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء فان قوله : استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ظاهره يقتضى أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك ، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين ابن أبى أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضا معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في سواحل اليمن. وإنما استولى العنسي على صنعاء. وبعض البلاد الجبالية. وقد نقض الزمخشري كلامه بقوله : فانه صلى اللَّه عليه وسلم كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه : بأن مراده ، إخراج عمال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم. وقوله : وقبض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من الغد ، أى صبيحة إخباره بقتل الأسود. وفيه نظر وسيأتى وجهه.

وقوله : في آخر شهر ربيع الأول : ليس بصحيح فانه صلى اللَّه عليه وسلم مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل : في ثامنه. وقيل : في ثانى عشر. وسيأتى بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود العنسي.

وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر.

وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل ، قال الواقدي : اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره : اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار ، لأنه كان يلقى على وجهه قناعا ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق ، قال الواقدي : وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان. وفيروز ودادويه في آخرين. وكانوا أسلموا. وأرسلوا بإسلامهم فروة بن مسيك المرادي. فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة. وخير طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة. وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلى ، فكرهته المرزبانة وراسلت الأساورة وفيهم فيروز ، وواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة : لفيروز وهو أحدثهم سناً : دونك الرجل. قال فيروز : كنت قد أنسيت سيفي من الدهش. فوقعت على الأسود فخنقته حتى حولت وجهه إلى قفاه. ثم دخل صاحباه فحزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنسي. فذكر تمام القصة ، إنما اختصرناها. وروى النسائي من حديث عبد اللَّه بن فيروز الديلمي عن أبيه قال «أتيت النبي صلى اللَّه عليه وسلم برأس الأسود العنسي» قال عبد الحق لا يصح في هذا الباب شيء. وتعقبه ابن القطان بأن إسناد النسائي صحيح. ولا يعارضه ما جاء إن الخبر بقتله إنما جاء إثر موت النبي صلى اللَّه عليه وسلم لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي صلى اللَّه عليه وسلم. نعم في رواية الطبري زيادة تدل على ذلك. [.....]

قوم مسيلمة «1» تنبأ وكتب إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : من مسيلمة رسول اللَّه إلى محمد رسول اللَّه. أمّا بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام : «من محمد رسول اللَّه إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد ، فإن الأرض للَّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضى اللَّه عنه بجنود المسلمين ، وقتل على يدي وحشى قاتل حمزة. وكان يقول : قتلت خير الناس في الجاهلية ، وشرّ الناس في الإسلام ، أراد في جاهليتى وإسلامى. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خالداً «2» فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبى بكر رضى اللَّه عنه : فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري ، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل ، وبنو يربوع قوم،

(1). قول الزمخشري : وبنو حنيفة باليمامة. ورئيسهم مسيلمة. روى الواقدي من طريق حبيب بن عمير الأنصارى قال «كان مسيلمة بن حبيب قد ادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقومه يا معشر بنى حنيفة ما الذي جعل قريشا أحق بالنبوة منكم وليسوا بأكثر منكم ولا أعد ، والله إن بلادكم لأوسع من بلادهم ، وإن جبريل ينزل على كما ينزل على محمد وشهد له الدجال بن عنعوة أن محمدا أشرك مسيلمة في الأمر ، فسألوه وشهد له. وقرأ عليهم مسيلمة قرآنا يزعمه. سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى. فأخرج منها نسمة تسعى من بين أحشا وسلا فمنهم من يدس في الثرى ومنهم يعيش يحيى. إلى أجل ومنتهى. والله يعلم السر وأخفى. ولا يخفى عليه أمر الآخرة والأولى.

فبايعه أهل اليمامة فلما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح قدم مسيلمة في وفد بنى حنيفة ، فجعل يقول إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يشركه في الأمر ، وأن يجعل له الخلافة بعده فأبى. ثم إن وفد بنى حنيفة أظهروا الإسلام. وأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل جوائز الوفود ورجع مسيلمة معهم مظهرا النبوة. وشهد له الدجال بن عنعوة أن محمدا أشركه في الأمر. وتمادى مسيلمة على ضلاله. إلى خلافة أبى بكر فكثر تابعوه. فجهز إليه أبو بكر في جمع من الصحابة ، فالتقوا باليمامة فاقتتلوا قتالا شديدا من طلوع الشمس إلى العصر : وكثر القتل والجراح في الفريقين ووقعت النوبة في المسلمين.

ثم تراجع المهاجرون والأنصار. فدفعوا بنى حنيفة دفعة عظيمة حتى ألجؤهم إلى حديقة فيها مسيلمة فاعتصموا بها.

وأغلقوا الباب فحاصرهم المسلمون. وقال لهم أبو دجانة ألقونى على المدينة حتى أصعد إلى أعلى الحديقة ففعلوا فهبط عليهم فقتل منهم حين فتح باب الحديقة وقتل هو وولج المسلمون الحديقة. فقتلوهم حين انتهى القتال إلى مسيلمة فطعنه عبد الله بن زيد الأنصارى. وزرقه وحشى بن حرب فاشتركا في قتله.

(2). قوله «خالداً» في أبى السعود «أبا بكر» اه. (ع)

مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوّجت نفسها مسيلمة الكذاب ، وفيها يقول أبو العلاء المعرى في كتاب استغفر واستغفري :

أَمَّتْ سجَاحٌ وَوَالاهَا مُسَيْلِمَةٌ كَذَّابَةٌ فِى بَنِى الدُّنْيَا وَكَذَّابُ «1»

وكندة قوم الأشعث بن قيس ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد ، وكفى الله أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضى الله عنه : غسان قوم جبلة ابن الأيهم نصرته اللطمة «2» وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ قبل لما نزلت أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى موسى الأشعرى فقال : «قوم هذا «3»» وقيل هم ألفان من النخع ، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة ، وثلاثة آلاف من أفناء الناس «4» جاهدوا يوم القادسية. وقيل : هم الأنصار. وقيل : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال : «هذا وذووه» ثم قال : لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس «5» يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه «6» وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ويرضى عنهم :

(1). لأبى العلاء المصري. وأمت - بالتشديد - : صارت إماما في بنى حنيفة وادعت النبوة. ويروى بالمد والتخفيف ، أى صارت أيما غير متزوجة وهي بنت المنذر. ووافاها ، أى وافقها مسيلمة ، فانه تزوجها وكان مدعيا للنبوة أيضاً ، وبعد قتله تابت وحسن إسلامها.

(2). قوله «نصرته اللطمة» لعلها اللطيمة وهي العير التي تحمل الطيب وبز التجار ، فحرر.

(3). أخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والحاكم والطبراني. والطبري من طريق سماك بن حرب. عن عياض الأشعرى. قال : لما نزلت هذه الآية فذكره. ورواه البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن سماك عن عياض عن أبى موسى قال تلوت عند النبي صلى الله عليه وسلم (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ) الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قومك يا أبا موسى. أهل اليمن.

(4). قوله «من أفناء الناس» في الصحاح «فناء الدار» ما امتد من جوانبها. والجمع أفنية. ويقال : هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم ممن هو. (ع)

(5). هكذا رواه. وهو وهم منه فان. هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة من طريق أبى الغيث عن أبى هريرة وهو متفق عليه. وفي آية القتال رواه الترمذي من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه

(6). قال محمود : «محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ويرضى عنهم. وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً ، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين منها صعقة موسى يوم دك الطور ، فتعالى الله عنه علواً كبيراً. ومن كلماتهم كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فان الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات» انتهى كلامه. قال أحمد : لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة بالقواعد لينظر أهى ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ، إذ المحبة لغة : ميل المتصف بها إلى أمر ملذ واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس ، كلذة الذوق في المطعوم ، ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة ، ولذة الشم في الروائح العطرة ، ولذة السمع في النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم وما يجرى مجراها ، فقد ثبت أن في اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها، فليس اللذة برئاسة الإنسان على أهل قرية كلذته بالرئاسة على أقاليم معتبرة.

وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث ، فلذات العلوم أيضا متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله وكماله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن. وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات ، فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الايمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم. وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد للّه بمعناها الحقيقي لغة ، وكانت الطاعات والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها.

ألا ترى إلى الأعرابى الذي سأل عن الساعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام «ما أعددت لها» قال : ما أعددت لها كبير عمل ولكن حب اللّه ورسوله. فقال عليه الصلاة والسلام «أنت مع من أحببت» فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة للّه غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابى نفاها وأثبت الحب وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك ، ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد للّه تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته للّه تعالى وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمي محبته عشقاً إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة. وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاب لأحباء اللّه عز وجل من الزمخشري ، فانه خلط في كلامه الغث بالسمين ، فأطلق القول كما سمعته بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير تحر منه ، ونسب إليهم ما لا يعبأ بمرتكبه ، ولا يعد في البهائم فضلا عن خواص البشر ، ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما ينافي حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) وهذا كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، ثم خلعوا الربقة فجحدوا صفات اللّه تعالى وقضاءه وقدره وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا لأنفسهم شركا في المخلوقات وفعلوا وصنعوا ، فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها ، ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد للّه إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذي يحاز إليه الزمخشري. وقد بينا تصور ذلك وأوضحناه.

والمعترفون بتصور ذلك وثبوته ينسبون المنكرين إلى أنهم جهلوا فأنكروا ، كما أن الصبى ينكر على من يعتقد أن وراء اللعب لذة من جماع أو غيره ، والمنهمك في الشهوات والغرام بالنساء يظن أن ليس وراء ذلك لذة من رياسة أو جاه أو شبه ذلك ، وكل طائفة تسحر بمن فوقها وتعتقد أنهم مشغولون في غير شيء. قال الغزالي : والمحبون للّه يقولون لمن أنكر عليهم ذلك : إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون.

وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً ، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق، والتغني على كراسيهم خربها اللّه ، وفي مراقصهم عطلها اللّه ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين عنها صعقة موسى عند دكّ الطور ، فتعالى اللّه عنه علواً كبيراً ، ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحبهم ، كذلك يحبون ذاته ، فإنّ الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات. ومنها : الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة. فإن قلت : أين الراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط؟ قلت : هو محذوف معناه : فسوف يأتى اللّه بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم ، أو ما أشبه ذلك أَذِلَّةٍ جمع ذليل. وأما ذلول فجمعه ذلل. ومن زعم أنه من الذلّ الذي هو نقيض الصعوبة ، فقد غبي عنه أنّ ذلولا لا يجمع على أذلة. فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يضمن الذلّ معنى الحنوّ والعطف «كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع. والثاني : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم. ونحوه قوله عز وجل : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ) وقرئ : أذلة. وأعزة ، بالنصب على الحال وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ يحتمل أن تكون الواو للحال ، على أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالّين لليهود - لعنت - فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه اللّه لا يخافون لومة لائم قط. وأن تكون للعطف ، على أن من صفتهم المجاهدة في سبيل اللّه ، وأنهم صلاب في دينهم ، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين إنكار منكر أو أمر بمعروف ، مضوا فيه كالمسامير المحماة ، لا يرعبهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم ، يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. واللومة : المرّة من اللوم ، وفيها وفي التنكير مبالغتان كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام. وذلِكَ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة يُؤْتِيهِ يوفق له مَنْ يَشاءُ ممن يعلم أنّ له لطفاً واسِعٌ كثير الفواضل والألطاف عَلِيمٌ بمن هو من أهلها.

[سورة المائدة (5) : آية 55]

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (55)

عقب النهى عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله تعالى إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ومعنى «إنما» وجوب اختصاصهم بالموالاة. فإن قلت : قد ذكرت جماعة ، فهلا قيل إنما أولياؤكم؟ قلت : أصل الكلام : إنما وليكم اللّه ، فجعلت الولاية للّه على طريق الأصالة ، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قيل : إنما أولياؤكم اللّه ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع وفي قراءة عبد اللّه : إنما مولاكم. فإن قلت : الَّذِينَ يُقِيمُونَ ما محله؟ قلت : الرفع على

البدل من الذين آمنوا ، أو على : هم الذين يقيمون. أو النصب على المدح. وفيه تمييز للخلص من الذين آمنوا نفاقا ، أو واطأت قلوبهم ألسنتهم إلا أنهم مفرطون في العمل وَهُمْ راكِعُونَ الواو فيه للحال ، أى يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع للَّه إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل : هو حال من يؤتون الزكاة ، بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة ، وإنها نزلت في علىّ كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه «1» ، كأنه كان مرجا «2» في خنصره ، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته. فإن قلت : كيف صح أن يكون لعلىّ رضى الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت : جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلا واحداً ، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء ، حتى إن لزهم أمر لا يقبل «3» التأخير وهم في الصلاة ، لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

[سورة المائدة (5) : آية 56]

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (56)

فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ من إقامة الظاهر مقام المضمر «4». ومعناه : فإنهم هم الغالبون ، ولكنهم بذلك جعلوا أعلاما لكونهم حزب الله. وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم. ويحتمل أن يريد بحزب الله : الرسول والمؤمنين. ويكون المعنى : ومن يتولهم فقد تولى حزب الله ، واعتضد بمن لا يغالب.

[سورة المائدة (5) : الآيات 57 إلى 58]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58)

---

(1). قلت : في قوله : «كأنه» إلى قوله «بمثله» من كلام صاحب الكشاف. فقد رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق على بخاتمه وهو راكع ، فنزلت (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك. عن ابن عباس قال كان على قائماً يصلى ، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت. وروى الحاكم في علوم الحديث من رواية عيسى بن عبد الله بن عمر بن على. حدثنا أبى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب قال نزلت هذه الآية. إنما وليكم الله ورسوله. الآية فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد والناس يصلون ، بين قائم وراكع وساجد. وإذا سائل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أحد شيئا. قال لا إلا هذا الراكع يعنى عليا. أعطانى خاتمه. رواه الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن على الصائغ وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر قال : وقف بعلى سائل وهو واقف في صلاته. الحديث. وفي إسناده خالد بن يزيد العمرى. وهو متروك. ورواه الثعلبي من حديث أبى ذر مطولا وإسناده ساقط.

(2). قوله «كأنه كان مرجا» أى قلقا غير ثابت. أفاده الصحاح. (ع)

(3). قوله «لا يقبل» لعله «لا يفعل». (ع)

(4). قال محمود : «هذا من إقامة الظاهر مقام المضمر ومعناه ... الخ» قال أحمد : ومقابله قوله تعالى : (إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ) فوضع الظالمين موضع ضمير الأول ليزيدهم سمة الظلم إلى الخسران.

روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما ، فنزلت. يعنى أن اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء ، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة. وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار - وإن كان اهل الكتاب من الكفار - إطلاقا للكفار على المشركين خاصة. والدليل عليه قراءة عبد الله : ومن الذين أشركوا. وقرئ : والكفار بالنصب والجرّ. وتعضد قراءة الجر قراءة أبىّ : ومن الكفار وَاتَّقُوا اللَّهَ في موالاة الكفار وغيرها إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حقاً لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين اتَّخَذُوها الضمير للصلاة أو للمناداة. قيل كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول «أشهد أنّ محمداً رسول الله» قال : حرّق الكاذب ، فدخلت خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت ، واحترق هو «1» وأهله. وقيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده لا يَعْقِلُونَ لأنّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة ، فكأنه لا عقل لهم.

[سورة المائدة (5) : آية 59]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59)

قرأ الحسن. هل تنقمون بفتح القاف. والفصيح كسرها. والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ. فإن قلت : علام عطف قوله وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ؟ قلت : فيه وجوه : منها أن

يعطف على أن آمنا ، بمعنى : وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان ، كأنه قيل : وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف ، أى واعتقاد أنكم فاسقون. ومنها أن يعطف على المجرور ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان باللَّه وبما أنزل وبأنّ أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أنّ أكثركم فاسقون.

(1). أخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدى في قوله ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، قال : كان رجل من النصارى ... فذكره.

ويجوز أن يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف ، كأنه قيل : وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن : بفسقكم نقمتم ذلك علينا.

[سورة المائدة (5) : الآيات 60 إلى 61]

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60) وَإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (61)

وروى أنه أتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟

فقال «أو من باللَّه وما أنزل إلينا إلى قوله : ونحن له مسلمون» فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام : ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شراً من دينكم «1». فنزلت.

وعن نعيم بن ميسرة : وإنّ أكثركم ، بالكسر. ويحتمل أن ينتصب (وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ) بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون ، أى : ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون ، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف ، أى وفسقكم ثابت معلوم عندكم ، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل ، إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لا يدعكم فتنصفوا ذلِكَ إشارة إلى المنقوم ، ولا بدّ من حذف مضاف قبله ، أو قبل «من» تقديره : بشرّ من أهل ذلك ، أو دين من لعنه اللَّه. ومَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ في محل الرفع على قولك : هو من لعنه اللَّه ، كقوله تعالى : (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ) أو في محل الجر على البدل من شرّ. وقرئ : مثوبة. ومثوبة. ومثالهما : مشورة ، ومسورة. فإن قلت : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف جاءت في الإساءة؟ قلت : وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله : تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ «2» ومنه (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ).

(1). أخرجه الواحدي في الأسباب. والوسط عن ابن عباس بهذا وأخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق حدثني محمد بن أبى محمد ، مولى زيد بن ثابت. حدثني سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال أتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نفر من اليهود وفيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع. وعازر وآزار ابني آزار.
وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فذكر نحوه. وفيه فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته. وقالوا لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به. [.....]
(2). مر شرح هذا الشاهد ص 60 من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه.

فإن قلت : المعاقبون من الفريقين هم اليهود ، فلم شورك بينهم «1» في العقوبة؟ قلت : كان اليهود - لعنوا - يزعمون أن المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب ، فقيل لهم : من لعنه اللَّه شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ عطف على صلة «2» «من» كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت. وفي قراءة أبىّ وعبدوا الطاغوت ، على المعنى. وعن ابن مسعود : ومن عبدوا. وقرئ وعابد الطاغوت ، عطفاً على القردة. وعابدى. وعباد. وعبد. وعبد. ومعناه : الغلوّ في العبودية ، كقولهم ، رجل حذر وفطن ، للبليغ في الحذر والفطنة. قال :

أَبَنِى لُبَيْنَى إنَّ أُمَّكُمُ أَمَةٌ وَإِنَّ أَبَاكُمُو عَبُدُ «3»

وعبد ، بوزن حطم. وعبيد. وعبد - بضمتين - جمع عبيد : وعبدة بوزن كفرة. وعبد ، وأصله عبدة ، فحذفت التاء للإضافة. أو هو كخدم في جمع خادم. وعبد «4» وعباد. وأعبد.

وعبد الطاغوت ، على البناء للمفعول ، وحذف الراجع ، بمعنى : وعبد الطاغوت فيهم ، أو بينهم.

وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبوداً من دون اللَّه ، كقولك «أمر» إذا صار أميراً.

---

(1). (قوله فلم شورك بينهم) لعله بينهما ، أو بينهم وبين المسلمين. (ع)
(2). قال محمود : «و عبد الطاغوت عطف عل صلة من ... الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : السؤال يلزم القدرية لأنهم يزعمون أن اللَّه تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن عبادتهم للطاغوت قبيحة واللَّه تعالى لا يريد القبائح بل تقع في الوجود على خلاف مشيئته ، فلذلك يضطر الزمخشري إلى تأويل الجعل بالخذلان أو بالحكم ، وكذلك أول قوله تعالى : (وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) بمعنى حكمنا عليهم بذلك. هذا مقتضى قاعدة القدرية. وأما على عقيدة أهل السنة الموحدين حقا ، فالآية على ظاهرها ، واللَّه تعالى هو الذي أشقاهم وخلق في قلوبهم طاعة الطاغوت وعبادته ، ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن. وإذا روجع القدري في تحقيق الخذلان أو الحكم الذي يستروح إلى التأويل به ، لم يقدر منه على حقيقة ، ولم يفسره بغير الخلق إن اعترف بالحق وترك ارتكاب المراء ، والتذبذب مع الأهواء ، واللَّه ولى التوفيق.
(3) أبنى لبينى لست معترفا ليكون ألأم منكم أحد
أبنى لبينى إن أمكم أمة وإن أباكم عبد
لأوس بن حجر. وقيل لطرفة بن العبد ، والهمزة للنداء ، والعبد كالحذر البليغ في العبودية. ورواه الفراء بالضم ، لكن قال : إن ضم الباء ضرورة. وقال السيوطي : إنه بالضم اسم جمع لعبد بالسكون ، لكن ظاهر البيت يخالفه. يقول : يا بنى لبينى ، لست معترفا لأن يكون أحد أشد لؤما منكم ، فان أبويكم رقيقين. وتخصيص الأمة بالرقيقة والعبد بالرقيق : عرف شائع في اللغة. وأداهم نداء الغريب ، لأنه أغيظ للمواجهة بالذم. وكرر النداء مع هذه الاضافة للاستخفاف بهم.
(4). قوله «و عبد» لعله بفتح العين وضم الباء كندس. أفاده الصحاح. (ع)

وعبد الطاغوت ، بالجر عطفاً على : (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ). فإن قلت : كيف جاز أن يجعل اللَّه منهم عباد الطاغوت؟ «1» قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه خذلهم حتى عبدوه. والثاني : أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به ، كقوله تعالى : (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً) وقيل الطاغوت : العجل لأنه معبود من دون اللَّه ، ولأن عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان ، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه : أطاعوا الكهنة ، وكل من أطاع أحداً في معصية اللَّه فقد عبده. وقرأ الحسن : الطواغيت. وقيل : وجعل منهم القردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى. وقيل : كلا المسخين من أصحاب السبت ، فشبانهم مسخوا قردة ، ومشايخهم مسخوا خنازير. وروى أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون يا إخوة القردة والخنازير فينكسون رءوسهم أُولئِكَ الملعونون الممسوخون شَرٌّ مَكاناً جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله. وفيه مبالغة ليست في قولك : أولئك شر وأضل ، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز.

نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم يظهرون له الإيمان نفاقا ، فأخبره اللَّه تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا ، لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات اللَّه ومواعظك. وقوله : (بِالْكُفْرِ) و(بِهِ) حالان ، أى دخلوا كافرين «2» وخرجوا كافرين. وتقديره : ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله : (وَقَدْ دَخَلُوا) (وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا) ولذلك دخلت (قَدْ) تقريبا للماضي من الحال. ولمعنى آخر : وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم ، وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم متوقعاً لإظهار اللَّه ما كتموه ، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله : (قالُوا آمَنَّا) أى قالوا ذلك وهذه حالهم.

[سورة المائدة (5) : الآيات 62 إلى 63]

وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (63)

الإثم الكذب «3» بدليل قوله تعالى : (عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ). وَالْعُدْوانِ الظلم. وقيل : الإثم كلمة الشرك.

---

(1). قوله «فان قلت كيف جاز أن يجعل ... الخ» السؤال مبنى على أنه لا يجوز عليه تعالى خلق الشر. وهو مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فيجوز كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(2). قال محمود : «المجروران حالان أى دخلوا كافرين ... الخ» قال أحمد : وفي تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد حالهم في الكفر ، أى وقد دخلوا بالكفر وخرجوا وهم أولئك على حالهم في الكفر ، كما تقول :
لقيت زيدا بعد عوده من سفره وهو هو ، أى على حاله. وفي المثل «و عبد الحميد عبد الحميد» أى حالته باقية ، واللَّه أعلم.
(3). قال محمود : «الإثم الكذب ... الخ» قال أحمد : وقوله : (عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) يدل على أن الإثم الأول مقول ، فيحتمل أن يكون المراد الكذب مطلقا. ويحتمل أن يراد كلمة الشرك ، واستدلال الزمخشري على أن المراد الكذب لا يتم ، وإنما يدل على أنه مقول فيحتمل الأمرين ، واللَّه أعلم.

وقولهم عزيز ابن اللَّه. وقيل : الإثم : ما يختص بهم. والعدوان : ما يتعداهم إلى غيرهم.

والمسارعة في الشيء الشروع فيه بسرعة لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير «1» لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرّب وينسب إليه ، وكأن المعنى في ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فإذا فرط في الإنكار كان أشدّ حالا من المواقع. ولعمري إن هذه الآية مما يقذ السامع «2» وينعى على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : هي أشدّ آية في القرآن. وعن الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

[سورة المائدة (5) : آية 64]

وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود «3» ومنه قوله تعالى : (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ) ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة ، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا :

(1). عاد كلامه. قال : «جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لأن كل عامل ... الخ» قال أحمد : يعنى أنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله : (لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) وعبر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة في قوله : (لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ) كان هذا الذم أشد ، لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم. وهذا مراده واللَّه أعلم.

(2). قوله «مما يقذ السامع» يعنى يخففه وينشطه. وهذا إن كان مشدد الذال من القذ. أو يضربه حتى يسترخى ويشرف على الموت. وهذا إن كان مخففا من الوقذ. (ع)

(3). قال محمود : «غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ... الخ» قال أحمد : والنكتة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا ، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن فلما كان الجود وللبخل معنيين لا يدركان بالحس ويلازمهما صورتان تدركان بالحس وهو بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات ، واللَّه أعلم.

ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين «1» للبخل والجود ، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله :

جَادَ الْحِمَى بَسْطُ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلَاعُه وَوِهَادُهُ «2»

ولقد جعل لبيد للشمال يدا في قوله :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا «3»

ويقال بسط اليأس كفيه في صدري ، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان.

ومن لم ينظر في علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به. فإن قلت : قد صح أن قولهم يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عبارة عن البخل «4». فما تصنع بقوله غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟ قلت : يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد ، ومن ثم كانوا أبخل خلق اللَّه وأنكدهم ، ونحوه بيت الأشتر :

(1). قوله «وقعتا متعاقبتين» لعله «معاقبتين». (ع)

(2). جاد الحمى أى أمطر فيه وبسط اليدين فاعل وأصله مصدر أريد به المنبسط ضد المنقبض ويروى سبط بتقديم السين صفة مشبهة كضخم وهو بمعنى المسترسل المنبسط كناية عن الكريم كما أن منقبض اليدين كناية عن البخيل فشبه السحاب بإنسان كريم على سبيل المكنية وإثبات اليدين تخييل. والتلعة : الأرض المرتفعة. والوهدة : الأرض المنخفضة. وشبه أعالى الحمى وأسافله بطلاب الرزق وشكرها تخييل والندى بمعنى العطاء ترشيح للأولى. ويجوز أنه حقيقة لا بمعنى العطاء ويجوز أن الشكر تخييل للأولى أيضا. يقول :

أمطر السحاب أرض الحما بمصر كثير فأنبتت وأزهرت. وهذا معنى شكرها. ويجوز أن التلاع والوهاد مجار عن أهلهما النازلين فيهما.
(3) وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
للبيد ، من المعلقة. يقول : ورب غداة ريح قد كشفتها أى كشفت غمتها عن الناس. ويروى «قد وزعت» أى كففتها ومنعتها. ورب غداة قرة ، بالكسر والضم أى شدة برد كشفت بردها أيضا. والكشف خاص بالمحسوس فاستعير للمعقول من غمة الجوع والبرد على طريق التصريح. ويجوز أن إزالة الريح والبرد عن الناس كناية عن إدخالهم بيته لاكرامهم. وشبه الغداة بمطية لها زمام. أو شبه القرة بذلك. وشبه الشمال - وهي نوع من الريح - بقائد يقود تلك المطية على طريق المكنية ، والزمام تخييل للأولى ، واليد للثانية. وليس بلازم أن يكون للمشبه شيء حقيقي يشبه ما للمشبه به على المختار كاليد والزمام هنا. والمعنى أن الشمال تارة تجعل الغداة مغبرة باردة ، وتارة لا. أو تارة تثير الغبار والبرد في جهة ، وتارة في أخرى. [.....]
(4). عاد كلامه. قال : «فان قلت قد صح أن قولهم يد الله مغلولة عبارة عن البخل ... الخ» قال أحمد : لقد نقص فضيلته التي أوردها في هذا الفصل بما ضمنه هذا السؤال والجواب من القاعدة الفاسدة في أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئا مما نعاه عليهم، وبنى على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل لأنه لم يرده منهم ، ويستحيل أن يريده منهم فوجه هذا النص بالتأويل والتمسك بالأباطيل. والحق أن الله يدعو عليهم بالبخل ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح في قلوبهم والقبض في أيديهم ، فهو الداعي والخالق ، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل ويتقدس عنه (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان ، فانه فيه أفرس الفرسان ، لا يجارى في ميدانه ولا يماري في بيانه.

بَقِيتُ وَفْرِى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَا وَلَقِيتُ أَضْيَافِى بِوَجْهِ عَبُوسِ «1»

ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدى حقيقة ، يغللون في الدنيا أسارى ، وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم : والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز ، كما تقول : سبني سب الله دابره ، أى قطعه لأنّ السب أصله القطع. فإن قلت : كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت : المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم ، فيزيدون بخلا إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم ، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحدوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم. فإن قلت : لم ثنيت اليد في قوله تعالى : (بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ) وهي مفردة في : (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) «2»؟ قلت : ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه. وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبنى المجاز على ذلك. وقرئ (وَلُعِنُوا) بسكون العين. وفي مصحف عبد الله : بل يداه بسطان.

يقال : يده بسط بالمعروف. ونحوه مشية شحح «3» وناقة صرح يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ تأكيد للوصف بالسخاء ،

(1) بقيت وفرى وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
للأشتر النخعي. والبيت الأول في صورة الخبر. والمراد به إنشاء للدعاء على نفسه بالبخل. ويجوز أنه من باب التعليق بالممتنع ، والوفر المال الكثير ويروى بقيت وحدي أى فنيت عشيرتي أو بعدت عنها والانحراف التباعد عن حرف الشيء المحسوس كما أن العلى خاص بالمحسوسات ، فيجوز أنه استعار الانحراف للاعراض والعدول على طريق التصريحية والعلى ترشيح. ويحتمل أنه استعار العلى للمكارم والانحراف ترشيح. وقوله بوجه عبوس : أى رجل عبوس ، ففيه معنى التجريد إن لم أشن بالضم شرط دل ما قبله على جوابه ، أى إن لم أفوق حربا على ابن حرب معاوية بن صخر بن حرب ، بحيث تأتيه من كل فج. ويروى «على ابن هند» ولم تخل صفة غارة ، ونهاب النفوس أخذ الأرواح بالقتل أو أسر الذوات. ويروى «ذهاب نفوس» أى فنائها. وفي الكلام الادماج ، حيث ضمن تهديد معاوية مدح نفسه بالكرم ، حتى أن البخل عنده من أكبر المصائب وأشد العار ، حتى علقه بالممتنع فأفاد امتناعه.
(2). عاد كلامه. قال : فان قلت : لم ثنيت اليد في : (يَداهُ مَبْسُوطَتانِ) وهي مفردة في قولهم (يَدُ اللَّهِ) ... الخ» قال أحمد : ولما كان المعهود في العطاء أن يكون بإحدى اليدين وهي اليمين ، وكان الغالب على اليهود - لعنت - اعتقاد الجسمية ، جاءت عبارتهم عن اليد الواحدة المألوف منها العطاء فبين الله تعالى كذبهم في الأمرين في نسبة البخل وفي إضافته إلى الواحدة ، تنزيلا منهم على اعتقاد الجسمية ، بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط ، وبأن أضافه إلى اليدين جميعاً لأن كلتا يديه يمين ، كما ورد في الحديث تنبيها على نفى الجسمية ، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها لكانت إحدى اليدين يمينا والأخرى شمالا ضرورة. فلما أثبت أن كلتيهما يمين نفى الجسمية وأضاف الكرم إليهما ، لا كما يضاف في الشاهد إلى اليد اليمنى خاصة ، إذ الأخرى شمال وليست محلا للتكريم ، والله أعلم.
(3). قوله «شحح» في الصحاح «الشحشحة» الطيران السريع. و«قطاة شحشح» أى سريعة اه فلعل الشحح مثله وفيه أيضا «الصرح» بالتحريك : الخالص من كل شيء. (ع)

ودلالة على أنه لا يتفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روى أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس ما لا ، فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة ، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء : يد الله مغلولة ، ورضى بقوله الآخرون فأشركوا فيه وَلَيَزِيدَنَّ أى يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفراً بآيات الله وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ فكلمهم أبداً مختلف ، وقلوبهم شتى ، لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط ، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل : خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بخت نصر ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومىّ ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل : كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم.

وعن قتادة رضى الله عنه لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس وَيَسْعَوْنَ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم.

[سورة المائدة (5) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ مع ما عددنا من سيئاتهم آمَنُوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريطة في الفوز بالإيمان لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها وَلَأَدْخَلْناهُمْ مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى ، وأن الإيمان لا ينجى«1»

(1). قال محمود : «فيه دليل على أن الايمان لا ينجى ... الخ» قال أحمد : وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلا على قاعدته في أن مجرد الايمان لا ينجى من الخلود في النار حتى ينضاف إليه التقوى ، لأن الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطا للتفكير ولادخال الجنة. وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير ولا دخول الجنة ، وأنى له ذلك والإجماع والاتفاق من الفريقين أهل السنة والمعتزلة على أن مجرد الايمان يجب ما قبله ويمحوه ، كما ورد النص فلو فرضنا موت الداخل في الايمان عقيب دخوله فيه ، لكان كيوم ولدته أمه باتفاق مكفر الخطايا محكوما له بالجنة ، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط. هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال.
وإن كانت التقوى على أصل موضعها الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر.
وحينئذ لا يتم للزمخشري منه غرض. وما هذا إلا إلحاح ولجاج في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى أو سرق» كررها النبي صلى الله عليه وسلم مرارا ، ثم قال : وإن رغم أنف أبى ذر ، لما راجعه رضى الله عنه في ذلك. ونحن نقول. وإن رغم أنف القدرية.

ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى ، كما قال الحسن : هذا العمود فأين الأطناب وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ من سائر كتب الله، لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها ، فكأنها أنزلت إليهم وقيل : هو القرآن. لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا. وقوله لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ عبارة عن التوسعة. وفيه ثلاث أوجه : أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل «1» منها من رؤس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ طائفة حالها أمم «2» في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى ، وساءَ ما يَعْمَلُونَ فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : وكثير منهم ما أسوأ عملهم ، وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

[سورة المائدة (5) : آية 67]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (67)

(1). قوله «ما تهدل» أى استرخى وتدلى. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «أمم» أى يسير. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : «معناه بلغ غير مراقب في التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه. (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) معناه :
وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك فما بلغت رسالته ، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالة ولم تؤد منها شيئاً قط. وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من البعض ، فكأنك أغفلت أداءها جميعها ، كما أن من يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لادلاء كل منها بما يدليه غيرها. وكونها كذلك في حكم الشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ ، مؤمنا به غير مؤمن ، إلى أن قال : «فان قلت وقوع قوله : (فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إذا لم تمثل ... الخ» قال أحمد : وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر لأن حاصله إن لم تبلغ الرسالة لم تبلغ الرسالة ، باتحاد المبتدأ والخبر ، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئا في الظاهر كقوله :
أنا أبو النجم وشعري شعري
فجعل الخبر عن المبتدإ بلا مزيد في اللفظ ، وأراد : وشعري شعري المشهور بلاغته والمستفيض فصاحته ، ولكنه أفهم بالسكوت عن هذه الصفات التي بها تحصل الفائدة أنها من لوازم شعره في أفهام الناس السامعين ، لاشتهاره بها ، وأنه غنى عن ذكرها لشهرتها وذياعها ، وكذلك أريد في الآية لأن عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس مستقر في الأفهام أنه عظيم شنيع ينقم على مرتكبه ، بل

عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول ، فاستغنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء للصوقها بالجزاء في الأفهام وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد. وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز بذكر الشرط عاما بقوله (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) ولم يقل وإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ، حتى يكون اللفظ متغايراً ، وهذه المغايرة اللفظية وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء ، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدإ بلفظ الخبر ، وحق له أن تتضاءل فصاحته عند فصاحته المعجز فلا يعاب عليه في ذلك ، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان ، واللَّه الموفق.

بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ جميع ما أنزل إليك وأى شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً «3» ، ولا خائف أن ينالك مكروه وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وقرئ : رسالاته ، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات ، ولم تؤدّ منها شيئاً قط ، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض ، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا ، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لإدلاء كل منها بما يدليه «1» غيرها. وكونها كذلك «2» في حكم شيء واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ ، مؤمنا به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : إن كتمت آية لم تبلغ رسالاتي.

وروى عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «بعثني اللَّه برسالاته فضقت بها ذرعا ، فأوحى اللَّه إلىّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. وضمن لي العصمة فقويت «3». فإن قلت : وقوع قوله فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إذا لم يمتثل أمر اللَّه في تبليغ الرسالات وكتمها كلها كأنه لم يبعث رسولا كان أمراً شنيعاً لا خفاء بشناعته ، فقيل : إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كان كلمة واحدة ، فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها ، كما عظم قتل النفس بقوله : (فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً) والثاني : أن يراد : فإن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحى كله من العقاب فوضع السبب موضع المسبب ، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام «فأوحى اللَّه إلىّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك» وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ عدة من اللَّه بالحفظ والكلاءة والمعنى : واللَّه يضمن لك العصمة من أعدائك ، فما عذرك في مراقبتهم؟ فإن قلت : أين ضمان العصمة وقد شجّ في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته «4» صلوات اللَّه عليه؟ قلت : المراد أنه يعصمه من القتل. وفيه : أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات اللَّه ، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

(1). قوله «بما يدليه» لعله : يدلى به. (ع)
(2). قوله «و كونها كذلك» لعله «لذلك». (ع)
(3). أخرجه إسحاق في مسنده. أخبرنا كلثوم بن محمد بن أبى سدرة ، حدثنا عطاء الخراساني عن أبى هريرة ولم يذكر وضمن لي العصمة فقويت وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب عن الحسن بغير سند.
(4). متفق عليه من حديث سهل. وقد تقدم في تفسير آل عمران ،

وقيل : نزلت بعد يوم أحد ، والناس الكفار بدليل قوله إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ومعناه أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن أنس : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يحرس حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال : انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى اللَّه من الناس «1».

[سورة المائدة (5) : آية 68]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (68)

لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ أى على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً لفساده وبطلانه ، كما تقول : هذا ليس بشيء تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم : أقل من لا شيء فَلا تَأْسَ فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفي المؤمنين غنى عنهم.

[سورة المائدة (5) : آية 69]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (69)

وَالصَّابِئُونَ رفع على الابتداء وخبره «2» محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابئون كذلك ، وأنشد سيبويه شاهداً له :

(1). لم أجده من حديث أنس ، وقد أخرجه الترمذي من رواية أبى قدامة الحارث بن عبيد عن سعيد الحريري عن عبد الله بن شقيق عن عائشة. وقال غريب. ورواه بعضهم عن الحريري مرسلا ليس فيه عائشة. ورواه موصولا الطبري من رواية ابن علية عن الحريري ولكنه رواه من رواية وهب عن الحريري.

(2). قال محمود : «فيه الصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف ... الخ» قال أحمد : صدق ، لا ورود للسؤال بهذا التوجيه ، ولكن ثم سؤال متوجه ، وهو أن يقال : لو عطف الصابئين ونصبه كما قرأ ابن كثير لأفاد أيضا دخولهم في جملة المتوب عليهم ، ولفهم من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع من أن هؤلاء الصابئين وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم ، فما الظن بالنصارى ، ولكان الكلام جملة واحدة بليغا مختصرا والعطف إفرادى ، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الافرادى؟ ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه عطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف ، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات. وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد. وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الافرادى وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به. ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل تقديره مثلا ، والصابئون كذلك فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة فكانوا أحقاء بجعلهم تبعا وفرعا ، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر. وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدإ المحذوف الخبر بين الجزئين ، أدل على الخبر المحذوف من ذكره بعد تقضى الكلام وتمامه ، والله أعلم. [.....]

وَإِلّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِى شِقَاقِ «1»

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك ، فإن قلت : هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيدا وعمرو منطلقان. فان قلت لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إنّ زيدا منطلق وعمرو؟ قلت : لأنى إذا رفعته رفعته عطفا على محل إن واسمها ، والعامل في محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمله كما تنتظمها «إن» في عملها ، فلو رفعت الصابئون المنوىّ به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأنّ ، لأعملت فيهما رافعين مختلفين. فان قلت : فقوله والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) الخ ... ولا محل لها ، كما لا محل للتي عطفت عليها ، فان قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم. وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدّهم غيا ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبؤا عن الأديان كلها ، أى خرجوا ، كما أن الشاعر قدم قوله «و أنتم» تنبيها على أن المخاطبين أو غل في الوصف بالبغاة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو «بغاة» لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم ، مع كونهم أو غل فيه منهم وأثبت قدما فان قلت : فلو قيل والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلا. قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال مقدّم ومؤخر للمزال لا للقارّ في مكانه.

ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض في الكلام. فان قلت : كيف قال : (الَّذِينَ آمَنُوا) ثم قال : (مَنْ آمَنَ)؟ قلت: فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالذين آمنوا : الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون وأن يراد بمن آمن. من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه. فان قلت : ما محل من آمن،

(1) إذا جزت نواصي آل بدر فأدوها وأسرى في الوثاق
وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

لبشر بن أبى خازم الأسدى ، يخاطب بنى طيئ ويتوعدهم بما صنعوا بآل بدر حلفاء بنى أسد. والباصية : مقدم شعر الرأس : وجز النواصي حقيقة ، على عادتهم من جز ناصية الأسير إذا أرادوا إطلاقه ، فطالبهم بمقتضاها وقال :

فأدوها ، أى الأسرى التي جزت نواصيها. أو أدوا النواصي نفسها. ويجوز أنه مجاز عن قتل كبرائهم. وقوله «فأدوها» أى دماء القتلى وأسرى عطف على الضمير المفعول. وإلا ، أى وإن لا تفعلوا فاعلموا أنا وأنتم بغاة.

وبغاة : خبر إنا. وخبر أنتم محذوف ، أى بغاة أيضا. ولم يجعل المذكور خبراً عنه أيضا ، لأنه ليس عطفا على اسم إن ، وإلا لقال : إنا وإياكم ، بل هو من عطف الجمل. ولا يقال فيه العطف على الجملة قبل تمامها ، لا نقول :

سمع العطف قبل المعطوف عليه بالكلية في قوله : عليك ورحمة الله السلام. و«في شقاق» خبر ثان ، أى في خلاف ما بقينا ، أى مدة بقائنا ، يعنى وأنتم تعلمون بأسنا في الحرب.

قلت : إما الرفع على الابتداء وخبره فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن ، وإما النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه ، أو من المعطوف عليه. فان قلت : فأين الراجع إلى اسم إن؟ قلت : هو محذوف تقديره من آمن منهم ، كما جاء في موضع آخر. وقرئ : والصابيون ، بياء صريحة، وهو من تخفيف الهمزة ، كقراءة من قرأ : يستهزيون. والصابون. وهو من صبوت ، لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أدلة العقل والسمع. وفي قراءة أبىّ رضى الله عنه : والصابئين ، بالنصب. وبها قرأ ابن كثير. وقرأ عبد الله : يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

[سورة المائدة (5) : آية 70]

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (70)

لَقَدْ أَخَذْنا ميثاقهم بالتوحيد وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ جملة شرطية وقعت صفة لرسلا ، والراجع محذوف أى رسول منهم بما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ بما يخالف هواهم ويضادّ شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع. فإن قلت : أين جواب الشرط «1» فإن قوله : (فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ) ناب عن الجواب ، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه لا يحسن أن تقول إن أكرمت أخى أخاك أكرمت؟ قلت : هو محذوف يدل عليه قوله : (فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ) كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه ، وقوله : (فَرِيقاً كَذَّبُوا) جواب مستأنف لقائل يقول : كيف فعلوا برسلهم؟ فإن قلت : لم جيء بأحد الفعلين ماضيا «2» وبالآخر مضارعا؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها.

(1). قال محمود : «إن قلت أين جواب الشرط ... الخ» قال أحمد : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى ، وهي توأمة هذه قوله تعالى : (أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) فأوقع قوله : (اسْتَكْبَرْتُمْ) جوابا ، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض. ولو قدر الزمخشري هاهنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى لدلالة مثله عليه.
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت لم جيء بأحد الفعلين ماضيا ... الخ» قال أحمد : أو يكون حالا على حقيقته لأنهم داروا حول قتل محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في البقرة.
وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضي وتمثيله بقوله تعالى : (أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فعدل عن فأصبحت إلى فتصبح ، تصويراً للحال واستحضاراً لها في ذهن السامع. ومنه :
بأنى قد لقيت الغول يسعى بسبب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربها فخرت صريعاً لليدين وللجران
وأمثاله كثيرة والله أعلم.

قرئ : أن لا يكون ، بالنصب على الظاهر. وبالرفع على «أن» هي المخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يكون فتنة فخففت «أن» وحذف ضمير الشأن.

[سورة المائدة (5) : آية 71]

وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (71)
فإن قلت : كيف دخل فعل الحسبان على «أن» التي للتحقيق؟ قلت : نزل حسبانهم لقوّته في صدورهم منزلة العلم : فإن قلت : فأين مفعولا حسب؟ قلت : سدّ ما يشتمل عليه صلة أن وأنّ من المسند والمسند إليه مسدّ المفعولين ، والمعنى : وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة ، أى بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة فَعَمُوا عن الدين وَصَمُّوا حين عبدوا العجل ، ثم تابوا عن عبادة العجل ف تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كرة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو «1» الرؤية. وقرئ : عموا وصموا ، بالضم على تقدير عماهم الله وصممهم ، أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم ، كما يقال : تركته إذا ضربته بالنيزك «2» وركبته إذا ضربته بركبتك كَثِيرٌ مِنْهُمْ بدل من الضمير : أو على قولهم : أكلونى البراغيث ، أو هو خبر مبتدإ محذوف أى أولئك كثير منهم.

[سورة المائدة (5) : آية 72]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (72)

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مربوب كمثلهم ، وهو احتجاج على النصارى إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ في عبادته ، أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ التي هي دار الموحدين أى حرّمه دخولها ومنعه منه ، كما يمنع المحرّم من المحرّم عليه وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ من كلام الله على أنهم ظلموا «3» وعدلوا عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام ، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ردّه وأنكره ، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره. أو من قول عيسى عليه السلام ،

على معنى : ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول. أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

(1). قوله «و هو الرؤية» أحالها مذهب المعتزلة ، وأجازها أهل السنة كما حقق في محله. (ع)
(2). قوله «إذا ضربته بالنيزك» هو الرمح القصير ، وهو فارسى معرب ، أصله نيزه ، فأبدلت الهاء كافا. كذا بهامش ، وأصله في الصحاح. (ع)
(3). قوله «على أنهم ظلموا» لعله على معنى أنهم. (ع)

[سورة المائدة (5) : الآيات 73 إلى 75]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75)

من في قوله وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ للاستغراق وهي القدرة مع «لا» التي لنفى الجنس في قولك (لا إله إلا الله) والمعنى : وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثانى له ، وهو الله وحده لا شريك له : و«من» في قوله لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ للبيان كالتي في قوله تعالى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ) فإن قلت : فهلا قيل (لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ). قلت في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا) وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير والذين كفروا منهم أنهم بمكان من الكفر.

والمعنى : ليمسنّ الذين كفروا من النصارى خاصة عَذابٌ أَلِيمٌ أى نوع شديد الألم من العذاب كما تقول : أعطنى عشرين من الثياب ، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون. ويجوز أن تكون للتبعيض ، على معنى : ليمسنّ الذين بقوا على الكفر منهم ، لأنّ كثيراً منهم تابوا من النصرانية أَفَلا يَتُوبُونَ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكرّرة عليهم بالكفر. وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه. وفيه تعجب من إصرارهم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ صفة لرسول ، أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها ، أن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى ، وفلق بها البحر ، وطمس على يد موسى «1». وإن خلقه من غير ذكر ، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى،

(1). قوله «و طمس على يد موسى» لعله وطمس على أموال فرعون وقومه على يد ... الخ. (ع)

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ أى وما أمه أيضاً إلا كصديقة كبعض النساء المصدّقات للأنبياء المؤمنات بهم ، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين : أحدهما نبى ، والآخر صحابى. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم؟ مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه. ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما في قوله كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ لأنّ من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم «1» وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله. فإن قلت : ما معنى التراخي في قوله ثم انظر؟ «2» قلت : معناه ما بين العجبين ، يعنى أنه بين لهم الآيات بياناً عجيباً ، وأنّ إعراضهم عنها أعجب منه.

[سورة المائدة (5) : آية 76]

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)

ما لا يَمْلِكُ هو عيسى ، أى شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب ، ولأنّ كل ما يستطيعه البشر من المضارّ والمنافع فبإقدار الله وتمكينه ، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً.

وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور على قدرته وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ متعلق بـ أتعبدون، أى أتشركون بالله ولا تخشونه ، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، ولن يكون كذلك إلا وهو حى قادر.

[سورة المائدة (5) : آية 77]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77)

(1). قوله «و قرم» في الصحاح «القرم» بالتحريك : شدة شهوة اللحم. (ع)
(2). قال محمود : «فان قلت ما معنى التراخي في قوله ثم انظر ... الخ» قال أحمد : ومنه (ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) وقوله : (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) وهي في سائر هذه المواضع منقولة من التراخي الزمانى إلى التراخي المعنوي في المراتب.

غَيْرَ الْحَقِّ صفة للمصدر أى لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق «1» أى غلواً باطلا لأنّ الغلو في الدين غلوّ ان غلوّ حق ، وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم. وغلوّ باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه ، كما يفعل أهل الأهواء والبدع قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ هم أئمتهم في النصرانية ، كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وَأَضَلُّوا كَثِيراً ممن شايعهم على التثليث وَضَلُّوا لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

[سورة المائدة (5) : الآيات 78 إلى 81]

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (78) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (80) وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81)

نزّل الله لعنهم في الزبور عَلى لِسانِ داوُدَ وفي الإنجيل على لسان عيسى. وقيل إن أهل أيلة ، لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام : اللهم العنهم واجعلهم آية ، فمسخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت ،

(1). قال محمود : «معناه لا تغلوا في دينكم غلواً باطلا ... الخ» قال أحمد : يعنى بأهل العدل والتوحيد المعتزلة ، ويعنى بغلوهم الذي هو حق عنده أنهم غلوا في التوحيد فجحدوا الصفات الالهية ، وغلوا في التعديل فنفوا أكثر الأفعال بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى لانطوائها في مفاسد ولأن الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها ، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه فهذا غلوهم في التعديل ، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً ، فالنصارى غلوا فأشركوا ثلاثة ، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير الآدميين في الخلق الذي هو خاص بالرب. ويعنى الزمخشري بأهل البدع والأهواء من عدا الطائفة المذكورة ، ويعنى بغلوهم الباطل إثبات الصفات لله تعالى وتوحيده على الحق ، حتى لا خالق سواه ولا مخلوق إلا بقدرته، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه وسكت عن ذكر من عداهم ، ونحن نقول : اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برضاك ، وهذه دعوة أيضا بلا خلاف ، والله الموفق.

فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ، ما فيهم امرأة ولا صبىّ ذلِكَ بِما عَصَوْا أى لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ ، إلا لأجل المعصية والاعتداء ، لا لشيء آخر ، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله كانُوا لا يَتَناهَوْنَ لا ينهى بعضهم بعضاً عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ثم قال لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ للتعجيب من سوء فعلهم ، مؤكداً لذلك بالقسم ، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير ، وقلة عبثهم به ، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب. فان قلت : كيف وقع ترك التناهى عن المنكر «1» تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت : من قبل أنّ الله تعالى أمر بالتناهى ، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء ، لأنّ في التناهى حسبما للفساد فكان تركه على عكسه. فإن قلت : ما معنى وصف المنكر بفعلوه ، ولا يكون النهى بعد الفعل؟

قلت : معناه لا يتناهون عن منكر فعلوه ، أو عن مثل منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوّى وتهيأ فتتكر. ويجوز أن يراد : لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه ، بل

يصبرون عليه ويداومون على فعله. يقال : تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ هم منافقو أهل الكتاب ، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هو المخصوص بالذمّ ، ومحله الرفع ، كأنه قيل : لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى : موجب سخط الله. وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين أَوْلِياءَ يعنى أنّ موالاة المشركين كفى بها دليلا على نفاقهم ، وأنّ إيمانهم ليس بإيمان وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ متمرّدون في كفرهم ونفاقهم. وقيل معناه : ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدّعون ، ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

(1). قال محمود : «إن قلت كيف وقع ترك التناهي ... الخ»؟ قال أحمد : وفي هذا التوبيخ الاخبار بأمرين قبيحين ، أحدهما : بأنهم كانوا يفعلون المناكر ، والآخر : أنهم كانوا تاركين للنهى عنها ، أى عن أمثالها في المستقبل ولولا زيادة (فَعَلُوهُ) لما صرح بوقوعها منهم ، ولكان المصرح به ترك النهى عن المنكر عند استحقاق النهى ، وذلك حين الاشراف على تعاطيه وظهور الأمارات الدالة عليه ، فانتظم ثبوت الأمرين جميعاً على أخصر وجه وأبلغه وقد دلت هذه الآية على المذهب الصحيح الأشعرى ، من أن متعلق النهي فعل وهو الترك ، خلافا لأبى هاشم المعتزلي في قوله «إن متعلقه نفى محض وعدم صرف ، ووجه دلالة الآية على أن متعلقه فعل أنه عبر عن ترك التناهى الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل ، حيث قال : (لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ) أى لبئس الترك للتناهي فعلا ، كما تقول : زيد بئس الرجل ، فتجعل الرجل واقعا على زيد. وقد سمى تركهم للنهى عن المنكر في الآية السالفة قبل هذه صنعا ، فقال : (لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ) إلى قوله : (لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ) وذلك أبلغ في الدلالة على أن متعلق النهى أمر ثابت ، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات ، وقد مر هذا التقرير ، والله الموفق.

[سورة المائدة (5) : الآيات 82 إلى 86]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86)

وصف الله شدّة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق «1» ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدّة العداوة للمؤمنين ، بل نبه على تقدّم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، وكذلك فعل في قوله (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) ولعمري إنهم لكذلك وأشدّ. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله» «2» وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً أى علماء وعباداً وَأَنَّهُمْ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم ، واليهود على خلاف ذلك.

(1). قال محمود : «وصف الله تعالى شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم ... الخ» قال أحمد : وإنما قال (الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى) ولم يقل : النصارى ، تعريضا بصلابة اليهود في الكفر والامتناع من الامتثال للأمر ، لأن اليهود قيل لهم (ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ). فقابلوا ذلك بأن قالوا (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ) والنصارى قالوا (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) ومن ثم سموا نصارى ، وكذلك أيضا ورد أول هذه السورة (وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) فأسند ذلك إلى قولهم ، والاشارة به إلى قولهم (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) لكنه هاهنا ذكر تنبيها على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله ، وفي الآية الثانية ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود ، لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود ، بل قالوا (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) واليهود قالت (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ) فهذا سره والله أعلم.
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه وابن حبان في الضعفاء من رواية يحيى بن عبيد الله عن أبيه. عن أبى هريرة وفي رواية ابن حبان «يهودى» على الافراد.

وفيه دليل بين على أنّ التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين ، وكذلك غم الآخرة والتحدّث بالعاقبة وإن كان في راهب ، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني. ووصفهم الله برقة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن ، وذلك نحو ما يحكى عن النجاشىّ رضى الله عنه أنه قال لجعفر بن أبى طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده - : هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر : فيه سورة تنسب إليها ، فقرأها إلى قوله : (ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) وقرأ سورة طه إلى قوله : (وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) فبكى النجاشي «1» وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس ، فبكوا. فإن قلت : بم تعلقت اللام في قوله لِلَّذِينَ آمَنُوا؟ قلت : بعداوة ومودّة ، على أنّ عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها ، وأن مودّة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودّات ، وأدناها وجوداً ، وأسهلها حصولا. ووصف اليهود بالعداوة والنصارى بالمودّة مما يؤذن بالتفاوت ، ثم وصف العداوة والمودّة بالأشدّ والأقرب. فإن قلت : ما معنى قوله : (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) «2» قلت : معناه تمتلئ من

الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء ،

---

(1). لم أجده قلت أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبى طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفراً ورفقاءه فان معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة طه. أخرجه ابن إسحاق في المغازي. من طريق ابن حبان من حديث أم سلمة. وقوله : وكذلك فعل قومه أى النجاشي الذين وفدوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وهم سبعون رجلا حين قرأ النبي صلى اللَّه عليه وسلم سورة يس : الطبري من رواية قيس بن الربيع. عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير في قوله ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا. قال نعم رسل النجاشي الذين أرسلت وإسلام قومهم وكانوا سبعين رجلا فدخلوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقرأ عليهم يس. فبكوا وعرفوا الحق. فنزلت ونزل فيهم أيضا (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن قيس. [.....]

(2). عاد كلامه. قال : «إن قلت ما معنى قوله : (تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ...) الخ» قال أحمد : وهذه العبارة من أبلغ العبارات ، وأنهاها وهي ثلاث مراتب ، فالأولى : فاض دمع عينه ، وهذا هو الأصل. والثانية :
محولة من هذه. وهي قول القائل : فاضت عينه دمعا حولت الفعل إلى العين مجازا ومبالغة ، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلا على التمييز. والثالثة : فيها هذا التحويل المذكور ، وهي الواردة في الآية ، إلا أنها أبلغ من الثانية باطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز ، وإبرازه في صورة التعليل واللَّه أعلم. وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز لأن التمييز في مثله قد استقر كونه فاعلا في الأصل في مثل :
تصبب زيد عرقا ، وتفقأ عمرو شحما ، واشتعل الرأس شيبا ، وتفجرت الأرض عيونا. فإذا قلت : فاضت عينه دمعا ، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله. وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك. ألا تراك تقول : فاضت عينه من ذكر اللَّه كما تقول فاضت عينه من الدمع ، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز واللَّه الموفق.

وهو من إقامة المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعاً فإن قلت : أى فرق بين من ومن في قوله مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ؟ قلت الأولى لابتداء الغاية ، على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله وبسببه. والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا. وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟ وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمفعول رَبَّنا آمَنَّا المراد به إنشاء الإيمان ، والدخول فيه فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ مع أمّة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة (لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ) وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع في إنعام اللَّه عليهم بصحبة الصالحين : وقيل : لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك. أو أرادوا : وما لنا لا نؤمن باللَّه وحده لأنهم كانوا مثلثين ، وذلك ليس بإيمان باللَّه : ومحل (لا نُؤْمِنُ) النصب على الحال ، بمعنى : غير مؤمنين ، كقولك مالك قائما. والواو في وَنَطْمَعُ واو الحال. فإن قلت : ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ قلت : العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل ، كأنه قيل : أى شيء حصل لنا غير مؤمنين : وفي الثانية معنى هذا الفعل ، ولكن مقيداً بالحال الأولى لأنك لو أزلتها وقلت : وما لنا ونطمع ، لم يكن كلاما.

ويجوز أن يكون (وَنَطْمَعُ) حالا من لا نؤمن ، على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحدون اللَّه ، ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين ، وأن يكون معطوفا على لا نؤمن على معنى : وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين ، أو على معنى : وما لنا لا نجمع بينهما بالدخول في الإسلام ، لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين. قرأ الحسن : فآتاهم اللَّه بِما قالُوا بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص ، من قولك : هذا قول فلان ، أى اعتقاده وما يذهب إليه.

[سورة المائدة (5) : الآيات 87 إلى 88]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ما طاب ولذ من الحلال. ومعنى لا تُحَرِّمُوا لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو لا تقولوا حرّمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً «1» وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وصف القيامة يوماً لأصحابه ، فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار ، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين ، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح «2» ويسيحوا في الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال لهم : إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتي

فليس منى «3» ونزلت. وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ ، وكان يعجبه الحلواء والعسل. وقال : «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة «4»»

(1). قوله «تقشفا» وفي الصحاح «قشف» بالكسر : قشفا ، إذا لوحته الشمس أو الفقر فتغير. والمتقشف : الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع. (ع)

(2). قوله «و يلبسوا المسوح» المسوح : أكسية غلاظ تعمل منها الغرائر للتبن. أفاده الصحاح في مادة لبس

(3). ذكره الواحدي هكذا في أسبابه بغير إسناد. لكن قال المفسرون - فذكره سواه ، وقد أورده الطبري من طريق السدى في هذه الآية قال «و ذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جلس يوما. فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف فقام ناس من أصحابه فذكره بمعنى ما تقدم» وهو منتزع من أحاديث ، وأصله في الصحيحين عن عائشة» أن ناسا من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم : لا آكل اللحم. وقال بعضهم : لا أتزوج النساء. وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكنى أصوم وأفطر. وأنام وأقوم. وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس منى» وفي الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص قال «رد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل. ولو أذن له لاختصينا» وفي الصحيحين عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي صلى اللَّه عليه وسلم في الصوم والصلاة فقال صلى اللَّه عليه وسلم «صم وأفطر ، وقم ونم. فان لنفسك عليك حقا - الحديث» وروى الطبري من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبد اللَّه ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح» ومن طريق ابن جريج عن عكرمة «أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة ، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس. وهموا بالاختصاء. واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) - الآية قال : فبعث اليهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سنتنا»

(4). هذا منتزع من أحاديث. أما أكل الدجاج فمتفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى في قصة له. وأما أكله الفالوذ فرواه الحاكم من حديث عبد اللَّه بن سلام قال «كنت مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم في أناس من أصحابه إذ أقبل عثمان بن مظعون ومعه راحلة عليها غرارتان فذكر الحديث - وفيه فطبخ الدقيق والسمن والعسل حتى نفح ثم أكل» وهو من رواية الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة مضعفا وأعله ابن الجوزي بضعف الوليد. وأما «كان يعجبه الحلوى والعسل» فمتفق عليه من حديث همام عن أبيه عن عائشة رضى اللَّه عنها. وأما الأخير فذكره الديلمي في الفردوس عن على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه.

وعن ابن مسعود أن رجلا قال له : إنى حرمت الفراش فتلا هذه الآية وقال : ثم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن أنه دعى إلى طعام ومعه فرقد السنجىّ وأصحابه ، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك ، فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن : أهو صائم؟ قالوا : لا ، ولكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه وقال : يا فرقد ، ترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم. وعنه أنه قيل له. فلان لا يأكل الفالوذ ويقول : لا أؤدّى شكره. قال : أفيشرب الماء البارد؟ قالوا : نعم. قال : إنه جاهل ، إن نعمة اللَّه عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه أن اللَّه تعالى أدّب عباده فأحسن أدبهم. قال اللَّه تعالى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ) ما عاب اللَّه قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه (وَلا تَعْتَدُوا) ولا تتعدوا حدود ما أحل اللَّه لكم إلى ما حرّم عليكم. أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات. أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً ، فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده على عقبه أو أراد ولا تعتدوا بذلك وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أى من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقا حَلالًا حال مما رزقكم اللَّه وَاتَّقُوا اللَّهَ تأكيد للتوصية بما أمر به. وزاده تأكيداً بقوله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ لأنّ الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر وعما نهى عنه.

[سورة المائدة (5) : آية 89]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

اللغو في اليمين : الساقط الذي لا يتعلق به حكم : واختلف فيه ، فعن عائشة رضى اللَّه عنها أنها سئلت عنه فقالت : هو قول الرجل «لا واللَّه ، بلى واللَّه» «1» وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد : هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبى حنيفة رحمه اللَّه بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية. وروى أن الحسن رضى اللَّه عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال : يا أبا سعيد ، دعني أجب عنك فقال :

(1). أخرجه البخاري ومالك من حديثها دون قوله «سئلت» ورواه أبو داود من طريق عطاء عنها مرفوعا وموقوفا. وصحح الدارقطني الموقوف

وَلَسْتُ بِمَأْخُوذٍ بِلَغوٍ تَقُولُهُ إذَا لَمْ تَعَمَّدْ عَاقِدَاتِ الْعَزَائِمِ «1»

وقرئ : عقدتم ، بالتخفيف. وعاقدتم. والمعنى : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم ، فحذف وقت المؤاخذة. لأنه كان معلوما عندهم ، أو بنكث ما عقدتم ، فحذف المضاف فَكَفَّارَتُهُ فكفارة نكثه. والكفارة : الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أى تسترها مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ من أقصده ، لأنّ منهم من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتر ، وهو عند أبى حنيفة رحمه اللَّه نصف صاع من برّ أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغديهم ويعشيهم. وعند الشافعي رحمه اللَّه : مدّ لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد : أهاليكم ، بسكون الياء ، والأهالى : اسم جمع لأهل : كالليالي في جمع ليلة ، والأراضى في جمع أرض. وقولهم «أهلون» كقولهم «أرضون» بسكون الراء. وأما تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف ، كما قالوا : رأيت معديكرب ، تشبيها للياء بالألف أَوْ كِسْوَتُهُمْ عطف على محل (مِنْ أَوْسَطِ) «2» وقرئ بضم الكاف ، ونحوه :

قدوة في قدوة ، وأسوة في إسوة ، والكسوة ثوب يغطى العورة ، وعن ابن عباس رضى اللَّه عنه كانت العباءة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر : إزار أو قميص أو رداء أو كساء. وعن مجاهد : ثوب جامع. وعن الحسن : ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني : أو كأسوتهم ، بمعنى : أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافا كان أو تقتيرا. لا تنقصونهم عن مقدار نفقتهم ، ولكن تواسون بينهم وبينهم. فإن قلت : ما محل الكاف؟ قلت : الرفع ، تقديره : أو طعامهم كأسوتهم ، بمعنى : كمثل طعامهم إن لم يطعموهم الأوسط أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ شرط الشافعي رحمه اللَّه الإيمان قياسا على كفارة القتل. وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد جوّزوا تحرير الرقبة الكفارة في كل كفارة سوى كفارة القتل. فإن قلت : ما معنى أو؟ قلت : التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق ، بأيتها أخذ المكفر فقد أصاب فَمَنْ لَمْ يَجِدْ إحداها فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ متتابعات عند أبى حنيفة رحمه اللَّه ، تمسكا بقراءة أبىّ وابن مسعود رضى اللَّه عنهما : فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وعن مجاهد : كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان. ويخير في كفارة اليمين ذلِكَ المذكور «3» كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ ولو قيل : تلك كفارة أيمانكم ، لكان صحيحا بمعنى تلك الأشياء أو لتأنيث الكفارة.

(1). للفرزدق روى أن الحسن رضى اللَّه عنه سئل عن لغو اليمين ، فقال الفرزدق : دعني أجب عنك يا أبا سعيد ، وقال البيت ، أى لست مؤاخذا باللغو أى الساقط من الكلام. وتعمد : أصله تتعمد ، حذف منه إحدى التاءين.
وهذا في معنى الاستثناء المنقطع. وعاقدات العزائم : الجازمات. ونسبة الجزم إليها مجاز عقلى.
(2). قوله «على محل من أوسط» قد يقال هذا إنما يناسب القراءة الآتية أو كأسوتهم ولكن عبارة النسفي عطف على إطعام أو على محل من أوسط. ووجهه أن (مِنْ أَوْسَطِ) بدل من (إِطْعامُ) والبدل هو المقصود في الكلام اه (ع)
(3). قال محمود : «المشار إليه هو المذكور فيما تقدم ولو قيل ... الخ» قال أحمد : بل في هذه الآية وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث وهو المشهور من مذهب مالك ، وبيان الاستدلال بها أنه جعل ما بعد الحلف ظرفا لوقوع الكفارة المعتبرة شرعا ، حيث أضاف «إذا» إلى مجرد الحلف.
وليس في الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث ، فتعين تقديره مضافا إلى الحلف ، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار ، إذ لا يعطي قوله : (ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ) إيجابا ، إنما يعطى صحة واعتبارا ، واللَّه أعلم.
وهذا انتصار على من منع التكفير قبل الحنث مطلقا ، وإن كانت اليمين على بر والأقوال الثلاثة في مذهب مالك ، إلا أن القول المنصور هو المشهور.

والمعنى إِذا حَلَفْتُمْ وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأنّ الكفارة إنما تجب بالحنث في الحلف ، لا بنفس الحلف ، والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ فبروا فيها ولا تحنثوا «1» أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية ، لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله. وقيل : احفظوها بأن تكفروها. وقيل : احفظوها كيف حلفتم بها ، ولا تنسوها تهاونا بها كَذلِكَ مثل ذلك البيان يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أعلام شريعته وأحكامه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه.

[سورة المائدة (5) : الآيات 90 إلى 91]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد «2» منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن» «3» ومنها أنه جعلهما رجسا ،

(1). عاد كلامه. قال : «و احفظوا أيمانكم ، أى فبروا فيها ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التأويل إشعار بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها يشدد عليه ويؤاخذ بالأحوط ، فأرشده الله إلى حفظ اليمين لئلا يفضى أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر على وجه الاحتياط ما لم يصدر منه في علم الله تعالى ، كالذي يحلف بالطلاق وينسى هل قيده بالثلاث مثلا أو أطلقه ، فيلزمه الثلاث على المذهب المشهور. ويحتمل أن يكون في علم الله تعالى أنه إنما حلف بالطلاق مطلقا ، فأرشد إلى الحفظ لئلا يجره النسيان إلى هذا التشديد. والمراد بالأيمان كل ما ينطلق عليه يمين ، سواء كان حلفا بالله أو بغيره مما يلزم في الشرع حكما والله أعلم.

(2). قال محمود : «أكد الله تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها ... الخ» قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الرجس الذي انطوى على سائر ما ذكر والله أعلم.

(3). أخرجه البزار من حديث مجاهد عن عبد الله بن عمرو بهذا. رواه الحرث بن أسامة وأبو نعيم في الحلية من رواية الحسن عن عبد الله بن عمرو به. وفيه الخليل بن زكريا وفي الذي قبله ثابت بن محمد وهو أصلح حالا من الخليل. ولابن ماجة من حديث أبى هريرة ، بلفظ «مدمن خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن سليمان الأصبهانى عن سهيل عن أبيه عنه به. ورواه ابن حبان من حديث ابن عباس بهذا اللفظ. وقال الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبد العزيز عن بعض أصحابه ، بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس بلفظ «المقيم على الخمر كعابد وثن» وإسناده ضعيف

كما قال تعالى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ) ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحا ، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب «1» الخمر والقمر ، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر الله ، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه ، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : (فَاجْتَنِبُوهُ)؟ قلت : إلى المضاف المحذوف ، كأنه قيل : إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال : (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ) فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخراً «2»؟ قلت : لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر ، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، فوجب اجتنابه بأسره ، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين من شرب خمراً أو قامر ، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله وَعَنِ الصَّلاةِ اختصاص للصلاة من بين الذكر كأنه قيل : وعن الصلاة خصوصاً.

[سورة المائدة (5) : آية 92]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92)

(1). قوله «من أصحاب» لعله بين أصحاب. (ع)

(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب ... الخ» قال أحمد : ويرشد إلى أن المقصود الخمر والميسر خاصة ، لأنهم إنما كانوا يتعاطونهما خاصة الآية الأخرى وهي قوله : (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما) فخصهما بالذكر ولم يثبت النهى عنهما ، فلذلك ورد أن قوما تركوها لما فيها من الإثم ، وقوما بقوا على تعاطيها لما فيها من المنافع ، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهى ، والله أعلم. [.....]

وَاحْذَرُوا وكونوا حذرين خاشين ، لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة. ويجوز أن يراد : واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر ، أو في ترك طاعة الله والرسول فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول ، لأنّ الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم.

[سورة المائدة (5) : آية 93]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

رفع الجناح عن المؤمنين في أى شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها إِذا مَا اتَّقَوْا ما حرم عليهم منها وَآمَنُوا وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثم ثبتوا على التقوى والإيمان ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم ، أو أحسنوا إلى الناس : واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات. وقيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول الله ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون

الخمر ويأكلون مال الميسر «1» فنزلت. يعنى أن المؤمنين لا جناح عليهم في أى شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، على معنى : أنّ أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداًلأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان. ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح؟

(1). أخرجه أحمد من رواية ابن وهب مولى أبى هريرة قال «حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فسألوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك. فأنزل اللَّه تعالى : (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) الآية فقال الناس : لم تحرم علينا ، إنما قال : فيها إثم كبير فكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين المغرب ، فخلط في قراءته. فأنزل اللَّه تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى) فكانوا يشربونها حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، فنزلت (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) - الآية فقالوا : انتهينا يا رب. وقال الناس : يا رسول اللَّه ، ناس قتلوا في سبيل اللَّه أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله اللَّه رجسا من عمل الشيطان. فأنزل اللَّه (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ) - الآية فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم ، إسناده ضعيف ، فانه من رواية أبى معشر عن أبى وهب. وأبو معشر ضعيف. وروى الطبري من حديث على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال في قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) الآية قالوا : يا رسول اللَّه : ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر. فأنزل اللَّه الآية وفي المتفق عليه عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال «كنت ساقى القوم في منزل أبى طلحة - وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر مناديا فنادى : ألا إن الخمر قد حرمت - الحديث» قال بعض القوم : قد قتل فلان وفلان وفلان وهي في بطونهم فأنزل اللَّه (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا ...) الآية.

فتقول - وقد علمت أن ذلك أمر مباح - : ليس على أحد جناح في المباح ، إذا اتقى المحارم ، وكان مؤمناً محسناً، تريد : أن زيداً تقىّ مؤمن محسن وأنه غير مؤاخذ بما فعل.

[سورة المائدة (5) : آية 94]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94)

نزلت عام الحديبية ابتلاهم اللَّه بالصيد وهم محرمون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده ، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ ليتميز من يخاف عقاب اللَّه وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقى الصيد ، ممن لا يخافه فيقدم عليه فَمَنِ اعْتَدى فصاد بَعْدَ ذلِكَ الابتلاء فالوعيد لاحق به ، فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير «1» في قوله : (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ)؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين ، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ، وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشدّ منه. وقرأ إبراهيم : يناله ، بالياء.

[سورة المائدة (5) : آية 95]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95)

(1). قال محمود : «إن قلت ما معنى التقليل والتصغير ... الخ» قال أحمد : وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة في قوله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) فلا خفاء في عظم هذه البلايا والمحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر على عظيم. فقول الزمخشري إذاً «إنه قلل وصغر تنبيها على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام» مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها.

والظاهر - واللَّه أعلم - أن المراد بما يشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور اللَّه تعالى ، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول ، وأنه مهما اندفع عنهم مما هو أعظم في المقدور ، فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل ، لطفا بهم ورحمة : ليكون هذا التنبيه باعثا لهم على الصبر وحاملا على الاحتمال ، والذي يرشد إلى أن هذا مراد أن سبق التوعد بذلك لم يكن إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه ، فيكون أيضا باعثا على تحمله ، لأن مفاجاة المكروه بغتة أصعب ، والانذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه ، وحاصل ذلك لطف في القضاء ، فسبحان اللطيف بعباده. وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر إلى ما لا يقف عند غاية، فنسأل اللَّه العفو والعافية واللطف في المقدور.

حُرُمٌ محرمون ، جمع حرام ، كردح في جمع رداح. والتعمد : أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه ، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله ، فإن قتله وهو ناس لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد ، أو قصد برميه غير صيد فعدل السهم عن رميته فأصاب صيدا فهو مخطئ. فإن قلت : فمحظورات الإحرام يستوي

فيها العمد والخطأ ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلت : لأن مورد الآية فيمن تعمد فقد روى أنه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش ، فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله ، فقيل له : إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت ولأن الأصل فعل التعمد ، والخطأ لاحق به للتغليظ. ويدل عليه قوله تعالى : (لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ) (وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) وعن الزهري : نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطإ وعن سعيد بن جبير : لا أرى في الخطإ شيأ أخذا باشتراط العمد في الآية. وعن الحسن روايتان فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ برفع جزاء ومثل جميعاً ، بمعنى : فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد ، وهو عند أبى حنيفة قيمة المصيد يقوّم حيث صيد ، فإن بلغت قيمته ثمن هدى ، تخير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشترى بقيمته طعاماً ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من برّ أو صاع من غيره ، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً ، فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدّق به. وعند محمد والشافعي رحمهما اللَّه مثله نظيره من النعم ، فإن لم يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبى حنيفة رحمه اللَّه.

فإن قلت : فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله مِنَ النَّعَمِ وهو تفسير للمثل ، وبقوله : هدياً بالغ الكعبة؟ قلت : قد خير من أوجب القيمة بين أن يشترى بها هدياً أو طعاماً أو يصوم ، كما خير اللَّه تعالى في الآية ، فكان قوله : (مِنَ النَّعَمِ) بياناً للهدى المشترى بالقيمة في أحد وجوه التخيير لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه ، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم ، إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوّم ونظر بعد التقويم أىّ الثلاثة يختار ، فأما إذا عمد إلى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير - فإذا كان شيئاً لا نظير له قوّم حينئذ ، ثم يخير بين الإطعام والصوم - ففيه نبوّ عما في الآية. ألا ترى إلى قوله تعالى : (أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً) كيف خير بين الأشياء الثلاثة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد اللَّه : فجزاؤه مثل ما قتل ، وقرئ. فجزاء مثل ما قتل ، على الإضافة ، وأصله. فجزاء مثل ما قتل ، بنصب مثل بمعنى : فعليه أن يجزى مثل ما قتل ، ثم أضيف كما تقول : عجبت من ضرب زيد ، وقرأ السلمىّ على الأصل وقرأ محمد بن مقاتل ، فجزاء مثل ما قتل، بنصبهما ، بمعنى : فليجز جزاء مثل ما قتل. وقرأ الحسن : من النعم ، بسكون العين ، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه يَحْكُمُ بِهِ بمثل ما قتل ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ حكمان عادلان من المسلمين. قالوا : وفيه دليل على أن المثل القيمة ، لأنّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة. وعن قبيصة أنه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر ، فشاور عبد الرحمن بن عوف ، ثم أمره بذبح شاة ، فقال قبيصة لصاحبه : واللَّه ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره ، فأقبل عليه ضرباً بالدرّة وقال : أتغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم. قال اللَّه تعالى : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فأنا عمر ، وهذا عبد الرحمن «1». وقرأ محمد بن جعفر ذو عدل منكم ، أراد يحكم به من يعدل منكم ولم يرد الوحدة.

وقيل أراد الإمام هَدْياً حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل ، لأنّ الصفة خصصته فقرّبته من المعرفة ، أو بدل عن مثل فيمن نصبه ، أو عن محله فيمن جرّه. ويجوز أن ينتصب حالا عن الضمير في به. ووصف هدياً ب بالِغَ الْكَعْبَةِ لأن إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم ، فأما التصدّق به فحيث شئت عند أبى حنيفة ، وعند الشافعي في الحرم. فإن قلت : بم يرفع (كَفَّارَةٌ) من ينصب جزاء؟ قلت : يجعلها خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قيل : أو الواجب عليه كفارة.

أو يقدر : فعليه أن يجزى جزاء أو كفارة. فيعطفها على أن يجزى. وقرئ : أو كفارة طعام مساكين على الإضافة. وهذه الإضافة مبينة ، كأنه قيل : أو كفارة من طعام مسكين ، كقولك : خاتم فضة ، بمعنى خاتم من فضة. وقرأ الأعرج : أو كفارة طعام مساكين. وإنما وحد ، لأنه واقع موقع التبيين ، فاكتفى بالواحد الدال على الجنس. وقرئ : أو عدل ذلك ، بكسر العين. والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، كالصوم والإطعام. وعدله ما عدل به في المقدار ، ومنه عدلا الحمل ، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا ، كأن المفتوح تسمية بالمصدر ، والمكسور بمعنى المفعول به ، كالذبح ونحوه ، ونحوهما الحمل والحمل. وذلِكَ إشارة إلى الطعام صِياماً تمييز للعدل كقولك : لي مثله رجلا. والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبى حنيفة وأبى يوسف. وعند محمد إلى الحكمين لِيَذُوقَ متعلق بقوله : (فَجَزاءٌ) أى فعليه أن يجازى أو يكفر ، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال : المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه ، كقوله تعالى : (فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا) ثقيلا. والطعام الوبيل : الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتسألوه عن جوازه. وقيل : عما سلف لكم في الجاهلية منه ، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً وَمَنْ عادَ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد نزول النهى فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ينتقم :

(1). رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير فذكره. وفيه الزيادة التي في آخره.

خبر مبتدإ محذوف تقديره فهو ينتقم اللَّه منه ، ولذلك دخلت الفاء. ونحوه (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ) يعنى ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد ، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن : وجوبها ، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح : أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر ، وأنه لم يذكر الكفارة

[سورة المائدة (5) : آية 96]

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

صَيْدُ الْبَحْرِ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل وَطَعامُهُ وما يطعم من صيده والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر «1» ، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبى حنيفة. وعند ابن أبى ليلى جميع ما يصاد منه ، على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه مَتاعاً لَكُمْ مفعول له ، أى أحل لكم تمتيعاً لكم وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى : (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً) في باب الحال ، لأن قوله (مَتاعاً لَكُمْ) مفعول له مختص بالطعام ، كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب ، يعنى أحل لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم «2» يأكلونه طريا ، ولسيارتكم يتزوّدونه قديداً ، كما تزوّد موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام. وقرئ : وطعمه. وصيد البر : ما صيد فيه ، وهو ما يفرّخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات ، كطير الماء عند أبى حنيفة. واختلف فيه «3» فمنهم من حرّم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد ، وهو قول عمرو ابن عباس ، وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير : أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال ، وإن صاده لأجله ، إذا لم يدل ولم يشر ، وكذلك ما ذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه رحمه اللَّه ، وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم اللَّه : لا يباح له ما صيد لأجله. فإن قلت : ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله : صيد البر؟

(1). قوله «بجميع ما يصاد في البحر» لعله من. (ع)
(2). قوله «تمتيعا لتنائكم يأكلونه» أى للمتوطنين منكم. يقال : تنأ بالبلد توطنه ، فهو تانئ ، وهم تناه. أفاده الصحاح ، وسيأتى للمفسر في قوله تعالى : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ) أن الأناس اسم جمع غير تكسير ، نحو رحال وتناء وتوام. ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة. (ع)
(3). قال محمود «اختلف في المراد بالتحريم ... الخ» قال أحمد : وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين لأن مالكا رضى اللَّه عنه يجيز أكل المحرم لصيد البر ، إذا صاده حلال لنفسه ، أو لحلال ، فلا بد إذا على مذهبه من تخصيص العموم المخصوص ، غاية ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبى حنيفة ، تكون أكثر منها على مذهب مالك ، لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم كما نقل عنه ، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة ، واللَّه أعلم.

قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه اللَّه بالمفهوم من قوله : (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً) لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم ، لأنهم هم المخاطبون فكأنه قيل : وحرم عليكم ما صدتم في البر ، فيخرج منه مصيد غيرهم ، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين. ويدل عليه قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) وقرأ ابن عباس رضى اللَّه عنه : وحرّم عليكم صيد البرّ ، أى اللَّه عزّ وجلّ. وقرئ (ما دُمْتُمْ) بكسر الدال ، فيمن يقول دام يدام.

[سورة المائدة (5) : الآيات 97 إلى 98]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98)

الْبَيْتَ الْحَرامَ عطف بيان على جهة المدح ، لا على جهة التوضيح ، كما تجيء الصفة كذلك قِياماً لِلنَّاسِ انتعاشاً لهم «1» في أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم ، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم ، وأنواع منافعهم. وعن عطاء ابن أبى رباح : لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا وَالشَّهْرَ الْحَرامَ الشهر الذي يؤدى فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، لأنّ لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عرّفه اللَّه تعالى. وقيل عنى به جنس الأشهر الحرم وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ والمقلد منه خصوصاً وهو البدن ،

(1). قال محمود : «معنى قياما للناس : انتعاشا لهم في أمر دينهم ودنياهم ... الخ» قال أحمد : وفي هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة في قوله أول هذه السورة (لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلائِدَ) فان حمل القلائد ثم على ظاهرها ، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد - كقوله : (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها) يريد مواقع الزينة ، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه ، كأنه قال : لا تحلوا قلائدها فضلا عنها - متعذر في هذه الآية ، لأنها وردت في سياق الامتنان بما

جعله الله قياما للناس من هذه الأمور المعدودة ، وقد خص المنة بالبدن في قوله : (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ ...) الآية ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى ، حتى يقع الامتنان بالمقلد ثم بالقلائد ، بل ذلك لائق في سياق النهى أن يخرج من النهى عن الأعلى إلى التشديد بالنهى عن الأدنى. وأما التأويل الآخر - وهو بقاء القلائد على حقيقتها وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة ، أى لا تتعرضوا للقلائد ولا تنتفعوا بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام «ألق قلائدها في دمها وخل بين الناس وبينها» - فمتعذر أيضا بما بعد به الذي قبله. وأما التأويل الثالث - وهو حملها على ذوات القلائد - فلائق بالاثنين فيتعين المصير إليه. ومن ثم لم يذكر الزمخشري في هذه الآية سواء. ووجه صلاحيته وظهوره فيهما : أن الغرض في سياق النهى إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهى ، بعد أن اندرج مع غيره في النهى ، فكأنه نهى عنه لخصوصيته مرتين. والغرض في سياق الامتنان أيضا ذلك ، وهو تكرير المنة به مندرجا في العموم ومخصوصا بالذكر. وأيضا فيليق في الامتنان الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، بخلاف النهى. والله أعلم.

لأن الثواب فيه أكثر ، وبهاء الحج معه أظهر ذلِكَ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس ، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم شَدِيدُ الْعِقابِ لمن انتهك محارمه غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن حافظ عليها.

[سورة المائدة (5) : آية 99]

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (99)

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به ، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم في التفريط.

[سورة المائدة (5) : آية 100]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)
البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى «1» وإن كان قريبا عندكم ، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثروه لكثرته على القليل الطيب ، فإنّ ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل ، لا يوازى النقصان في الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام في حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وجيد الناس ورديهم فَاتَّقُوا اللَّهَ وآثروا الطيب ، وإن قل ، على الخبيث وإن كثر. ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة «2» إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

(1). قال محمود : «البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقد ثبت شرعا أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة. وقد اعترف للقدرية أنهم قليل فيها ، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف والأمر بهذه المثابة ، وهم أيضا يعتقدون أنهم الفرقة الناجية الموعودون بالجنة لا غيرهم ، إذ كل من عداهم - على طمعهم الفاسد - مخلد في النار مع الكفار ، فعلى هذا تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة أكثر أهل الجنة ، وحاشا لله أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل ، مطلع على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب.
ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحد؟ وهذا الاستنباط الذي استنبطه الزمخشري من أن المراد بالطيب هذا النفر المعتزلي. من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ) أهل الحديث وأصحاب الرأى، يعنى الحقيقة. وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع ، وما هو قد ابتدع قريبا منه في حمله الطيب في هذه الآية على الفريق المعتزلي ، بل والله شراً من تلك المقالة ، لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية ، نعوذ بالله من ذلك، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف.
(2). قوله «أن تكفح بها وجوه المجبرة» يعنى أهل السنة. وهذا غلو من العلامة في التعصب للمعتزلة ، وما كان ينبغي أن يكون منه، لعدم الداعي إليه هنا. (ع)

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ و ، لَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاء وَلَا نَصْرَا «1»

وكما قيل :

لَا يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دَهْمَائِهِمْ عَدَدٌ فَإنَّ جُلَّهُمُ بَلْ كُلَّهُمْ بَقَرُ «2»

وقيل : نزلت في حجاج اليمامة ، حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم ، فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين.

[سورة المائدة (5) : الآيات 101 إلى 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102)

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعنى قوله إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ صفة للأشياء. والمعنى : لا تكثروا مسألة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم ، إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها. وذلك نحو ما روى أن سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال : يا رسول اللَّه ، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى أعاد مسألته ثلاث مرّات ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم : «ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم؟ واللَّه لو قلت: نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» «3» (وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ) وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحى وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه ، تبد لكم.

---

(1). «سعد» اسم قبيلة. والمعنى : أنه لا نفع فيهم إلا تكثير سواد الجيش ، فلا يفون بما وعدوا من النصر ، ولا ينصرون بلا وعد. ويمكن أن المراد الوفاء بحق الشجاعة. فالنصر تفسير. وفي تكرير الاسم. نوع تهكم.

(2) لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور
لا يدهمنك من دهمائهم عدد فان جلهم بل كلهم بقر

لأبى تمام. يقال : دهمه الأمر ، إذا غشيه فحيره وسد عليه باب الرأى. والدهماء : الجماعة الكثيرة المتكاثفة ، وأصله من الدهمة وهي الظلمة والسواد. يقول : لم يبق من معظم هذا الجمع من الناس بقية يدركها الوهم بعد التأمل ، إلا هذه الصور والأجسام المشاهدة ، مجردة على العقول ، فلا تفزع من كثرة عدد جماعتهم ، فان معظمهم كالبقر ، بل جميعهم كذلك ، فلا تدبير عندهم لأمر الحرب.

(3). هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة. فأما سراقة فروى مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج «فقال سراقة بن مالك : بن جعشم يا رسول اللَّه ، لعامنا هذا. أم للأبد؟ قلت : وهو عند البخاري ايضا من وجه آخر عن جابر ، وللنسائى وابن ماجة من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبي صلى اللَّه عليه وسلم «يا رسول اللَّه ، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال : لا ، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» وأما عكاشة بن محصن فرواه الطبري وابن مردويه من طريق محمد بن زياد : سمعت أبا هريرة رضى اللَّه عنه يقول «خطبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فقال عكاشة بن محصن الأسدى : أفي كل عام يا رسول اللَّه؟ فقال : أما أنا لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت ثم تركتم لضللتم. اسكتوا عنى ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل اللَّه (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) الآية وهو أقرب إلى سياق المصنف ، دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي. وأخرج الطبري من طريق أبى إسحاق الهجري عن ابن عباس عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «إن اللَّه كتب عليكم الحج فقال رجل : كل عام يا رسول اللَّه؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثا. فقال : من السائل؟
فقيل فلان. فقال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموه. ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) وأخرج أيضا من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبى أمامة أنه سمعه يقول «قام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في الناس وقال : كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب - فذكر الحديث ، وفيه فقال: ويحك ما ذا يؤمنك أن أقول نعم ، واللَّه لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم. وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبى هريرة «خطبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال : أيها الناس فرض اللَّه عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أفي كل عام يا رسول اللَّه؟ فسكت حتى قالها ثالثا. فقال لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم. ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض السنن من حديث ابن عباس «أن الأقرع بن حابس سأل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال : مرة واحدة. فما زاد فهو تطوع» وأخرجه الطبري من هذا الوجه. فسمى الرجل محصنا الأسدى ، وعند غيره عكاشة بن محصن.

تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم ، وتؤمروا بتحملها ، فتعرّضون أنفسكم لغضب اللَّه بالتفريط فيها عَفَا اللَّهُ عَنْها. عفا اللَّه عما سلف. من مسألتكم ، فلا تعودوا إلى مثلها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته. فإن قلت : كيف قال : (لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) ثم قال : قَدْ سَأَلَها ولم يقل. قد سأل عنها؟ قلت : الضمير في : (سَأَلَها) ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بعن ، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها (لا تَسْئَلُوا) يعنى قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ثُمَّ أَصْبَحُوا بها أى بمرجوعها أو بسببها كافِرِينَ وذلك أنّ بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

[سورة المائدة (5) : آية 103]

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103)

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، بحروا أذنها ، أى شقوها وحرّموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعيى لم يركبها ، واسمها البحيرة.

وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث. وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم. وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى ما جَعَلَ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك ، ولكنهم بتحريمهم ما حرّموا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ، ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم.

[سورة المائدة (5) : آية 104]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (104)

الواو في قوله أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره : أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ والمعنى أنّ الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى ، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

[سورة المائدة (5) : آية 105]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(105)

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتوّ والعناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم في الإسلام ، فقيل لهم عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يَضُرُّكُمْ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ) وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ، ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم. فهو مخاطب به ، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد ، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه ، وعن ابن مسعود : أنها قرئت عنده فقال : إن هذا ليس بزمانها «1» إنها اليوم مقبولة. ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم ،

(1). قوله «ليس بزمانها إنها» لعل هذا الضمير للنصيحة المفهومة من السياق. (ع)

فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه ، وبسط لعذره. وعنه : ليس هذا زمان تأويلها. قيل : فمتى؟ قال : إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن. وعن أبى ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيرا. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا ما رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام. وإنّ من ورائكم أياما الصبر فيهنّ كقبض على الجمر ، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله «1». وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت آباءك ، ولاموه ، فنزلت (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) عليكم : من أسماء الفعل ، بمعنى : الزموا إصلاح أنفسكم ، ولذلك جزم جوابه. وعن نافع : عليكم أنفسكم ، بالرفع. وقرئ (لا يَضُرُّكُمْ) وفيه وجهان «2» أن يكون خبراً مرفوعا وتنصره قراءة أبى حيوة ، لا يضيركم. وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً. وإنما ضمت الراء اتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل : لا يضرركم. ويجوز أن يكون نهيا ، ولا يضركم ، بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره.

[سورة المائدة (5) : الآيات 106 إلى 108]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً

فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

(1). أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية عبد الله بن المبارك عن عتبة بن أبى حكيم عن عمرو بن حارثة اللخمي عن أبى أمية الصنعاني قال «أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع في هذه الآية؟ قال : أية آية؟ قلت :
قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر - وذكره ; وقال فيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام - وقال في آخره : مثل عملكم» قال ابن المبارك : وزادني غير عتبة : قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال : لا ، بل منكم» وأخرجه ابن حبان والحاكم وإسحاق وأبو يعلى والطبراني. [.....]
(2). قوله «لا يضركم ، وفيه وجهان» يعنى بالرفع ، وهو يفيد أن القراءة الأصلية بالنصب. (ع)

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدإ الذي هو شَهادَةُ بَيْنِكُمْ على تقدير : شهادة بينكم شهادة اثنين. أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى : فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان : وقرأ الشعبي.

شهادة بينكم بالتنوين. وقرأ الحسن : شهادة ، بالنصب والتنوين على : ليقم شهادة اثنان. وإذا حَضَرَ ظرف للشهادة. وحِينَ الْوَصِيَّةِ بدل منه ، إبداله منه دليل على وجوب الوصية ، وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها. وحضور الموت : مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل مِنْكُمْ من أقاربكم. ومِنْ غَيْرِكُمْ من الأجانب إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ يعنى إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم ، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية ، جعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح «1» وهم له أنصح. وقيل مِنْكُمْ من المسلمين ، ومِنْ غَيْرِكُمْ من أهل الذمة. وقيل : هو منسوخ لا تجوز شهادة الذمي على المسلم ، وإنما جازت في أوّل الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول : نسخها قوله تعالى وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وروى أنه خرج بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين ، مع عدى بن زيد وتميم بن أوس - وكانا نصرانيين - تجاراً إلى الشام ، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه ، وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه ، وأمرهما أن يدفعاً متاعه إلى أهله ، ومات ففتشا متاعه ، فأخذا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ، فغيباه ، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء ، فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم «2» ، فنزلت تَحْبِسُونَهُما تقفونهما وتصبرونهما للحلف «3» مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ من بعد صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن : بعد صلاة العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل : أنها لما نزلت صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا بعدىّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر ، فحلفا ، ثم وجد الإناء بمكة ، فقالوا : إنا اشتريناه من تميم وعدى.

(1). قوله «و بما هو أصلح» لعله «و بما هو له أصلح». (ع)
(2). أخرجه الترمذي من رواية ابن إسحاق عن أبى النضر وهو محمد بن السائب الكلبي عن بادار ، يعنى أبا صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري رضى الله عنهم. فذكره وقال : ليس إسناده بصحيح وأخرجه البخاري وأبو داود مختصراً
(3). قوله «و تصبرونهما للحلف» أى تحبسونهما. أفاده الصحاح. (ع)

وقيل : هي صلاة أهل الذمّة ، وهم يعظمون صلاة العصر إِنِ ارْتَبْتُمْ اعتراض بين القسم والمقسم عليه. والمعنى: إن ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما. وقيل : إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن علىّ رضى الله عنه : أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما «1» والضمير في مُصِيبَةُ للقسم. وفي كانَ للمقسم له يعنى : لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا ، أى لا نحلف كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له قريباً منا ، على معنى : أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى : (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ). شَهادَةَ اللَّهِ أى الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنه وقف على شهادة ، ثم ابتدأ الله بالمدّ ، على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروى عنه بغير مدّ على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام ، فيقول : الله لقد كان كذا.

وقرئ : لملاثمين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها ، كقوله : عاد لولى : فإن قلت : ما موقع تحبسونهما؟ قلت : هو استئناف كلام ، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما ، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما ، فقيل : تحبسونهما فإن قلت : كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلت : لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، أغنى ذلك عن التقييد ، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه : إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر. ويجوز أن تكون اللام للجنس ، وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في

النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ). فَإِنْ عُثِرَ فإن اطلع عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً أى فعلا مّا أوجب إثما ، واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين فَآخَرانِ فشاهدان آخران يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ أى من الذين استحق عليهم الإثم. معناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل : أنه لما ظهرت خيانة الرجلين ، حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما ، وأنّ شهادتهما أحق من شهادتهما. والْأَوْلَيانِ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما. وارتفاعهما على : هما الأوليان كأنه قيل ومن هما؟ فقيل : الأوليان. وقيل : هما بدل من الضمير في يقومان ، أو من آخران.

(1). فأما تحليف الشاهد. فلم أره. وأما تحليف الراوي فرواه أصحاب السنن الثلاثة : البزار وابن حبان من رواية اسماء بن الحكم الفزاري عن على رضى الله عنه قال «إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته قال : وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - الحديث» قال الترمذي : حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وروى بعضهم هذا الحديث موقوفا» أى المتن دون القصة. وقال البزار : أسماء هذا مجهول.

ويجوز أن يرتفعا باستحق ، أى من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ الأوّلين على أنه وصف للذين استحق عليهم ، مجرور ، أو منصوب على المدح. ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ : الأولين ، «1» على التثنية ، وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن : الأولان ، ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعى. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك ، فوجهه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا ، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما ، فأنكر الورثة فكانت اليمين على الورثة ، لإنكارهم الشراء. فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ استحق عليهم الأوليان على البناء للفاعل ، وهم علي وأبيّ وابن عباس؟ قلت : معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة ، أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة ، ويظهروا بهما كذب الكاذبين ذلِكَ الذي تقدم من بيان الحكم أَدْنى أن يأتى الشهداء على نحو تلك الحادثة بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ أن تكرّ «2» أيمان شهود آخرين بعد إيمانهم «فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل وَاسْمَعُوا سمع إجابة وقبول.

[سورة المائدة (5) : الآيات 109 إلى 110]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (110)

يَوْمَ يَجْمَعُ بدل من المنصوب «3» في قوله : (وَاتَّقُوا اللَّهَ) وهو من بدل الاشتمال ، كأنه

(1). قوله «و قرئ الأوليين» لعله «الأولين» فليحرر. (ع)
(2). قوله «أن تكر أيمان شهود» في الصحاح «الكر» الرجوع. يقال : كره ، وكر بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع)
(3). قال محمود : «يوم يجمع بدل من المنصوب ... الخ» قال أحمد : ويكون انتصابه إذاً انتصاب المفعول به لا الظرف على حكم المبدل منه.

قيل : واتقوا الله يوم جمعه. أو ظرف لقوله : (لا يَهْدِي) «1» أى لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم. أو ينصب على إضمار اذكر. أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت.

وما ذا منتصب بأجبتم «2» انتصاب مصدره ، على معنى : أى إجابة أجبتم. ولو أريد الجواب لقيل : بماذا أجبتم. فإن قلت : ما معنى سؤالهم؟ قلت : توبيخ قومهم ، كما كان سؤال الموؤدة توبيخاً للوائد. فإن قلت : كيف يقولون لا عِلْمَ لَنا وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم «3» وكابدوا من سوء إجابتهم ، إظهاراً للتشكى واللجإ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم ، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم. ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به ، يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بى تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالا عليه ، واظهاراً للشكاية ، وتعظيما لما حل به منه. وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون «4» عن الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم. وقيل : معناه علمنا ساقط مع علمك

ومغمور به ، لأنك علام الغيوب. ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم ، فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة. وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين. وقرئ (علام الغيوب) بالنصب «5» على أنّ الكلام قد تم بقوله إِنَّكَ أَنْتَ أى إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص، أو على النداء ، أو هو صفة لاسم أنّ إِذْ قالَ اللَّهُ بدل من (يَوْمَ يَجْمَعُ) والمعنى : أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم ، وبتعديد ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام ،

(1). عاد كلامه. قال : «أو ظرف لقوله لا يهدى القوم الفاسقين ... الخ» قال أحمد : وهو على هذا أيضا مفعول به.
(2). عاد كلامه. قال : «و ما ذا منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أى إجابة ... الخ» قال أحمد :
والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة في مثل : ما حصل إلا بعد التي واللتيا.
(3). قوله «بما منوا به منهم» أى ابتلوا. وفي الصحاح «منيته» و«منوته» إذا ابتليته. (ع)
(4). عاد كلامه. قال : «و قيل من الهول والفزع يذهلون عن الجواب ... الخ» قال أحمد : وأيضا فالمسئول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى اللَّه ، لا ما حدث بعد ذلك مما لا يتعلق به علم الرسل ، واللَّه أعلم.
(5). عاد كلامه. قال : «و قرئ علام الغيوب بالنصب ... الخ» قال أحمد : ويكون هذا من باب
أنا أبو النجم وشعري شعري
وقد مر قبل بآيات. وإنما ذكرت هذه الثلاثة من الإعراب لالتباسها إلا على الحذاق وقليل ما هم.

فكذبوهم وسموهم سحرة. أو جاوزوا حدّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة ، كما قال بعض بنى إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البينات والمعجزات (هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) واتخذه بعضهم وأمه إلهين أَيَّدْتُكَ قويتك. وقرئ أيدتك ، على أفعلتك بِرُوحِ الْقُدُسِ بالكلام الذي يحيا به الدين ، وأضافه إلى القدس ، لأنه سبب الطهر من أو ضار الآثام. والدليل عليه قوله تعالى تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ في موضع الحال ، لأنّ المعنى تكلمهم طفلا وَكَهْلًا إلا أن في المهد فيه دليل على حدّ من الطفولة. وقيل روح القدس : جبريل عليه السلام ، أيد به لتثبيت الحجة. فإن قلت : ما معنى قوله : (فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا)؟ قلت : معناه تكلمهم في هاتين الحالتين ، من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة ، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل (الْكِتابَ) الخط. و(الْحِكْمَةَ) الكلام المحكم الصواب كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ هيئة مثل هيئة الطير بِإِذْنِي بتسهيلى فَتَنْفُخُ فِيها الضمير للكاف ، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها ، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء. وكذلك الضمير في فتكون تُخْرِجُ الْمَوْتى تخرجهم من القبور وتبعثهم. قيل : أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ يعنى اليهود حين هموا بقتله. وقيل : لما قال اللَّه تعالى لعيسى (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئا لغد يقول : مع كل يوم رزقه ، لم يكن له بيت فيخرب ، ولا ولد فيموت ، أينما أمسى بات.

[سورة المائدة (5) : الآيات 111 إلى 115]

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115)

أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أمرتهم على ألسنة الرسل مُسْلِمُونَ مخلصون ، من أسلم وجهه للَّه عِيسَى في محل النصب على إتباع حركة الابن ، كقولك : يا زيد بن عمرو ، وهي اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموما كقولك : يا زيد بن عمرو. والدليل عليه قوله :

أَحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرٌ وَيَبْدُو عَلّ الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ «1»

لأنّ الترخيم لا يكون إلا في المضموم. فإن قلت : كيف قالوا هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ بعد إيمانهم وإخلاصهم «2»؟

(1) أحار بن عمرو كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر
ولا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنى أفر
لامرئ القيس بن حجر. وقيل لربيعة بن جشم اليمنى. والهمزة للنداء. و«حار» مرخم ، أصله حارث ضم على لغة من لا ينتظر المحذوف. واللغة المشهورة معاملته معاملة التام ، كما أن المشهور أيضا فتح العلم المنادى الموصوف بابن مضاف إلى علم آخر

اتباعا لنصب ابن. ويجوز ضمه كما هنا ، لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم لأن المفتوح اتباعا كالمركب مع ما بعده. والترخيم لا يأتى في الوسط ، ولأنه لو كان مفتوحا وضم في الترخيم لكان فيه إخلال بالفتحة المجتلبة للتناسب. والخمر - كحذر - : الذي خالطه داء فغطى عقله. والخمر - كسبب - : كل ما ستّر من بناء أو شجر. ثم تذكر السبب في ذلك وهو مطاوعته ما لا تنبغي مطاوعته فقال ويعدو على الإنسان ائتماره ، أى امتثاله لأمر غيره. ويجوز أن «ما» موصولة ، أى الذي يمتثله من أمر من لا يعرف عواقب الأمور، أو من أمر نفسه وهواه ، وشبه ذلك بمن يصح منه العدوان ، على طريق الكناية. ويروى «و يبدو على المرء» أى يشرف عليه ويظهر له عاقبة امتثاله لما لا ينبغي امتثاله. وكثير ينشد فاصلتى هذا البيت بالتنوين الغالي ، لكن أنكره الزجاج والسيرافي ، لأنه يكسر الوزن. وجعله ابن يعيش من تنوين الترنم ، بناء على أنه لجلب الترنم لا لقطعه ، فلا يختص بالقوافى ، المطلقة ، بل يدخل المقيدة كما هنا. والمشهور تحريك ما قبله بالكسر. واختار ابن الحاجب الفتح. وجوز بعضهم تحريكه بما كان يستحقه لولا السكون. وبعض أجاز اجتماع الساكنين. ودخول «لا» النافية قبل القسم سائغ شائع في لسان العرب ، لأنه غالبا يكون لرد دعوى الخصم ونفيها. فالتقدير : ولا يحصل ذلك وحق أبيك ، ولو كانت زائدة محضا لكانت الواو في التقدير داخلة على واو القسم. وروى بحذف الواو الأولى : أى وحق أبيك يا ابنة العامري لا أفر من الحرب أصلا ، فلا يدعيه أحد على. فنفى الادعاء كناية عن نفى الفرار على أبلغ وجه. [.....]

(2). قال محمود : فان قلت كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم - في قوله : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ) - قال : قلت ما وصفهم بالايمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ... الخ» قال أحمد : وقيل إن معنى (هَلْ يَسْتَطِيعُ) هل يفعل ، كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم : مبالغة في التقاضي. ونقل هذا القول عن الحسن ، فعلى هذا يكون إيمانهم سالما عن قدح الشك في القدرة ، فان استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة فذاك - والله أعلم - من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل ، تسمية بالسبب الذي هو الارادة ، باسم المسبب الذي هو الفعل ، في مثل قوله : (إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ) وقد مضى أول السورة. وفي هذا التأويل الحسن تعضيد لتأويل أبى حنيفة ، حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة وجود الحرة في العصمة. وعدمه أن لا يملكك عصمة الحرة وإن كان قادراً على ذلك ، فتباح له حينئذ الأمة. وحمل قوله : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ) على معنى : ومن لم يملك منكم ، وحمل النكاح على الوطء ، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك كما ترى ، حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده فينكح الأمة. وقد مضى ذكر مذهبه ، وكنت أستبعد إنهاضه لأن يكون تأويلا يحتمله اللفظ ويساعده الاستعمال ، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا والله أعلم.

قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه قوله : (إِذْ قالَ) فإذن إنّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله : (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ : هل تستطيع ربك ، أى هل تستطيع سؤال ربك ، والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة : الخوان «1» إذا كان عليه الطعام ، وهي من «مادّه» إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدّم إليه وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوّة ، عاكفين عليها ، على أن عليها في موضع الحال ، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الايمان والإخلاص. وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ : ويعلم ، بالياء على البناء للمفعول. وتعلم. وتكون ، بالتاء. والضمير للقلوب اللَّهُمَّ أصله يا الله ، فحذف حرف النداء ، وعوضت منه الميم. ورَبَّنا نداء ثان تَكُونُ لَنا عِيداً أى يكون يوم نزولها عيدا. قيل : هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً ، وقيل : العيد السرور العائد ، ولذلك يقال : يوم عيد ، فكأنّ معناه : تكون لنا سروراً وفرحا. وقرأ عبد الله : تكن ، على جواب الأمر. ونظيرهما ، يرثني ، ويرثني لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا بدل من لنا بتكرير العامل ، أى لمن في زماننا من أهل ديننا ، ولمن يأتى بعدنا. وقيل : يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم : ويجوز المقدّمين منا والأتباع. وفي قراءة زيد : لأولانا وأخرانا ، والتأنيث بمعنى الأمّة والجماعة عَذاباً بمعنى تعذيباً. والضمير في : (لا أُعَذِّبُهُ) للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به ، لم يكن بدّ من الباء.

وروى أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفا ، ثم قال : اللهم أنزل علينا ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، وقال لهم : ليقم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك ، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ، ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما. وعند

(1). قوله «و المائدة الخوان» في الصحاح «الخوان» بالكسر : الذي يؤكل عليه ، معرب. وقوله «من مادة» الذي في الصحاح «ماد الشي ء» تحرك. و«مادت الأغصان» تمايلت اه. (ع)

رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرّاث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون : يا روح الله ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية ،

كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم اللَّه ويزدكم من فضله : فقال الحواريون : يا روح اللَّه ، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ، فقال يا سمكة احيى بإذن اللَّه ، فاضطربت. ثم قال لها : عودي كما كنت ، فعادت مشوية. ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير. وروى أنهم لما سمعوا بالشريطة وهي قوله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ) قالوا لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن : واللَّه ما نزلت ، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة ، لقوله : (وَآخِرِنا). والصحيح أنها نزلت.

[سورة المائدة (5) : آية 116]

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(116)

سُبْحانَكَ من أن يكون لك شريك ما يَكُونُ لِي ما ينبغي لي أَنْ أَقُولَ قولا لا يحق لي أن أقوله فِي نَفْسِي في قلبي : والمعنى : تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقيل فِي نَفْسِكَ لقوله في نفسي إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ تقرير للجملتين معاً ، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهى إليه علم أحد.

[سورة المائدة (5) : الآيات 117 إلى 118]

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118)

«أن» في قوله أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ «1» إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر.

---

(1). قال محمود : «أن في قوله : (أَنِ اعْبُدُوا) إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر ... الخ» قال أحمد : وقد أجاز بعضهم وقوع «أن» المفسرة بعد لفظ القول ، ولم يقتصر بها على ما في معناه ، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول. وقد أبى الزمخشري في مفصله وقوعها إلا بعد فعل في معنى القول كمذهبه هاهنا.

والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر ، وكلاهما لا وجه له. أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير ، لا تقول : ما قلت لهم إلا أن اعبدوا اللَّه. ولكن : ما قلت لهم إلا اعبدوا اللَّه. وأما فعل الأمر ، فمسند إلى ضمير اللَّه عز وجل. فلو فسرته باعبدوا اللَّه ربى وربكم لم يستقم لأن اللَّه تعالى لا يقول : اعبدوا اللَّه ربى وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل «1» لم تخل من أن تكون بدلا من ما أمرتنى به ، أو من الهاء «2» في به ، وكلاهما غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه. ولا يقال : ما قلت لهم إلا أن اعبدوا اللَّه ، بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال. وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء «3» لأنك لو أقمت (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) مقام الهاء ، فقلت : إلا ما أمرتنى بأن اعبدوا اللَّه ، لم يصح ، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته. فإن قلت : فكيف يصنع؟ «4» قلت يحمل فعل القول على معناه لأن معنى (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ).

---

(1). عاد كلامه. قال : «و أما فعل الأمر فمسند إلى ضمير اللَّه عز وجل ... الخ» قال أحمد : ويجوز أيضا هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى ، كأنه حكى معنى قول اللَّه عز وجل له بعبارة أخرى ، وكأن اللَّه تعالى قال له : مرهم بعبادتي ، أو قال لهم على لسان عيسى : اعبدوا اللَّه رب عيسى وربكم ، فلما حكاه عيسى عليه السلام قال : اعبدوا اللَّه ربى وربكم ، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره ، كما قال اللَّه تعالى حكاية عن موسى (قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى) فانظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول موسى ، وموسى لا يقول : فأخرجنا ، ولكن فأخرج اللَّه ، فلما حكاه اللَّه تعالى عن موسى رد الكلام إليه تعالى ، وأضاف الإخراج إلى ذاته على طريقة المتكلم لا الحاكي ، وكذلك قوله تعالى : (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) إلى قوله : (فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً) ونظائره كثيرة. وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود (إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ) لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات المنافية لاعتقادهم فيه.

(2). عاد كلامه. قال : «و إن جعلت أن موصولة مع فعل الأمر ... الخ» قال أحمد : أى فلا يقدر بالعبادة ولكن بالأمر بها ، كأنه قيل: ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة للَّه ، والأمر مقول لقلت ، على أن جعل العبادة مقولة ليس ببعيد ، على طريقة (ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا) أى للوطء الذي قالوا قولا يتعلق به. وكقوله تعالى : (وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً) وسيأتى له تصحيح هذا الاستعمال لوروده كثيراً في القرآن الكريم.

(3). عاد كلامه. قال : «و كذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا غير مانع من البدل ، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره ، فقد قال في مفصله ما هذا نصه : وقولهم : إن البدل في حكم تنحية الأول ، إيذان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته للتأكيد والصفة في كونهما اسمين لما يتبعانه ، لا أن يعنوا إهدار الأول وإطراحه. ألا تراك تقول : زيداً رأيت غلامه رجلا صالحا ، فلو ذهبت إلى إهدار الأول لم يسند كلامك. فانظر كيف يرد كلامه في المفصل وهو الحق ما ارتكبه من رد البدل في هذه الآية ، للزوم طرح الأول فتخلو الصلة من الضمير : ولم يجعل هذا القدر مانعا في المثال المذكور. مع أنك لو طرحت الأول لخلا الخبر من الضمير العائد ولم يسند الكلام. فهذه وجوه أربعة منعها في إعراب «أن» وكلها مسندة حسبما بينا. وهذه المساجلة في هذا الإعراب من الغرر والحجول في صناعة الإعراب وعلم البيان. وفرسان هذا المضمار قليل.

(4). عاد كلامه. قال : فان قلت كيف يصنع؟ قلت : يحمل فعل ... الخ» قال أحمد : هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول ، وليس قولا صريحا. وحمل القول على الأمر مما يصحح المذهب الآخر في إجازة وقوعها بعد القول ، فانه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي ، لما جاز إطلاق إحداهما وإرادة الأخرى.

والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول ، وما بينهما إلا عموم وخصوص. وليس في هذا التأويل الذي سلكه إلا كلفة لا طائل وراءها. ولو كانت العرب تأبى وقوع المفسرة بعد القول. لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول. ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول لأن ذلك كالعود إلى ما وقع الفرار منه وهم بعداء من ذلك.

ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به ، حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربى وربكم. ويجوز أن تكون «أن» موصولة «1» عطف بيان للهاء لا بدلا وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات ، وأرسلت إليهم من الرسل إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ القوى القادر على الثواب والعقاب الْحَكِيمُ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب. فإن قلت : المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال : (وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) «2»؟ قلت : ما قال إنك تغفر لهم ، ولكنه بنى الكلام على : إن غفرت ، فقال : إن عذبتهم عدلت ، لأنهم أحقاء بالعذاب ،

---

(1). عاد كلامه. قال : ويجوز أن تكون أن موصولة ... الخ» قال أحمد : يريد بجعله عطف بيان أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البدل وخلو الصلة حينئذ من العائد. وقد بينا أن ذلك غير لازم في البدل. والعجب أنه أيضا في مفصله لم يفصل بين عطف البيان والبدل ، إلا في مثل قول المرار :

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلا للزم تكرير العامل ، وإضافة اسم الفاعل العرف بالألف واللام إلى العلم ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول. وأما الثاني فللتوضيح. والمعتمد في البدل الثاني.

وأما الأول فبساط لذكره ، لا على أنه مطرح مهدر.

(2). قال محمود «إن قلت المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : تذبذب الزمخشري في هذا الموضع فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية. أما أهل السنة ، فالمغفرة للكافر جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلا ، بل عقاب المتقى المخلص كذلك غير ممتنع عقلا من الله تعالى ، وإذا كان كذلك فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي ، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار وعدم الغفران لهم ، إلا أن ورود السمع بذلك لا يرفع الجواز العقلي. وأما القدرية فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلا ، لا تجوز على الله تعالى لمناقضتها الحكمة ، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد ، إذ لو كان الأمر كزعمهم لما دخلت كلمة «إن» المستعملة عند الشك في وقوع الفعل بعدها لغة في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلا ، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال ، كأن يبيض القار وأشباهه. وليس هذا مكان. فقول الزمخشري إذاً (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) لم يعدم وجها من الحكمة في المغفرة لأن العفو عن المجرم حسن عقلا لا يأتلف بقواعد السنة ، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي ، ولا يأتلف أيضا بنزغات القدرية ، لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر ، ويقطعون بمنافاتها الحكمة ، فكيف يخاطب الله تعالى به ، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق ومما اشتمل عليه من سوء الأدب ، فان قول القائل لمن يخاطبه : ما فعل كذا فلن يعدم فيه عذراً ووجهاً من المصلحة كلام مبذول وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب ، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة ، فنسأل الله إلهام الأدب وتجنب ما في إساءته من مزلات العطب.

وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول. بل متى كان الجرم أعظم جرما كان العفو عنه أحسن.

[سورة المائدة (5) : آية 119]

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)

قرئ (هذا يَوْمُ يَنْفَعُ بالرفع والإضافة. وبالنصب إما على أنه ظرف لقال. وإما على أنّ (هذا) مبتدأ ، والظرف خبر. ومعناه ، هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع. ولا يجوز أن يكون فتحا ، كقوله تعالى : (يَوْمَ لا تَمْلِكُ) لأنه مضاف إلى متمكن ، وقرأ الأعمش : يوم ينفع ، بالتنوين ، كقوله تعالى : (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ) فإن قلت : ما معنى قوله يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ؟ إن أريد صدقهم «1» في الآخرة فليست الآخرة بدار

عمل ، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قلت : معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم. وعن قتادة :

متكلمان تكلما يوم القيامة. أمّا إبليس فقال : إنّ اللَّه وعدكم وعد الحق ، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذبا ، فلم ينفعه صدقه. وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

[سورة المائدة (5) : آية 120]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

فإن قلت : في السموات والأرض العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب العقلاء ، فقيل : ومن فيهنّ؟

قلت : «ما» يتناول الأجناس كلها تناولا عاما. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد : ما هو؟

قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره ، فكان أولى بإرادة العموم.

عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصراني يتنفس في الدنيا» «2»

(1). قال محمود «إن قلت ما معناه ، إن أريد صدقهم في الآخرة ... الخ» قال أحمد : ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا وصدقهم على الآخرة حتى يكون التقدير : هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة ، لكان أوضح طباقا لتفسير قتادة ، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم فان إبليس وإن صدق في الآخرة ، إلا أنه لم يكن من الصادقين في الدنيا ، فلم ينفعه صدقه في الآخرة ، والوجهان متقاربان.
(2). تقدم إسناده إلى أبى بن كعب في تفسير آل عمران.

تم بعون اللَّه تعالى الجزء الأول ويليه - إن شاء اللَّه تعالى - الجزء الثاني وأوله : سورة الأنعام

الجزء الثاني

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

مكية [إلا الآيات 20 و23 و91 و93 و114 و141 و151 و152 و153 فمدنية] وعن ابن عباس : غير ست آيات ، وآياتها 165 [نزلت بعد الحجر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنعام (6) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)

جَعَلَ يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير ، كقوله وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً والفرق بين الخلق والجعل : أن الخلق فيه معنى التقدير «1» وفي الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ : لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً. فإن قلت : لم أفرد النور «2»؟

---

(1). قال محمود : «الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير ... الخ» قال أحمد : وقد وردت «جعل» و«خلق» موردا واحدا فورد وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وورد وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها وذلك ظاهر في الترادف ، إلا أن للخاطر ميلا إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري. ويؤيده أن «جعل» لم يصحب السموات والأرض ، وإنما لزمتها «خلق» وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض ، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما ، واللَّه أعلم.

(2). عاد كلامه. قال : فإن قلت : لم أفرد النور؟ قلت : للقصد ... الخ» قال أحمد : وقد سبق للزمخشري الاستدلال يجمع الجنس على التكثير ، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الافراد. وقد قدمنا ما في ذلك من النظر ، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة : كتابه أكثر من كتبه ، على خلاف ذلك» وهو رأى الامام أبى المعالي.

ولو قال الزمخشري. إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام ، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو النار لكان أولى ، واللَّه أعلم.

قلت : للقصد إلى الجنس ، كقوله تعالى وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أو لأن الظلمات كثيرة ، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلمة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار. فإن قلت : علام عطف قوله ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ «1»؟ قلت : إما على قوله الْحَمْدُ لِلَّهِ على معنى أن اللَّه حقيق بالحمد على ما خلق ، لأنه ما خلقه إلا نعمة ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكافرون نعمته وإما على قوله خَلَقَ السَّماواتِ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. فإن قلت : فما معنى ثم؟ قلت : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، وكذلك ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

ثُمَّ قَضى أَجَلًا أجل الموت وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ أجل القيامة. وقيل : الأجل الأوّل : ما بين أن يخلق إلى أن يموت. والثاني : ما بين الموت والبعث وهو البرزخ. وقيل : الأوّل النوم.

والثاني : الموت. فإن قلت : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره «2»

---

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت علام عطف ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ... الخ»؟ قال أحمد : وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها. ولو قال الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ لم يسند ، لخلو الجملة من

العائد. ويمكن أن يقال : وضع الظاهر الذي هو بِرَبِّهِمْ موضع المضمر تفخيما وتعظيما. وأصل الكلام : الذي يعدل به الذين كفروا ، أو الذي الذين كفروا يعدلون به ، باتساع وقوعها صلة ، رعاية لهذا الأصل ، فهذا نظر من حيث الإعراب. ونظيره قوله تعالى وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ فيمن جعل «ما» موصولة لا شرطية ، فان دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعى ضميراً عائداً إلى الموصول ، وهو مفقود لفظاً ، لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمر. والأصل :
ثم جاءكم رسول مصدق له ، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة ، لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور ، وهو أنه يصير التقدير : الحمد لله الذي ، الذين كفروا يعدلون ، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى. فالوجه - والله أعلم - عطفه على أول الكلام ، لا على الصلة ، والله الموفق. [.....]
(2). قال محمود : «إن قلت المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب ... الخ» قال أحمد : وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم. وقد ورد وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ في سياق التعظيم لها ، وهو مع ذلك مؤخر عن الخبر في قبله وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فالظاهر - والله أعلم - أن التقديم إنما كان لأن الكلام منقول من كلام آخر ، وكان الأصل - والله أعلم - ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ، إذ كلاهما مقضي. فلما عدل بالكلام عن العطف الافرادى تمييزا بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء وأقر بمكانه من التقديم والله أعلم.

فلم جاز تقديمه في قوله وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ؟ قلت : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة ، كقوله وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ. فإن قلت : الكلام السائر أن يقال : عندي ثوب جيد ، ولى عبد كيس ، وما أشبه ذلك ، فما أوجب التقديم؟ قلت : أوجبه أن المعنى : وأى أجل مسمى عنده تعظيما لشأن الساعة ، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم.

[سورة الأنعام (6) : آية 3]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)

فِي السَّماواتِ متعلق بمعنى اسم الله ، «1» ، كأنه قيل وهو المعبود فيما. ومنه قوله وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ أو هو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالالهية فيها ، أو هو الذي «2» يقال له - الله - فيها لا يشرك به في هذا الاسم. ويجوز أن يكون اللَّهُ فِي السَّماواتِ خبراً بعد خبر ، على معنى : أنه الله - وأنه في السموات والأرض ، بمعنى : أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء ، كأن ذاته فيهما. فإن قلت : كيف موقع قوله يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ؟ قلت : إن أردت المتوحد بالإلهية كان تقريراً له ، لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو - الله - وحده ، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر ، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم. أو خبر ثالث وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ من الخير والشر ، ويثيب عليه ، ويعاقب.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 4 إلى 5]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5)

مِنْ في مِنْ آيَةٍ للاستغراق. وفي مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ للتبعيض. يعنى : وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار ، إلا كانوا عنه معرضين : تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً ، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب فَقَدْ كَذَّبُوا مردود على كلام محذوف ، كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات ، فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها ،

(1). قال محمود : «في السموات متعلق بمعنى اسم الله ... الخ» قال أحمد : وما الآيتان الكريمتان إلا توأمتان ، فان التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به هاهنا ، من القدرة على الاعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد في الألوهية ، وفي كونه تعالى المعبود في السموات والأرض.
(2). عاد كلامه. قال : أو هو المعروف بالألوهية أو هو الذي يقال له - الله - فيهما ... الخ» قال أحمد : وهذه الوجوه كلها كأن التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به ، كما وقع ذلك في قوله :
أنا أبو النجم وشعري شعري
أى المعروف المشهور ، لأنه بنى على أنه متى ذكر شعره فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة والبلاغة وسلامة النسج ، لاشتهاره بذلك ، فاقتصر على قوله «شعري» اتكالا على فهم السامع.

وهو الحق لَمَّا جاءَهُمْ يعني القرآن الذي تحدّوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ الشيء الذي كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ وهو القرآن ، أى أخباره وأحواله ، بمعنى :

سيعلمون بأى شيء استهزءوا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وعلوّ كلمته.

[سورة الأنعام (6) : آية 6]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

مكن له في الأرض : جعل له مكانا فيها. ونحوه : أرّض له. ومنه قوله إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وأمّا مكنته في الأرض فأثبته فيها. ومنه قوله وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم ، من البسطة في الأجسام ، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا. والسماء المظلة ، لأن الماء ينزل منها إلى السحاب ، أو السحاب أو المطر. والمدرار : المغزار. فإن قلت : أى فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟ قلت : الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده ، كقوله تعالى : وَلا يَخافُ عُقْباها

[سورة الأنعام (6) : الآيات 7 إلى 9]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

كِتاباً مكتوبا فِي قِرْطاسٍ في ورق فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ولم يقتصر بهم على الرؤية ، لئلا يقولوا «1» سكرت أبصارنا ، ولا تبقى لهم علة.

(1). قال محمود : «و لم يقتصر بهم على الرؤية لئلا ... الخ» قال أحمد : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب ، أى فقرءوه وهو في أيديهم لا بعيدا عنهم لما آمنوا ، وإلا فالحظ لا يدرك باللمس حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين ، كما يفهم من كلام الزمخشري.

لقالوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتا وعناداً للحق بعد ظهوره لَقُضِيَ الْأَمْرُ لقضى أمر إهلاكهم ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ بعد نزوله طرفة عين «1». إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته «2» وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لا يؤمنون كما قال : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى لم يكن بدّ من إهلاكهم ، كما أهلك أصحاب المائدة. وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة «3» فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى ثُمَّ بعد ما بين الأمرين : «4» قضاء الأمر ، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر ، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون : لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ، لَجَعَلْناهُ رَجُلًا لأرسلناه في صورة رجل ، كما كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلم الأحوال في صورة دحية «5» لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ ،

(1). قال محمود : «يعنى لا ينظرون بعد نزوله طرفة عين ... الخ» قال أحمد : لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك ، فانه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الايمان بها دون نزول الملك في الوضوح ، وليس الأمر كذلك. فالوجه - والله أعلم - أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك ، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا مالا يتوقف وجوب الايمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه ، المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص. فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة ، والله أعلم.

(2). متفق عليه من رواية مسروق عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته مرتين.
وفي رواية لها : رأى جبريل له ستمائة جناح.

(3). عاد كلامه. قال : «و إما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك فيجب إهلاكهم وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون» قال أحمد : ويقوى هذا الوجه قوله : ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا. قال ابن عباس : ليتمكنوا من رؤيته ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(4). عاد كلامه. قال : «و معنى - ثم - بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر ... الخ» قال أحمد : وهذه النكتة من محاسن ، تنبيهاته.

(5). متفق عليه من روآية أبى عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال «نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة ، فجعل يتحدث ، ثم قام فقال نبى الله لأم سلمة : من هذا؟ فقالت : دحية الكلبي ... الحديث» وللحاكم من روآية مسروق عن عائشة قالت : «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي في حجري رجلا شبهته بدحية الكلبي. فقال لي : هذا جبريل ، وهو يقرئك السلام» وللطبراني من روآية قتادة عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : يأتيني جبريل على صورة دحية الكلبي» قال أنس «و كان دحية رجلا جسيما جميلا أبيض» وفي إسناده عفير بن سعدان وهو ضعيف ولأبى نعيم في الدلائل من روآية صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «رأيت جبرئيل في خلقه الذي خلق عليه ، وكنت أراه قبل ذلك في صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه في صورة دحية الكلبي» رجاله ثقات ، إلا أنه مرسل وروى ابن سعد من طريق يحيى بن يعمر عن ابن عمر «كان جبريل يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي».

فإنهم يقولون. إذا رأوا الملك في صورة إنسان : هذا إنسان وليس بملك ، فإن قال لهم : الدليل على أنى ملك أنى جئت بالقرآن المعجز ، وهو ناطق بأنى ملك لا بشر - كذبوه كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن ، فهو ليس الله عليهم. ويجوز أن يراد : وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة : وقرأ ابن محيصن : ولبسنا عليهم ، بلام واحدة. وقرأ الزهري : وللبسنا عليهم ما يلبسون ، بالتشديد.

[سورة الأنعام (6) : آية 10]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من قومه فَحاقَ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

[سورة الأنعام (6) : آية 11]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

فإن قلت : أى فرق بين قوله فَانْظُروا وبين قوله ثُمَّ انْظُرُوا «1» قلت : جعل النظر «2» مسبباً عن السير في قوله فَانْظُروا فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم ، لتباعد ما بين الواجب والمباح.

[سورة الأنعام (6) : آية 12]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ سؤال تبكيت ، وقُلْ لِلَّهِ تقرير لهم ، أى هو - الله - لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أى أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض ،

(1). قال محمود : «إن قلت أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا ... الخ» قال أحمد : وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية ، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير. وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم.
(2). قوله «النظر» لعله «بالنظر». (ع)

ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ فيجازيكم على إشراككم. وقوله الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ نصب على الذم ، أو رفع : أى أريد الذين خسروا أنفسهم ، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت : كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم ، والأمر على العكس؟ قلت :

معناه : الذين خسروا أنفسهم في علم الله : لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون.

[سورة الأنعام (6) : آية 13]

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

وَلَهُ عطف على الله ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ من السكنى وتعديه بفي كما في قوله وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ. وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 14 إلى 16]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

أَوَلى غَيْرَ اللَّهِ همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو أَتَّخِذُ لأنّ الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم. ونحوه أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ. وقرئ فاطِرِ السَّماواتِ بالجرّ صفة للّه ، وبالرفع على المدح. وقرأ الزهري : فطر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها «1» أى ابتدعتها وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ وهو يرزق ولا يرزق ، كقوله ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ والمعنى : أن المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ : ولا يطعم ، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم ، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل ، والضمير لغير الله.

وقرأ الأشهب. وهو يطعم ولا يطعم ، على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه : وهو يطعم ، ولا يستطعم. وحكى الأزهرى : أطعمت ، بمعنى استطعمت. ونحوه : أفدت.

(1). أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ، وفي فضائل القرآن بإسناد حسن ، ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر وسيأتى في تفسير فاطر.

ويجوز أن يكون المعنى : وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك : وهو يعطى ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويغنى ويفقر أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لأنّ النبي سابق أمته في الإسلام ، كقوله وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ وكقول موسى سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ وَلا تَكُونَنَّ وقيل لي لا تكونن مِنَ الْمُشْرِكِينَ ومعناه: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك. ومَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ العذاب يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ الله الرحمة العظمى وهي النجاة ، «1» كقولك : إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه؟ تريد : فقد أتممت الإحسان إليه أو ، فقد أدخله الجنة ، لأن من لم يعذب لم يكن له بدّ من الثواب. وقرئ : من يصرف عنه ، على البناء للفاعل ، والمعنى : من يصرف الله عنه في ذلك اليوم فقد رحمه ، بمعنى : من يدفع الله عنه.

ويحفظه ، وقد علم من المدفوع عنه. وترك ذكر المصروف ، لكونه معلوما أو مذكورا قبله وهو العذاب. ويجوز أن ينتصب يومئذ بيصرف انتصاب المفعول به ، أى من يصرف الله عنه ذلك اليوم : أى هو له ، فقد رحمه. وينصر هذه القراءة قراءة أبىّ رضى الله عنه : من يصرف الله عنه ،

[سورة الأنعام (6) : آية 17]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه ، فلا قادر على كشفه إلا هو وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ من غنى أو صحة فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فكان قادراً على ادامته أو إزالته.

[سورة الأنعام (6) : آية 18]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

(1). قال محمود : «المراد الرحمة العظمى وهي النجاة من النار ... الخ» قال أحمد : وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة ، إما بكونها العظمى ، وإما برحمة الثواب أنه لو بقيت على إطلاقها ، لما زاد الجزاء على الشرط إذ من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما. والعجب أن الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب ولا بد ، وغيره يصحح هذا التخصيص بأنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب ، لجواز أن يصرف عنه العذاب ولا يثاب ، فأفاد الجزاء إذاً فائدة لم تفهم من الشرط. هكذا صححه القونوى. ولعمري إن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ما ذهب إليه الزمخشري ، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة فالثواب قطعا ، وإلى مستوجب للنار فالعذاب قطعا ، ويسندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع.

فَوْقَ عِبادِهِ تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، كقوله وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ الشيء أعم العام «1» لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم. ولذلك صحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ : شيء لا كالأشياء ، كأنك قلت : معلوم لا كسائر المعلومات ، ولا يصح : جسم لا كالأجسام

[سورة الأنعام (6) : آية 19]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

وأراد : أى شهيد أَكْبَرُ شَهادَةً فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله قُلِ اللَّهُ بمعنى الله أكبر شهادة ، ثم ابتدئ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أى هو شهيد بيني وبينكم ، وأن يكون اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ هو الجواب ، لدلالته على أنّ الله عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم ، فأكبر شيء شهادة شهيد له وَمَنْ بَلَغَ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة. أى : لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم. وقيل : من الثقلين. وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد قُلْ لا أَشْهَدُ شهادتكم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 20 إلى 21]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته.

(1). قال محمود : «الشيء أعم العام ، لوقوعه على كل ما يصح ... الخ» قال أحمد وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية ، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا ، والمعتزلة فإنهم قالوا : والمعلوم الذي يصح وجوده ، فاتفقوا على خروج المستحيل. وعلى الجملة فهذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار ما. وأما هذا البحث فلغوى والتحاكم فيه لأهل اللغة ، وظاهر قولهم غضبت من لا شيء ، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلا - أن الشيء لا ينطلق إلا على الموجود إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عدما كان أو وجوداً أو ممكنا أو مستحيلا ، لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء والأمر في ذلك قريب. [.....]

ثم قال الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ به ، جمعوا بين أمرين متناقضين ، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح ، حيث قالوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا. وقالوا : وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها وقالوا : الملائكة بنات الله وهؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات ، وسموها سحراً ، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 22 إلى 24]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ناصبه محذوف تقديره : ويوم نحشرهم كان كيت وكيت ، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ أى آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله.

وقوله : الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ معناه تزعمونهم شركاء ، فحذف المفعولان. وقرئ : يحشرهم ثم يقول ، بالياء فيهما. وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ ، ويجوز أن يشاهدوهم ، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة. فكأنهم غيب عنهم ، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها ، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فِتْنَتُهُمْ كفرهم. والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم «1» - الذي لزموه أعمارهم ، وقاتلوا عليه وافتخروا به ، وقالوا دين آبائنا - إلا جحوده والتبرؤ منه ، والحلف على الانتفاء من التدين به. ويجوز أن يراد : ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمى فتنة ، لأنه كذب. وقرئ : تكن ، بالتاء وفتنتهم ، بالنصب. وإنما أنث أَنْ قالُوا لوقوع الخبر مؤنثاً ، كقولك : من كانت أمّك؟

(1). قال محمود : «فتنتهم كفرهم ، والمعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم ... الخ» قال أحمد : وفي الآية دليل بين على أن الاخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره. ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذبا مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى سلبوا علمه حينئذ دهشا وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

وقرئ بالياء ونصب الفتنة. وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ : ربنا ، بالنصب على النداء وَضَلَّ عَنْهُمْ وغاب عنهم ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى يفترون إلهيته وشفاعته. فإن قلت : كيف يصحّ أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً : ألا تراهم يقولون رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ وقد علموا أنه لا يقضى عليهم. وأما قول من يقول : معناه : ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا ، وحملُ قوله انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ يعنى في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عىّ وإقحام ، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه ، وهو نابٍ عنه أشدّ النبوّ. وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ بعد قوله وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 25 إلى 26]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حين تتلوا القرآن. روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ، ما يقول محمد؟ فقال : والذي جعلها بيته - يعنى الكعبة - ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين ، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية. فقال أبو سفيان : إنى لأراه حقا. فقال أبو جهل : كلا ، فنزلت. والأكنة على القلوب، والوقر في الآذان : مثل في نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله «1» واعتقاد صحته.

(1). قال محمود : «الأكنة على القلوب والوقر في الآذان ، مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهذه الآية حسبنا في رد معتقد القدرية الذين يزعمون أن الله تعالى أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن ويفقهوه ، وأنه لم يمنعهم من ذلك ، ومحال على زعمهم أن يمنعهم من ذلك ويريد أن لا يفقهوه ، لأن ذلك عندهم قبيح. فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالرد وتنادى عليهم بالخطإ ، إذ قوله أَنْ يَفْقَهُوهُ معناه كراهة أن يفقهوه ، وبين الارادة على زعمهم ، والكراهة على ما أنبأت عنه الآية. بون بعيد ، والله الموفق.

ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله وَجَعَلْنا للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم ، كأنهم مجبولون عليه. أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ وقرأ طلحة : وقرا بكسر الواو حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ هي حتى التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله إذا جاؤُكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ويُجادِلُونَكَ موضع الحال. ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاؤك في محل الجرّ بمعنى حتى وقت مجيئهم ، ويجادلونك حال ، وقوله : يقول الذين كفروا. تفسير له. والمعنى : أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث ، خرافات وأكاذيب ، وهي الغاية في التكذيب وَهُمْ يَنْهَوْنَ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ، ويثبطونهم عن الإيمان به وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ بأنفسهم فيضلون ويضلون وَإِنْ يُهْلِكُونَ بذلك إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم ، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل : هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به.

وروى أنهم اجتمعوا إلى أبى طالب وأرادوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سوءاً. فقال : «1»

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِم حَتَّي أُوَسَّدَ فِى التُّرَابِ دَفِينَا

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا

ودَعَوْتَنِى وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِيناً لَا مَحَالَةَ أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حذَارِىَ سُبَّةٌ لَوَجَدْتَنِى سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا «2»

فنزلت.

---

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني يعقوب بن عتيبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشا قالت لأبى طالب هذه المقالة فذكر القصة» قال ابن إسحاق : ثم قال : فذكر هذا الشعر.

(2). لأبى طالب ، لما اجتمع عنده قريش وأرادوا قتل النبي صلى اللّه عليه وسلم. «فاصدع» أى اجهر بأمرك حتى تؤثر في القلوب ، كصدع الزجاج ، أى شقه وكسره. وغض منه يغض - بالضم - غضاضة : وضع ونقص من قدره. وغضغضت الماء وتغضغض هو : نقصته وانتقص. أى ما عليك مذلة ومنقصة من أمرك. وبشر يبشر - بالضم - سر وفرح. وأبشر إبشارا : سر واستبشر. وبشرته وأبشرته أفرحته. أى : افرح وانسر بذلك.

وقرت عينه. بردت سرورا ، أى افرح بذلك وانسر. فهو توكيد لأبشر ، إلا أنه بطريق الكناية المفيدة للمبالغة.

وعيونا تمييز محول عن الفاعل ، أى لتقر عيونك. والمراد بالجمع ما فوق الواحد ، أو المبالغة ، أو عيونه هو أو عيونه هو والمؤمنين. ويروى «منه» أى من ذلك الأمر. و«لن» حرف لتوكيد النفي كما تشهد به مواضع الاستعمال.

ونفى الوصول : كناية عن نفى المضرة على وجه أبلغ. والباء للملابسة. و«حتى أوسد» غاية مفيدة للتوكيد والتأييد والتوسيد : كناية عن الموت ، فيجعل له وسادة تحت رأسه في رمسه. و«دفينا» أى مدفونا حال. ومجيء المضارع المنفي بلن جوابا للقسم لا يجوز إلا في الضرورة كما هنا. وزعمت : أى قلت عند من لا يصدقك ، ولقد صدقت في دعواك أنك ناصح للناس ، و«كنت ثم» أى عند قولك «أمينا» فيما ادعيت وعرضت علينا دينا صادقا أنه من خير أديان البرية دينا ، أى من جهة الديانة ، أو من جهة الجزاء. وقيل : قد يراد من التمييز مجرد التوكيد وهذا منه لا محالة في ذلك ، فقوله «لا محالة» جملة اعتراضية للتوكيد. والحذار : مصدر بمعنى الحذر من مسبتهم لي. ويروى أو حذارى سبة. والسب أبلغ من اللوم «لوجدتني» يا محمد راضياً بذاك الدين ، مظهراً له. وسمح سماحة فهو سمح ، كضخم ضخامة فهو ضخم : إذا جاد ولم يبخل.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 27 إلى 28]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

وَلَوْ تَرى جوابه محذوف تقديره. ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً وُقِفُوا عَلَى النَّارِ أروها حتى يعاينوها. أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم ، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك : وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته ، وقرئ: وقفوا ، على البناء للفاعل ، من وقف عليه وقوفا يا لَيْتَنا نُرَدُّ تم تمنيهم. ثم ابتدءوا وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ واعدين الإيمان ، كأنهم قالوا : ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات. وشبهه سيبويه بقولهم : دعني ولا أعود ، بمعنى دعني وأنا لا أعود ، تركتني أو لم تتركني. ويجوز أن يكون معطوفا على نردّ، أو حالا على معنى : يا ليتنا نردّ غير مكذبين وكائنين من المؤمنين ، فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قلت : يدفع ذلك قوله وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ لأنّ المتمنى لا يكون كاذبا. قلت : هذا تمنّ قد تضمن معنى العدة ، فجاز أن يتعلق به التكذيب ، كما يقول الرجل : ليت اللّه يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك ، فهذا متمنّ في معنى الواعد ، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب ، كأنه قال : إن رزقني اللّه مالا كافأتك على الإحسان. وقرئ : ولا نكذب ونكون ، بالنصب بإضمار أن على جواب التمني «1» ومعناه : إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم ، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً ، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردّوا لآمنوا.

---

(1). قال محمود : «و قرئ ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ... الخ» قال أحمد :

وكثيراً ما تتناوب صيغة التمني والخبر. ألا ترى : إلى قوله تعالى وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ في قوله : وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ إلى قوله وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنيا بصيغة الخبر ، واللّه أعلم. وأبين من ذلك

قوله تعالى في آية أخرى وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فهذا هو التمني بعينه ، ولكن بصيغة الوعد والخبر الصريحة ، والله الموفق.

وقيل : هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه. وقيل : هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَوْ رُدُّوا إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ من الكفر والمعاصي وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

[سورة الأنعام (6) : آية 29]

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

وَقالُوا عطف على لعادوا. أى ولو ردّوا لكفروا ولقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله : وإنهم لكاذبون ، على معنى : وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء ، وهم الذين قالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا. وكفى به دليلا على كذبهم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال ، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل : وقفوا على جزاء ربهم. وقيل عرفوه حق التعريف قالَ مردود على قول قائل قال : ما ذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه فقيل : قال أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب. وقولهم - لما كانوا يسماعون من حديث البعث والجزاء - : ما هو بحق وما هو إلا باطل بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها. وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخر. وحَتَّى غاية لكذبوا لا لخسر ، لأن خسرانهم لا غاية له. أى ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة. فإن قلت : أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت : لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدّماتها ، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات فقد قامت قيامته «1»».

(1). أخرجه أبو شجاع الديلمي في الفردوس عن أنس بلفظ «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته» للطبري من حديث زياد من علاقة عن المغيرة بن شعبة قال «يقولون القيامة القيامة ، وإنما قيامة الرجل موته» ومن رواية سفيان عن أبى قيس قال «شهدت جنازة فيها علقمة. فما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته.

أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة بَغْتَةً فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغتة ، أو على المصدر كأنه قيل : بغتتهم الساعة بغتة فَرَّطْنا فِيها الضمير للحياة الدنيا ، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها ، كما تقول : فرّطت في فلان. ومنه فرّطت في جنب الله يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ كقوله فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور ، كما ألف الكسب بالأيدى ساءَ ما يَزِرُونَ بئس شيئا يزرون وزرهم ، كقوله ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ.

[سورة الأنعام (6) : آية 32]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32)

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة ، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة. وقوله لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : ولدار الآخرة. وقرئ : تعقلون بالتاء والياء.

[سورة الأنعام (6) : آية 33]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)

قَدْ في قَدْ نَعْلَمُ بمعنى «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته «1» ، كقوله :

أَخُو ثِقَةٍ لَا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ «2»

(1). قال محمود : «قد في قد نعلم بمعنى ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله : ولكنه قد يهلك المال نائله» قال أحمد : ومثلها في قوله وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فانه يكثر علمهم برسالته ويؤكده بظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين : أذيته ، ورسوخ علمهم برسالته ، والله أعلم. ومنه أيضا قوله :
قد أترك القرن مصفراً أنامله
والغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه ، تنبيها على أنه بلغ الآية التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد. وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها.
(2) أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يحاوله
لزهير بن أبى سلمي يمدح حصن بن أبى حذيفة. والثقة من وثق ، كالعدة من وعد. وإن كان الفعل الأول مكسورا والثاني مفتوحا ، فأصلها «وثق» حذفت الواو وخلفتا التاء ، والمراد بها ما يتوثق به ، أو المصدر هو التوثق ، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاف ، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به. وإسناد الإهلاك إلى الخمر مجاز عقلى ، لأنه سببه ، وكذلك إسناده إلى النائل ، أى العطاء. و«قد» هنا للتكثير ، وإلا لم يكن مدحا ، (2 - كشاف - 2) تراه متهللا مستبشر الوجه إذا جئته سائلا ، فكأنك تعطيه المال الذي أنت طالبه منه. وبالغ في وصفه بالكرم حتى أنه يجود بروحه إن لم يملك غيرها ، وبنى على ذلك أمر سائله بالتقوى من الله ، لئلا يأخذ روحه فيميته.
فسائله الأول مضاف لمفعوله الثاني. والثاني مضاف للأول. وقوله «فمن» استفهام إنكارى ، أى ما مثله أحد في الحروب ، وما مثله أحد معد لانكار الظلم وإبائه والمحاولة والمعالجة والطلب. وضمير يحاوله للضيم ، أو لحصن ، أو لمن. ويروى الشعر برواية أخرى، على أنه وصف لمعن بن زائدة وهي :
يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد في دياره من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لو انه أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن .... البيت
ورفع جمائله ، ذهابا إلى المعنى ، لأن المعنى لم يبق إلا جمائله ونائله : آخذه منه. وبسط الكف : كناية عن كثرة الكرم. وأنامله : أجزاء أصابعه.

والهاء في إِنَّهُ ضمير الشأن لَيَحْزُنُكَ قرئ بفتح الياء وضمها. والَّذِي يَقُولُونَ هو قولهم ساحر كذاب لا يُكَذِّبُونَكَ قرئ بالتشديد والتخفيف ، من كذبه إذا جعله كاذبا في زعمه «1» وأكذبه إذا وجده كاذبا. والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله ، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق ، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه. ونحوه قول السيد لغلامه - إذا أهانه بعض الناس - : إنهم لم يهينوك وإنما أهانونى. وفي هذه الطريقة قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ وقيل : فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ، ولكنهم يجحدون بألسنتهم. وقيل : فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله. وعن ابن عباس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين «2» فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ، ولكنهم كانوا يجحدون. وكان أبو جهل يقول : ما نكذبك لأنك عندنا صادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به. وروى أنّ الأخنس بن شريق قال لأبى جهل : يا أبا الحكم ، أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ،

(1). عاد كلامه. قال : «و قرئ يكذبونك بالتشديد والتخفيف من كذبه إلى قوله وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ ... الخ» قال أحمد : وفي هذا النوع من إقامة الظاهر مقام المضمر فنان من نكت البيان ، إحداهما : الإسهاب في ذمهم وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهرا ، حتى لو كان لقبا جامدا ، والأخرى زيادة منه تؤكد ذمهم ، تفهم من اشتقاق الظاهر.
(2). لم أجده عنه وفي الطبقات من حديث يعلى بن أمية قال «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين» ورواه أيضا من حديث على ابن أبى طالب نحوه.

ولكن إذا ذهب بنو قصىّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة ، فما ذا يكون لسائر قريش ، فنزلت ، وقوله وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ من إقامة الظاهر مقام المضمر ، للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 34]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» وهذا دليل على أن قوله فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ليس بنفي لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ما أهانوك ولكنهم أهانوني عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا على تكذيبهم وإيذائهم وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ لمواعيده من قوله وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 35 إلى 36]

وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35) إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

كان يكبر على النبي صلى اللّه عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ، إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ منها بِآيَةٍ فافعل. يعنى أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه ، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل : كانوا يقترحون الآيات فكان يورّ أن يجابوا إليها لتمادى حرصه على إيمانهم.

(1). عاد كلامه. قال : «و قوله ولقد كذبت رسل من قبلك تسلية ... الخ» قال أحمد : ولا دلالة فيه لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضا ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين ، أى هؤلاء لم يكذبوك فحقك أن تصبر عليهم ولا يحزنك أمرهم ، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم فصبروا عليهم ، فأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبره فقد ائتلف كما ترى بالتفسيرين جميعا ، ولكنه من غير الوجه الذي استدل به فيه تقريب لما اختاره : وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحا بها في نحو قوله وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فسلاه عن تكذيبهم له بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر ، واللّه أعلم.

فقيل له : إن استطعت ذلك فافعل ، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات ، كأنه قيل : لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقى إلى السماء لفعلت ، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها.

وحذف جواب «أن» كما تقول : إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه «1» إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ يعنى أن الذين تحرص على أن يصدّقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسماعون ، وإنما يستجيب من يسمع ، كقوله إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان. وأنت لا تقدر على ذلك. وقيل معناه : وهؤلاء الموتى - يعنى الكفرة - يبعثهم اللّه. ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسماعون. وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم «2» وقرئ : يرجعون ، بفتح الياء.

[سورة الأنعام (6) : آية 37]

وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37)

لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ نزل بمعنى أنزل. وقرئ أن ينزل بالتشديد والتخفيف. وذكر الفعل والفاعل مؤنث ، لأن تأنيث آية غير حقيقى ، وحسن للفصل. وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً تضطرهم إلى الإيمان.

كنتق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه ، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ الله قادر على أن ينزل تلك الآية ، وأن صارفا من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

(1). قال محمود : «بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه» قال أحمد : وهذه الآية أيضا كافلة بالرد على القدرية في زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن. ألا ترى أن الجملة مصدرة بلو ، ومقتضاها امتناع جوابها لامتناع الواقع بعدها ، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً إنما كان لامتناع المشيئة ، فمن ثم ترى الزمخشري يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة لا يكون الايمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممتنعة ولكن لم يقع متعلقها ، وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ، والله الموفق.

(2). قوله «إلى استماعهم» لعله : إسماعهم. (ع)

[سورة الأنعام (6) : آية 38]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ما فَرَّطْنا ما تركنا وما أغفلنا فِي الْكِتابِ في اللوح المحفوظ مِنْ شَيْءٍ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ يعنى الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض ، كما روى أنه يأخذ للجماء من القرناء. فإن قلت : كيف قيل : إِلَّا أُمَمٌ مع إفراد الدابة والطائر؟ فإن قلت : لما كان قوله تعالى وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقال : وما من دواب ولا طير ، حمل قوله إِلَّا أُمَمٌ على المعنى ، فإن قلت ، هلا قيل : وما من دابة ولا طائر «1» إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله فِي الْأَرْضِ ويَطِيرُ بِجَناحَيْهِ قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبى عبلة : ولا طائر ، بالرفع على المحل ، كأنه قيل : وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة : ما فرطنا ، بالتخفيف.

[سورة الأنعام (6) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

فإن قلت : كيف أتبعه قوله وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا؟ قلت : لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال : والمكذبون صُمٌّ لا يسمعون كلام المنبه بُكْمٌ لا ينطقون بالحق ،

(1). قال محمود : «إن قلت هلا قيل : وما من دابة ولا طائر ... الخ» قال أحمد : ولم يبين وجه زيادتها للتعميم. ولقائل أن يقول : يلزم من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجو في العموم وإن لم يذكر في الجو ، وكذلك يلزم من عموم الدواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين وإن لم يذكر في الأرض ، فلا بد من بيان وجه الزيادة فنقول : موقع قوله فِي الْأَرْضِ ويَطِيرُ بِجَناحَيْهِ موقع الوصف العام ، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان ، والله أعلم. [.....]

خابطون في ظلمات الكفر ، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه ، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع «1» مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ أى يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به ، «2» لأنه ليس من أهل اللطف وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى يلطف به لأنّ اللطف يجدى عليه.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 40 إلى 41]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)

أَرَأَيْتَكُمْ أخبروني. والضمير الثاني لا محل له من الإعراب ، لأنك تقول : أرأيتك زيداً ما شأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيدا ما شأنه؟ وهو خلف من القول ومتعلق الاستخبار محذوف ، تقديره : إن أتاكم عذاب انّه «3» أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ من تدعون. ثم بكتهم بقوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ ، أم تدعون الله دونها بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أى ما تدعونه إلى كشفه إِنْ شاءَ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ وتتركون آلهتكم ، «4» أو لا تذكرونها في ذلك الوقت ، لأنّ أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده ، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ «5» كأنه قيل : أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

(1). قوله «إيذانا بأنهم من أهل الطبع» أى الختم على القلوب. وقوله «أى يخذله ... الخ» فسر الإضلال بذلك، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلق الشر كالخير ، فالاضلال على ظاهره عندهم بمعنى خلق الضلال في القلب. (ع)
(2). قال محمود : «معنى يضلله يخذله ولم يلطف به ... الخ» قال أحمد : وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعا لمعتقده الفاسد في أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد. وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها ، وقد اتسع الخرق على الراقع ، والله الموفق.
(3). قال محمود : «متعلق الاستخبار محذوف تقديره ... الخ» قال أحمد : هو لا يدع أن يحجر واسعا فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح والأصلح.
(4). عاد كلامه. قال : «و تنسون ما تشركون : أى وتتركون آلهتكم ... الخ» قال أحمد : وإنما يلقى الاختصاص حيث يقول : معناه أتخصون آلهتكم ، ثم قال : بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدم المفعول على الفعل في قوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ وقوله بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص والحصر. وقوله تعالى إِيَّاكَ نَعْبُدُ في قوة قولك : لا نعبد إلا إياك. وقد مضى الكلام عليه.
(5). عاد كلامه. قال : «و يجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون ... الخ» قال أحمد : ولقد سدد النظر لولا أنه نغص ذلك بما يفهم وجوب مراعاة المصالح. وأن مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة ، وقد تقدم آنفا فاحذره. وعليك بما سواه فانه من بديع النظر ، والله الموفق.

فإن قلت : إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله : فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ مع قوله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟ قلت : قد اشترط في الكشف المشيئة ، وهو قوله : إِنْ شاءَ إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة ، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 42 إلى 45]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

البأساء ، والضراء : البؤس ، والضر. وقيل البأساء : القحط والجوع. والضراء : المرض ونقصان الأموال والأنفس. والمعنى : ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا معناه : نفى التضرع ، كأنه قيل : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ من البأساء والضراء : أى تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء ، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى ، طلباً لصلاحه حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الخير والنعم ، لم يزيدوا على الفرح والبطر ، من غير انتداب لشكر ولا تصدّ لتوبة واعتذار أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ واجمون «1» متحسرون آيسون فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ آخرهم لم يترك منهم أحد ، قد استؤصلت شأفتهم «2» وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ،

(1). قوله «واجمون» في الصحاح «الواجم» الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام. (ع)
(2). قوله «شأفتهم» قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، ثم ضربت مثلا في الاستئصال. أوده الصحاح. (ع)

إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة «1» وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم. وقرئ «فتحنا» بالتشديد.

[سورة الأنعام (6) : آية 46]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ بأن يصمكم ويعميكم وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم يَأْتِيكُمْ بِهِ أى يأتيكم بذاك ، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه يَصْدِفُونَ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

[سورة الأنعام (6) : آية 47]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته ، قيل بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً وعن الحسن : ليلا أو نهاراً. وقرئ بغتة أو جهرة «2» هَلْ يُهْلَكُ أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ. هل يهلك بفتح الياء.

[سورة الأنعام (6) : آية 48]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48)

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ من آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم ، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة وَأَصْلَحَ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف.

[سورة الأنعام (6) : آية 49]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)

---

(1). قال محمود : «الحمد هاهنا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك ... الخ» قال أحمد : ونظيرها قوله تعالى وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى فيمن وقف هاهنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين. ومنهم من وقف على المنذرين وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون ، فعلى الأول يكون الحمد حتما ، وعلى الثاني فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعا ، ولكنه في ، آية النمل أظهر في كونه مفتتحا لما بعده ، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه ختما ، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك ، والله أعلم.

(2). قوله «بغتة أو جهرة» كذا في أبى السعود والبيضاوي. وفي بعض نسخ هذا الكتاب بغتة أو جهرة ، وكتب عليه : أى بتحريك الغين والهاء. اه (ع)

جعل العذاب ماسا ، كأنه حىّ يفعل بهم ما يريد من الآلام. ومنه قولهم : لقيت منه الأمرّين والأقورين»

حيث جمعوا جمع العقلاء : وقوله إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً.

[سورة الأنعام (6) : آية 50]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

أى لا أدعى ما يستبعد في العقول «2» أن يكون لبشر من ملك خزائن الله - وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه ، وعلم الغيب ، وأنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس «3» خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه. أى لم أدّع إلهية ولا ملكية ، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها. وإنما أدّعى ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوّة هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ مثل للضالّ والمهتدى «4» ويجوز أن يكون مثلا لمن اتبع ما يوحى إليه. ومن لم يتبع.

(1). قوله «الأمرين والأقورين» الأمرين - بنون الجمع - : الدواهي. والأقورين - بكسر الراء - : الدواهي العظام ، كذا في الصحاح. (ع)

(2). قال محمود : «أى لا أدعى ما يستبعد في العقول ... الخ» قال أحمد رحمه الله : هو ينبنى على القاعدة المتقدمة له في تفضيل الملائكة على الأنبياء. ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفة أن يقول : إنما وردت الآية رداً على الكفار في قولهم ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ... الآية فرد قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، بأنه بشر وذلك شأن البشر ، ولم يدع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام ، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء لأنه لا خلاف أن الأنبياء يأكلون الطعام وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء. وكذلك رد قولهم. أو يلقى إليه كنز ، بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به. وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله نْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

قال الزمخشري : لأنهم أعلى من الأنبياء ، وقد أخر هاهنا دعوى الملكية عن دعوى الالهية ، إذ الالهية أجل وأعلى ، والملكية أدنى ، ولا محل لذلك إلا التمهيد الذي أسلفته وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعا للسياق ، فقد تقضى البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر. ولم يحسن الزمخشري في قوله : ليس يعد الالهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، فانه جعل الالهية من جملة المنازل كالملكية. ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ. والمنزلة عبارة عن المحل الذي ينزل الله فيه العبد من علو وغيره ، فاطلاقها على الالهية تحريف ، والله الموفق للصواب.

(3). قوله «من الملائكة الذين هم أشرف جنس» أى عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة ، فالبشر أشرف ، على ما تقرر في التوحيد.(ع)

(4). عاد كلامه. قال : والأعمى والبصير مثل للضال والمهتدى ... الخ» قال أحمد : قوله أو ادعى المحال يعنى المستحيل ، ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن ، وذلك مسبب عن دعوى الالهية ، إذ ادعاؤها لا يجوز عقلا. وأما مدعى الملكية فلا يقاس بمدعي الالهية في الاستحالة العقلية. ويجوز في القدرة أن يجعل البشر ملكا والملك بشراً ، كما يجوز أن يجعل البشر أنبياء. ويدل على هذا الجواز قوله وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا هذا مع أن العقل يجيزه في قدرة الله تعالى ، لأن الجواهر متماثلة ، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها فالمعاني التي بها كان الملك ملكا يجوز أن يخلقها الله تعالى للبشر وبالعكس. وعدم وقوعه لا يأبى استقامته وإمكانه ، والله الموفق.

أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوة ، والمحال وهو الإلهية أو الملكية أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن أتباع ما يوحى إلىَّ مما لا بدّ لي منه. فإن قلت : أَعْلَمُ الْغَيْبَ ما محله من الإعراب؟ قلت : النصب عطفاً على قوله عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ ، لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

[سورة الأنعام (6) : آية 51]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

وَأَنْذِرْ بِهِ الضمير راجع إلى قوله ما يُوحى إِلَيَّ والَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إمّا قوم داخلون في الإسلام مقرّون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل «1» فينذرهم بما يوحى إليه لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وإمّا أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث. وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار ، دون المتمرّدين منهم ، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ في موضع الحال من يحشروا ، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ، ولا بدّ من هذه الحال ، لأن كلا محشور ، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال.

(1). قال محمود : «الذين يخافون إما قوم آمنوا إلا أنهم مفرطون ... الخ» قال أحمد : وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل : وأنذر به الذين يحشرون ، لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار كل أحد والمقصود تخصيصه بالبعض.

وأما وقد قيل وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ فهذا الكلام مستقل برأسه. ومضمونه تخصيص الانذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث ، إما لأنهم مقرون به. وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم فيحملهم الخوف على النظر المقضى إلى اليقين ، دون العتاة المصممين على الجحد وليس كل خائف من البعث لا شفيع له ، فان الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم ، وإن عنى باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها ، كالتي في قوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً قائما هو حينئذ يبتنى على قاعدته في إنكار الشفاعة ، فكل خائف عنده لا شفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين أو الكفار. والكل عنده سواء لا شفيع لهم. وحيث أثبتت الشفاعة ، جعلها خاصة بزيادة الثواب ، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح ، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه. فهذا عنده لا يخاف من البعث ، لأنه يستوجب الجنة. فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان : غير مخالف ، فلا تتناوله الآية.

وخائف ، فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله. وهذه من دفائنه الخفية ، ومكامنه المزوية ، فتفطن لها ، والله الموفق برحمته. [.....]

[سورة الأنعام (6) : آية 52]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم ، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشى : الدوام. وقيل معناه : يصلون صلاة الصبح والعصر ، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله يُرِيدُونَ وَجْهَهُ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته. روى أن رؤسا من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم ، وأرواح جبابهم - وكانت عليهم جباب من صوف - جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين. فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت. فقال : نعم ، طمعاً في إيمانهم «1». وروى أن عمر رضى الله عنه قال : لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون. قال فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بصحيفة وبعلىّ رضى الله عنه ليكتب ، فنزلت. فرمى بالصحيفة ، واعتذر عمر من مقالته «2». قال سلمان وخباب : فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته. وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت «3» : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ، فترك القيام عنا إلى أن تقوم عنه،

(1). رواه البيهقي في الشعب في أواخره والواحدي في الأسباب من رواية أبى مشجعة بن ربعي عن سلمان قال «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر والأفرع بن حابس وذووهم فقالوا يا رسول الله ، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك. فأنزل الله تعالى وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ - إلى قوله - لِلظَّالِمِينَ ناراً فقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسهم. الحديث» ولابن ماجة وابن أبى شيبة والطبراني وأبو نعيم في ترجمة خباب. وإسحاق وأبو يعلى والبزار والبيهقي أيضا والواحدي من طريق أبى الكنود عن خباب في قوله تعالى وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ - الآية إلى الظَّالِمِينَ قال : جاء الأفرع وعيينة فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب ، قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين. فذكره مطولا.

(2). قلت هو في حديث خباب المذكور آنفا دون مشورة عمر. واعتذاره.

(3). قلت أما حديث خباب فمن أوله إلى قوله «أن تقوم» في حديثه المذكور آنفا. وأما حديث سلمان فقد ذكرته أولا. وأما قوله «و قال الحمد لله ... إلى آخره» فهو في حديث سلمان وحده.

وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرنى أن أصبر نفسي مع قوم من أمتى. معكم المحيا ومعكم الممات ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كقوله إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم ، فقال ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى : وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة «1» المتقين ، وإن كان لهم باطن غير مرضى فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعدّاهم إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعدّاك إليهم ، كقوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى . فإن قلت : أما كفى قوله ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حتى ضم إليه وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ؟

قلت : قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة ، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنىّ في قوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه. وقيل: الضمير للمشركين. والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم ، حتى يهمك إيمانهم ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين فَتَطْرُدَهُمْ جواب النفي فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ جواب النهى. ويجوز أن يكون عطفا على فَتَطْرُدَهُمْ على وجه التسبيب ، لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم. وقرئ : بالغدوة والعشى.

[سورة الأنعام (6) : آية 53]

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

وَكَذلِكَ فَتَنَّا ومثل ذلك الفتن العظيم ، فتنا بعض الناس ببعض ، أى ابتليناهم بهم. وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للمسلمين أَهؤُلاءِ الذين مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أى أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ، ونحن المقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير ، ونحوه أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا ، لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ. ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك :

خذلناهم «2» فافتتنوا ، حتى كان افتتانهم سببا لهذا القول ، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ أى الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان. وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق.

[سورة الأنعام (6) : آية 54]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

(1). قوله «بسيمة» لعله «بسمة». (ع)
(2). قوله «خذلناهم فافتتنوا» فسر بهذا على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة يخلق الشر كالخير. (ع)

فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم. وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييبا لقلوبهم. وكذلك قوله كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ : إنه ، فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ وبالفتح على الإبدال من الرحمة بِجَهالَةٍ في موضع الحال ، أى عمله وهو جاهل. وفيه معنيان ، أحدهما : أنه فاعل فعل الجهلة لأنّ من عمل ما يؤدى إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظانّ فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير. ومنه قول الشاعر :

على أنّها قالت عشيّة زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلا «1»

والثاني : أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة. ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته. وقيل : إنها نزلت في عمر رضى الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة.

[سورة الأنعام (6) : آية 55]

وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

وقرئ وَلِتَسْتَبِينَ بالتاء والياء مع رفع السبيل لأنها تذكر وتؤنث. وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل. يقال : استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته. والمعنى : ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين ، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه ، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة ، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به ، فصلنا ذلك التفصيل.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 56 إلى 58]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

(1). «على» بمعنى «مع» أى قالت عشية زيارتي إياها «جهلت» أى فعلت فعل الجاهل ، أو تجاهلت وادعيت الجهل ، مع تعمدك ولم تك جاهلا حين الفعل. أو لم تك فيما مضى جاهلا بشيء. (ع)

نُهِيتُ صرفت وزجرت ، بما ركب فىّ من أدلة العقل ، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ أى لا أجرى في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً أى إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعنى أنكم كذلك. ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ومعنى قوله إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ : إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه ، على حجة واضحة وشاهد صدق وَكَذَّبْتُمْ بِهِ أنتم حيث أشركتم به غيره. يقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتا عندك بدليل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم

أحقاء بأن يغافصوا «1» بالعذاب المستأصل فقال ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ يعنى العذاب الذي استعجلوه في قولهم فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ في تأخير عذابكم يَقُصُّ الْحَقَّ أى القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أى القاضين. وقرئ : يقص الحق «2» أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره ، من قصر أثره لَوْ أَنَّ عِنْدِي أى في قدرتي وإمكانى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا «3» من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم.

وقيل عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي على حجة من جهة ربى وهي القرآن وَكَذَّبْتُمْ بِهِ أى بالبينة. وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن. فإن قلت : بم انتصب الحق؟ قلت : بأنه صفة لمصدر يقضى ، أى يقضى القضاء الحق. ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها ، أى يصنع الحق ويدبره. وفي قراءة عبد الله : يقضى بالحق. فإن قلت : لم أسقطت الياء في الخط؟ قلت : اتباعا للخط اللفظ ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

(1). قوله «يغافصوا» أى يؤاخذوا على غفلة. يقال : غافصت الرجل أخذته على غرة اه (ع)
(2). قوله «و قرئ يقص الحق» ظاهره أن قراءة يَقُصُّ من القضاء ، هي المشهورة. فليحرر. (ع)
(3). قوله «و امتعاضا» الامتعاض : امتداد الغضب. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الأنعام (6) : آية 59]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59)

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ، لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن «1» المتوثق منها بالأغلاق والأقفال. ومن علم مفاتحها وكيف تفتح ، توصل إليها ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها ، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. والمفاتح : جمع مفتح وهو المفتاح. وقرئ مفاتيح ، وقيل : هي جمع مفتح - بفتح الميم - وهو المخزن. وَلا حَبَّةٍ ... وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ عطف على ورقة «2» وداخل في حكمها ، كأنه قيل : وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه. وقوله إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ كالتكرير لقوله إِلَّا يَعْلَمُها لأنّ معنى إِلَّا يَعْلَمُها ومعنى إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ واحد. والكتاب المبين : علم الله تعالى ، أو اللوح : وقرئ : ولا حبة. ولا رطب.

ولا يابس ، بالرفع. وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل مِنْ وَرَقَةٍ وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ : كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار.

[سورة الأنعام (6) : آية 60]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)
وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ الخطاب للكفرة ، أى أنتم منسدحون «3»

(1). قال محمود : «المفاتح استعارة ، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن ... الخ» قال أحمد : إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديدا فانه يوهم تجدد وصول بعد تباعد إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد والله تعالى مقدس عن ذلك والغائب كالحاضر في علمه والعلم بالكائن هو العلم بما سيكون لا يتغاير ولا يختلف وليس لما أن نطلق مثل هذا الإطلاق إلا عن ثبت ، والله الموفق.
(2). عاد كلامه. قال : «و لا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ، عطف على ورقة وداخل في حكمها ... الخ» قال أحمد : وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلب الإيجاب لمقصود للعلم في قوله إِلَّا يَعْلَمُها وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم وهو المقصود وطالت ، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك جديراً بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى ، ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير. وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان ونسكت اللبان ، والله الموفق.
(3). قوله «منسدحون» أى منسطحون على القفا ، أو منقلبون على الوجه أفاده الصحاح. (ع)

الليل كله كالجيف وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ما كسبتم من الآثام فيه ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ومن أجله ، كقولك : فيم دعوتني؟ فتقول :

«1» في أمر كذا لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى وهو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم. ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وهو المرجع إلى موقف الحساب ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في ليلكم ونهاركم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 61 إلى 62]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

حَفَظَةً ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون. وعن أبى حاتم السجستاني كان يكتب عن الأصمعى كل شيء يلفظ به من فوائد العلم، حتى قال فيه. أنت شبيه الحفظة، تكتب لغط اللفظة: فقال أبو حاتم: وهذا أيضاً مما يكتب. فإن قلت: الله تعالى غنىّ بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا أى استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه. وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناوله. وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرّتين. وقرئ: توفاه. ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعا بمعنى تتوفاه. ويُفَرِّطُونَ بالتشديد والتخفيف، فالتفريط التواني والتأخير عن الحدّ، والإفراط مجاوزة الحدّ أى لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ أى إلى حكمه وجزائه مَوْلاهُمُ مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم الْحَقِّ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق أَلا لَهُ الْحُكْمُ يومئذ لا حكم فيه لغيره وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ لا يشغله حساب عن حساب. وقرئ الْحَقِّ بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحق.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 63 إلى 64]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

(1). قوله «فتقول في أمر كذا» لعله: فيقول. (ع)

ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما. يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل، ويجوز أن يراد. ما يشفون «1» عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتهما لَئِنْ أَنْجَيْتَنا على إرادة القول مِنْ هذِهِ من هذه الظلمة الشديدة. وقرئ يُنَجِّيكُمْ بالتشديد والتخفيف. وأنجانا. وخفية، بالضم والكسر.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 65 إلى 67]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

هُوَ الْقادِرُ هو الذي عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل من فوقكم: من قبل أكابركم وسلاطينكم.

ومن تحت أرجلكم: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتّى إذا التبست نفضت لها بدى «2»

(1). قوله «ما يشفون عليه» أى يشرفون ويقربون. أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(2) وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي
فتركتهم تقص الرماح ظهورهم من بين منعفر وآخر مسند

ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت دون رجالها لا تبعد
للفرار السلمي ، يمدح نفسه بأنه مهياج للشر يعرف مداخله ومخارجه. يقول : رب جماعة خلطتها بأخرى ، حتى إذا تم اختلاطهما تخلصت منهما وتركتهما في حيص بيص ، لكن فيه إثبات طرف من اللؤم ، ونفض اليد : كناية عن التخلص. والوقص : الدق والكسر. والمنعقر : المجروح بالسهم ، فتنقطع قوته من العقر وهو القطع. ويروى :
منعفر ، بالفاء أى متعفر بالتراب. والمسند : اسم مفعول ، أى دابرين بين ساقط ومتكئ على غيره ، ولا تبعد :
مقول المقال ، وهو بفتح العين أى لا تهلك ، وهي كلمة تقولها النساء عند المصيبة. وقوله «و قتلت» حال ، أى والحال أنى قد قتلت دون رجال تلك النساء ، أى أمامهم ، أو من بينهم لكفايتى عنهم. أى لو صبرت لقتلت ، ولم يحينى كلام نسائهم وتفجعهم على مع سلامة رجالهن. (3 - كشاف - 2)

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سألت اللّه أن لا يبعث على أمتى عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ، وأخبرنى جبريل أنّ فناء أمتى بالسيف» «1» وعن جابر بن عبد اللّه لما نزل مِنْ فَوْقِكُمْ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أعوذ بوجهك» فلما نزل أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ. أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قال «هاتان أهون» «2» ومعنى الآية : الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. والضمير في قوله وَكَذَّبَ بِهِ راجع إلى العذاب وَهُوَ الْحَقُّ أى لا بدّ أن ينزل بهم قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ بحفيظ وكل إلىَّ أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً ، إنما أنا منذر لِكُلِّ نَبَإٍ لكل شيء ينبأ به ، يعنى إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به مُسْتَقَرٌّ وقت استقرار وحصول لا بدّ منه. وقيل : الضمير في بِهِ للقرآن.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 68 إلى 69]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(69)

يَخُوضُونَ فِي آياتِنا في الاستهزاء بها والطعن فيها ، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ فلا تجالسهم وقم عنهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهى عن مجالستهم «3»

(1). كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. فروى ابن مردويه من حديث عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال «لما نزلت هذه الآية قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية قال : فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم فتوضأ ثم قال : اللهم لا ترسل على أمتى عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعا. فأتاه جبريل. فقال : يا محمد إن اللّه قد أجار أمتك أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم» وله شواهد : منها في مسلم عن سعد مرفوعا «سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها» وعند مسلم من حديث ثوبان مطولا. وعند عبد الرزاق من حديث شداد بن أوس مطولا أيضا وفي الموطأ عن ابن عمر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «دعا لأمته أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيها ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها» ولابن ماجة من حديث معاذ نحو حديث سعد والنسائي من حديث أنس نحوه وللترمذي من حديث خباب بن الأرت نحوه ، وعند أحمد من حديث أبى بصرة الغفاري نحوه وفي الطبراني من حديث ابن عباس ، وقوله «أن فناء أمتى بالسيف» رواه من حديث
(2). أخرجه البخاري من حديث جابر
(3). قال محمود : «معناه وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهى ... الخ» قال أحمد : وهذا التأويل الثاني يروم تنزيله على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل ، كمجالسته المستهزئين فان قبحها بين العقل فهو مستقل بتحريمها ، وحيث ورد الشرع بذلك فهو كاشف لحكمها ومبنية عليه ، لا منشئ فيها حكما. وقد علمت فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية ، على أن الآية تنبو عنه فانه لو كان النسيان المراد هاهنا نسيان الحكم الذي يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهى ، لما عبر بالمستقبل في قوله وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ فأما وقد ورد بصيغة الاستقبال فلا وجه لحمله على الماضي ، واللّه الموفق.

فَلا تَقْعُدْ معهم بَعْدَ الذِّكْرى بعد أن تذكر النهى. وقرئ : ينسينك. بالتشديد.

ويجوز أن يراد : وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهى «1» قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم وَلكِنْ عليهم أن يذكروهم ذِكْرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم ، وموعظتهم لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم. ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون ، أى يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها. وروى أن المسلمين قالوا : لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف ، فرخص لهم. فإن قلت : ما محل ذِكْرى ؟ قلت : يجوز أن يكون نصباً على : ولكن يذكرونهم ذكرى ، أى تذكيراً. ورفعا على : ولكن عليهم ذكرى.

ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل مِنْ شَيْءٍ ، كقولك : ما في الدار من أحد ولكن زيد ، لأنّ قوله مِنْ حِسابِهِمْ يأبى ذلك.

[سورة الأنعام (6) : آية 70]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً أى دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً. وذلك أن عبدة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك ، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة ، ومن جنس الهزل دون الجد. واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم. أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً ، حيث سخروا به واستهزؤا.

(1). قوله «كان الشيطان ينسينك قبل النهى» بناء على أن هناك حكما قبل الشرع وهو مذهب المعتزلة ، ولا حكم قبل الشرع عند أهل السنة. (ع)

وقيل : جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً ، غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى «ذرهم» اعرض عنهم ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم وَذَكِّرْ بِهِ أى بالقرآن أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها. وأصل الإبسال المنع ، لأن المسلم إليه يمنع المسلم ، قال :

وإبسالى بنىَّ بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق «1»

ومنه : هذا عليك بسل ، أى حرام محظور. والباسل : الشجاع لامتناعه من قرنه ، أو لأنه شديد البسور. يقال : بسر الرجل إذا اشتدّ عبوسه ، فإذا زاد قالوا : بسل. والعابس : منقبض الوجه وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها وإن تفد كل فداء ، والعدل الفدية «2» لأن الفادي يعدل المفدى بمثله. وكلّ عدل : نصب على المصدر. وفاعل يُؤْخَذْ قوله مِنْها لا ضمير العدل لأنّ العدل هاهنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله تعالى وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ فبمعنى المفدىّ به ، فصحّ إسناده إليه أُولئِكَ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً. قيل : نزلت في أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان «3».

[سورة الأنعام (6) : آية 71]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)

(1). لعوف بن الأحوص الباهلي. والابسال : التسليم للباسل أى الشجاع المانع العابس. والبعو : بالعين المهملة - الجناية. يتحسر على تسليم أبنائه لبنى قشير رهنا في دم رجل منهم اسمه أبو الصحيفة ، بغير جرم : أى ذنب جنيناه أنا وأولادى ، ولا بدم مراق أى مسال منا ، كناية عن القتل.

(2). قال محمود : «معناه وإن تفد كل فداء والعدل الفدية ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من عيون إعرابه ونكت إغرابه التي طالما ذهل عنها غيره ، وهو من جنس تدقيقه في منع عود الضمير من قوله فَتَنْفُخُ فِيها إلى الهيئة من قوله كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ مع أنه السابق إلى الذهن ، وإنما حمله على القول بأن العدل هاهنا مصدر أن الفعل تعدى إليه بغير واسطة ، ولو كان المراد المفدى به لكان مفعولا به ، فلم يتعد إليه الفعل إلا بالباء ، وكان وجه الكلام : وإن تعدل بكل عدل ، فلما عدل عنه علم أنه مصدر ، والله أعلم.

(3). قال محمود : «نزلت في أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان ... الخ» قال أحمد : ومن أنكر الجن واستيلاءها على بعض الأناسى بقدرة الله تعالى حتى يحدث من ذلك الخبطة والصرع ونحوهما ، فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي ، حيران له أصحاب من الموحدين يدعونه إلى الهدى الشرعي ائتنا ، وهو راكب في ضلالة التعاسيف لا يلوى عليهم ولا يلتفت إليهم ، فمرة يقول : إن الوارد في الشرع من ذلك تخييل ، كما تقدم في سورة البقرة. ومرة يعده من زعمات العرب وزخارفها. وقد أسلفنا ذلك في البقرة وآل عمران قولا شافيا بليغا ، فجدد به عهداً ، والله الموفق.

قُلْ أَنَدْعُوا أنعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ الضارّ النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان فِي الْأَرْضِ المهمه «1» حَيْرانَ تائهاً ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع لَهُ أى لهذا المستهوى أَصْحابٌ رفقة

يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى إلى أن يهدوه الطريق المستوى. أو سمى الطريق المستقيم بالهدى ، يقولون له ائْتِنا وقد اعتسف المهمه تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده : أن الجنّ تستهوى الإنسان ، والغيلان تستولى عليه ، كقوله الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ فشبه الضالّ عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ وهو الإسلام هُوَ الْهُدى وحده وما وراءه ، ضلال وغىّ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً. فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ. فإن قلت : فما محل الكاف في قوله كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ؟ قلت النصب على الحال من الضمير في نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا أى : أننكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت : ما معنى اسْتَهْوَتْهُ؟ قلت : هو استفعال ، من هوى في الأرض إذا ذهب فيها ، كأن معناه : طلبت هويه وحرصت عليه. فإن قلت : ما محل أُمِرْنا قلت : النصب عطفاً على محل قوله إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى على أنهما مقولان ، كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم. فإن قلت : ما معنى اللام في لِنُسْلِمَ؟ قلت : هي تعليل للأمر ، بمعنى : أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم. فإن قلت : فإذا كان هذا وارداً في شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه «2» فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعوا؟

(1). قوله «الأرض المهمه» أى المفازة المتسعة. أفاده الصحاح. (ع)
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت إذا كان هذا وارداً في أبى بكر فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الخ؟ قال أحمد : هو مبنى على أن الأمر هو الارادة ، أو من لوازمه إرادة المأمور به ، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا. وأما أهل السنة فكما علمت أن الأمر عندهم غير الارادة ولا يستلزمها.
وقولهم في هذه اللام كقولهم وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ من نفى كونها تعليلا. والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات وأزيحت عنهم العلل وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً لحضهم على الامتثال ولقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك ، وما شأن المريد للشيء إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل ويرفع الموانع ، وكذلك فعل مع المكلفين وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم ، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر كما يقول الزجاج : تقديره الأمر للإسلام وكذلك يقول في قوله تعالى يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ الارادة للبيان وهي اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك: لزيد ضربت ، فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل. وقد قيل إنها بمعنى أن كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل. وكى ولام كى في أمرت وأردت خاصة ، بمعنى «أن» لا على بابها من التعليل. والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق وأبلغ ، إذ لا يتعلق هذان المعنيان - أعنى الأمر والارادة - إلا بمستقبل ، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكى وأن ، في قوله أردت لكيما أن يطير ... «البيت» وهذا الوجه أيضا سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري ، والمحافظة على العقيدة. وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متعينة ، والله الموفق.

قلت : للاتحاد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، خصوصاً بينه وبين الصديق أبى بكر رضى الله تعالى عنه.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 72 إلى 73]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

فإن قلت : علام عطف قوله وَأَنْ أَقِيمُوا «1»؟ قلت : على موضع لِنُسْلِمَ كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، وأن أقيموا. ويجوز أن يكون التقدير : وأمرنا لأن نسلم ، ولأن أقيموا : أى للإسلام ولإقامة الصلاة قَوْلُهُ الْحَقُّ مبتدأ. ويوم يقول : خبره مقدّما عليه ، وانتصابه بمعنى الاستقراء ، كقولك : يوم الجمعة القتال. واليوم بمعنى الحين. والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء كُنْ فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة ، أى لا يكون شيأ من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب. وَيَوْمَ يُنْفَخُ ظرف لقوله وَلَهُ الْمُلْكُ كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ ويجوز أن يكون قَوْلُهُ الْحَقُّ فاعل يكون ، على معنى : وحين يقول لقوله الحق ، أى لقضائه الحق كُنْ فيكون قوله الحق. وانتصاب اليوم لمحذوف»

دلّ عليه قوله بِالْحَقِّ كأنه قيل : وحين يكوّن ويقدّر يقوم بالحق عالِمُ الْغَيْبِ هو عالم الغيب ، وارتفاعه على المدح.

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت علام عطف قوله : وأن أقيموا ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا مصداق القول بأن لنسلم معناه أن نسلم ، وأن اللام فيه رديفة «أن» لا يراد عطفها عليها ، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله.
وفي ورود أَقِيمُوا الصَّلاةَ محكيا بصيغته ، وورود «نسلم» محكيا بمعناه ، إذ الأصل المطابق لأقيموا : أسلموا ، مصداق لما قدمته عند قوله تعالى ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وبينت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى : اعبدوا الله ربكم ورب عيسى بمعناه فقال : اعبدوا الله ربى وربكم ، فهذا مثله حكاية المعنى دون اللفظ ، والله أعلم.
(2). قوله «لمحذوف» لعله «بمحذوف». (ع)

[سورة الأنعام (6) : الآيات 74 إلى 79]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78)

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

آزَرَ اسم أبى إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية تارح. والأقرب أن يكون وزن آزَرَ فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم ، وهو عطف بيان لأبيه. وقرئ «آزر» بالضم على النداء. وقيل «آزر» اسم صنم ، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته ، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهنّ ، فقيل ابن قيس الرقيات. وفي شعر بعض المحدثين :

أدعى بأسماء نبزا في قبائلها كأن أسماء أضحت بعد أسمائى «1»

أو أريد عابد آزر ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ ءأزر تتخذ أصناما آلهة بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاى ساكنة وراء منصوبة منونة ، وهو اسم صنم. ومعناه : أتعبد آزراً على الإنكار؟ ثم قال : تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا ، وهو داخل في حكم الإنكار ، لأنه كالبيان له فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ عطف على قال إبراهيم لأبيه «2»

(1). يقول : ينادوننى بلفظ «أسماء» شتما لي بين قبائلها : أى قبائل المحبوبة. ففيه استخدام. كأن أسماء ، أى هذا اللفظ ، أضحت : أى صارت بعض أسمائى. وأصل أسماء عند سيبويه : وسماء ، من الوسامة وهي الحسن والجمال. قلبت واوه همزة على غير قياس. كما في أحد. وعند المبرد جمع اسم. وبين أسماء وأسمائى الجناس التام.
وعلى اعتبار ياء المتكلم فهو من الناقص.
(2). قال محمود : «قوله فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ عطف على قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ ... الخ» قال أحمد : وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه بما سيأتى من استدلال إبراهيم عليه السلام وأنه تبصير له من الله تعالى وتسديد. [.....]

وقوله وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ملكوت السموات والأرض : يعنى الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحا صدره وسدّدنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال.

وليكون من الموقنين : فعلنا ذلك. ونرى : حكاية حال ماضية ، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب «1» ، فأراد أن ينبههم على الخطإ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيأ منها لا يصح أن يكون إلها ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثا أحدثها ، وصانعا صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها هذا رَبِّي قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ، المتنقلين من مكان إلى مكان ، المحتجبين بستر ، فإنّ ذلك من صفات الأجرام بازِغاً مبتدئا في الطلوع لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأفول ، فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه هذا أَكْبَرُ من باب استعمال النصفة «2» أيضاً مع خصومه إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أى للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل : هذا كان نظره واستدلاله في نفسه ، فحكاه الله.

(1). عاد كلامه قال : «و كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ... الخ» قال أحمد : والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولا لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ إنما ترقى إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليه الاستدلال الأول حجة ، فأنسوا بالقدح في معتقدهم. ولو قيل هذا في الأول ، فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فما عرض صلوات الله عليهم بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق باصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره. والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك ، حين قيام الحجة عليهم وتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود ، والله أعلم.
(2). عاد كلامه. قال : و«قوله هذا أَكْبَرُ من باب استعمال النصفة أيضاً مع الخصوم ... الخ» قال أحمد :

وصدق الزمخشري ، بل ذلك متعين. وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسي نفسي لا أسأل أحداً غيرى ، ويذكر كذباته الثلاث ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة «هي أختى» وإنما عنى في الإسلام. وقوله «إنه سقيم» وإنما عنى همه بقومه وبشركهم ، والمؤمن يبقمه ذلك. وقوله «بل فعله كبيرهم» وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض ، فإذا عد صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه ، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام محكي عنه على أنه نظر لنفسه ، لكان أولى أن يعده أعظم مما ذكرناه لأنه حينئذ يكون شكا بل جزما ، على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك.

والأوّل أظهر ، لقوله لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي وقوله يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. فإن قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ «1» ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت : الاحتجاج بالأفول أظهر ، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب. فإن قلت : ما وجه التذكير في قوله هذا رَبِّي والإشارة للشمس؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد ، كقولهم : ما جاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله «علام» ولم يقولوا «علامة» وإن كان العلامة أبلغ ، احترازا من علامة التأنيث. وقرئ : ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، بالتاء ورفع الملكوت. ومعناه : تبصره دلائل الربوبية.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 80 إلى 90]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (90)

---

(1). عاد كلامه. قال : فان قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال ... الخ» قال أحمد : وهذه أيضاً من عيون نكتة ووجوه حسناته.

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك وَقَدْ هَدانِ يعنى إلى التوحيد وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ وقد خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً إلا وقت مشيئة ربى «1» شيئاً يخاف ، فحذف الوقت ، يعنى لا أخاف معبوداتكم في وقت قط ، لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة ، إلا إذا شاء ربى أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنبا أستوجب به إنزال المكروه ، مثل أن يرجمنى بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر ، أو يجعلها قادرة على مضرتى وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بى من جهتها أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز وَكَيْفَ أَخافُ لتخويفكم شيئا مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه وَأنتم لا تَخافُونَ ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم ينزل باشراكه سُلْطاناً أى حجة ، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة ، كأنه قال : وما لكم تنكرون علىّ الأمن «2» في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ، احترازاً من تزكيته نفسه ، فعدل عنه إلى قوله فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ يعنى فريقى المشركين والموحدين.

---

(1). قال محمود : «إِلَّا أَنْ يَشاءَ معناه إلا وقت مشيئة ربى شيئاً فحذف الوقت ... الخ» قال أحمد : هو بمعنى يجعلها قادرة ، على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة لمن يريد ، بناء على قاعدته. وقد علمت أن عقيدة أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلا أن يخلق غير الله ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقدور إلا هو ، وإن كان الزمخشري لم يصرح هاهنا من عقيدته ، فإنما يعنى حيث يصرح أو يكنى ما يلائمها ويتنزل عليها ، وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى لأنها. وكأنه في الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذي أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلامه خوف منها ، والله أعلم.

(2). عاد كلامه. قال : «و معنى وكيف أخاف ما أشركتم ... الخ» ما لكم تنكرون على الأمن ... الخ» قال أحمد : ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك ليعم بالأمن كل موحد ، وبالخوف كل مشرك ، ويندرج هو في حكم الموحدين وقومه في حكم المشركين. وأحسن الجواب ما أفاد وزاد.

ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم «1». وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس وَتِلْكَ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ إلى قوله وَهُمْ مُهْتَدُونَ. ومعنى آتَيْناها أرشدناه إليها ووفقناه لها نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ يعنى في العلم والحكمة. وقرئ بالتنوين وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ الضمير لنوح أو لإبراهيم. وداوُدَ عطف على نوحا ، أى وهدينا داود وَمِنْ آبائِهِمْ في موضع النصب عطفاً على كلا ، بمعنى : وفضلنا بعض آبائهم وَلَوْ أَشْرَكُوا مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات. لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم ، كما قال تعالى وتقدّس لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ. آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يريد الجنس فَإِنْ يَكْفُرْ بِها بالكتاب والحكمة والنبوّة. أو بالنبوّة هؤُلاءِ يعنى أهل مكة قَوْماً هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم ، بدليل قوله أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ وبدليل وصل قوله فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ بما قبله. وقيل : هم أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم وكل من آمن به. وقيل : كل مؤمن من بنى آدم. وقيل : الملائكة وادّعى الأنصار أنها لهم. وعن مجاهد : هم الفرس. ومعنى توكيلهم بها : أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في بِها صلة كافرين. وفي بِكافِرِينَ تأكيد النفي. فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فاختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان باللّه وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع ، فإنها مختلفة وهي هدى ، ما لم تنسخ. فإذا نسخت لم تبق هدى ، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدا. والهاء في اقْتَدِهْ للوقف تسقط في الدرج. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف [سورة الأنعام (6) : آية 91]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

(1). قال محمود : «و المراد بقوله وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس» قال أحمد : وقد وارد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه.
فقال عليه الصلاة والسلام «إنما هو الظلم في قول لقمان : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم في الأمن كالكفار ، ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمر بالجامعين الأمرين : الايمان والبراءة من المعاصي ، ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق العصاة هو الخوف اللاحق الكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود. وأما الكفار ، فغير آمنين بوجه ما ، واللّه الموفق.

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم ، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم ، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة. والقائلون هم اليهود ، بدليل قراءة من قرأ : تَجْعَلُونَهُ بالتاء. وكذلك تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم «1» سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم ، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل : جاءَ بِهِ مُوسى وهو نور وهدى للناس ، حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنّ اللّه يبغض الحبر السمين؟ فأنت الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود «2». فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل اللّه على بشر من شيء ، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال : إنه أغضبنى ، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف.

وقيل القائلون قريش «3» وقد ألزموا إنزال التوراة ، لأنهم كانوا يسماعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة ، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ الخطاب لليهود ، أى علمتم على لسان محمد صلى اللّه عليه وسلم مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ، كقوله تعالى : لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم. قُلِ اللَّهُ أى أنزله اللّه ، فإنهم لا يقدرون أن ينا كروك ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ في باطلهم الذي يخوضون فيه ، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب. ويَلْعَبُونَ حال من ذرهم ، أو من خوضهم ، ويجوز أن يكون فِي خَوْضِهِمْ حالا من يلعبون ، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم.

(1). قال محمود : «و أدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في آثار معادنه ، وإبراز محاسنه.

(2). أخرجه الواحدي في الأسباب من طريق سعيد بن جبير «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمالك بن الصيف فذكره إلى قوله - فغضب ثم قال : ما أنزل الله على بشر من شي ء» وكذلك أخرجه الطبري من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير.
(3). قوله «و قيل القائلون قريش» أخرجه الطبري عن مجاهد.

[سورة الأنعام (6) : آية 92]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

مُبارَكٌ كثير المنافع والفوائد والتنذير معطوف على ما دلّ عليه صفة الكتاب ، كأنه قيل : أو أنزلناه للبركات ، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وقرئ ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة أُمَّ الْقُرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأناً لبعض المجاورين :

فمن يلق في بعض القريّات رحله فأمّ القرى ملقى رحالي ومنتابى «1»

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يصدّقون بالعاقبة ويخافونها يُؤْمِنُونَ بهذا الكتاب. وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة لأنها عماد الدين. ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها.

[سورة الأنعام (6) : آية 93]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أن الله بعثه نبياً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب. أو كذاب صنعاء الأسود العنسي. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدىّ سوارين من ذهب فكبرا علىّ وأهمانى فأوحى الله إلىّ أن انفخهما ، فنفختهما فطارا عني ، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما : كذاب اليمامة مسيلمة ، وكذاب صنعاء الأسود العنسي «2» وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشي ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليما ، كتب هو : عليما حكيما.

(1). للزمخشري يفتخر بمكة وسكانها. والقريات - بالتشديد - : للتصغير. ورحل الشخص مسكنه ولو من شعر ، أى : فمن يلق رحله في بعض القرى الصغيرة. فلا فخر له على ، فان مكة محط رحالي ومنتابى ، أى محل انتيابى أى دخولى فيها توبة بعد أخرى ، وإلقاء الرحل : كناية عن الاقامة ، لأنها تلزمه عرفا. وملقى على زنة اسم المفعول اسم لمكان الإلقاء ، كمتاب لمكان الانتياب.
(2). متفق عليه من حديث ابن عباس.

وإذا قال عليما حكيما ، كتب : غفورا رحيما. فلما نزلت وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ إلى آخر الآية ، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان : فقال تبارك الله أحسن الخالقين. فقال عليه الصلاة والسلام اكتبها : فكذلك نزلت ، فشك عبد الله وقال : لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحى إلىّ مثل ما أوحى إليه. ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال ، فارتدّ عن الإسلام ولحق بمكة ، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة «1». وقيل : هو النضر بن الحرث والمستهزءون وَلَوْ تَرى جوابه محذوف ، أى رأيت أمراً عظيما إِذِ الظَّالِمُونَ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة ، فتكون اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. وغَمَراتِ الْمَوْتِ شدائده وسكراته ، وأصل الغمرة : ما يغمر من الماء «2» فاستعيرت للشدّة الغالبة باسِطُوا أَيْدِيهِمْ يبسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم. وهذه عبارة عن العنف في السياق ، والإلحاح ، والتشديد في الإرهاق ، من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخر إلىّ مالى عليك الساعة ، ولا أريم «3» مكاني ، حتى أنزعه من أحداقك. وقيل. معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب «4» أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ خلصوها من أيدينا ، أى لا تقدرون على الخلاص الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع ، وأن يريدوا الوقت الممتدّ المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة.

(1). أخرجه الواحدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس إلى قوله «فارتد عن الإسلام» وقد رواه الطبري مختصرا من رواية أسباط عن السدي من قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً - الآية قال :
نزلت في عبد الله بن سعد بن أبى سرح. أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعا عليما كتب هو عليما حكيما وإذا قال عليما حكيما كتب سميعا عليما. فشك وكفر ، وقال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلى ، وإن كان الله ينزله فلقد أنزلت مثل ما أنزل الله. فلحق بالمشركين «تنبيه» قوله القرطبي غلط بين فان ابن أبى سرح قرشي عامرى. قوله «ثم رجع مسلما قبل فتح مكة. قوله وقيل : هو النضر بن الحارث «فائدة» روى أن هذه القصة كانت لابن خطل. أخرج ابن عدى في ترجمة أصرم بن حوشب أحد المتروكين من حديث على ، قال «كان ابن خطل يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل غفور رحيم كتب رحيم غفور - فذكر الحديث.
وفيه : ثم كفر ولحق بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من قتل ابن خطل فله الجنة» وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. ونقل عن ابن معين تكذيب أصرم.
(2). قال محمود : «أصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة ... الخ» قال أحمد : هو يجعله من مجاز التمثيل ، ولا حاجة إلى ذلك. والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية ، وإذا أمكن البقاء على لحقيقة فلا معدل عنها.
(3). قوله «و لا أريم مكاني» أى أبرح. وفي الصحاح : رامه يريمه أى برحه. (ع) [.....]
(4). عاد كلامه. قال : «و قيل معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب ... الخ» قال أحمد : ومثله وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ.

والهون : الهوان الشديد ، وإضافة العذاب إليه كقولك : رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ فلا تؤمنون بها.

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

فُرادى منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه ، وآثرتموه من دنياكم ، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاء للّه كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة وَراءَ ظُهُورِكُمْ لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدّمتموه لأنفسكم فِيكُمْ شُرَكاءُ في استعبادكم ، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها ، فقد جعلوها للّه شركاء فيهم وفي استعبادهم.

وقرئ : فرادى ، بالتنوين. وفراد ، مثل ثلاث. وفردي ، نحو سكرى : فإن قلت : كما خلقناكم ، في أى محل هو؟ قلت : في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا ، أى مجيئا مثل خلقنا لكم تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وقع التقطع بينكم ، كما تقول : جمع بين الشيئين ، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل : ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف ، كما تقول : قوتل خلفكم وأمامكم. وفي قراءة عبد الله : لقد تقطع ما بينكم.

[سورة الأنعام (6) : آية 95]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95)

فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى بالنبات والشجر. وعن مجاهد : أراد الشقين الذين في النواة والحنطة يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ أى الحيوان ، والنامي من النطف. والبيض والحب والنوى وَمُخْرِجُ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي - فإن قلت : كيف قال مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ بلفظ اسم الفاعل ، بعد قوله يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى ، لا على الفعل ، ويخرج الحىَّ من الميت : موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين «1» من جنس إخراج الحىّ من الميت ، لأنّ النامي في حكم الحيوان.

(1). قال محمود : «معناه فالق الحب والنوى بالنبات والشجر ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ وقوله أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ عطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أنهما توأمان مقرونان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه ورده إلى فالق الحب والنوى ، فالوجه - والله أعلم - أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله فالِقُ الْحَبِّ وفالِقُ الْإِصْباحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع ، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضي.
وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً فعدل عن الماضي المطابق لقوله أَنْزَلَ لهذا المعنى. ومنه ما في قوله :

إنى قد لقيت الغول تسعى بسبب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربه فخرت صريعا اليدين وللجران
فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذعن السامع. ومنه إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً فعدل عن مسبحات وإن كان مطابقا لمحشورة بهذا السبب والله أعلم ، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة من عكسه ، وهو أيضا أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ، ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه ، فكان الأول جديراً بالتصدير والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبدا على القسم الآخر في الذكر على حسب ترتيبهما في الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل ، وحسنه أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع «فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه. والله أعلم.

ألا ترى إلى قوله يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، ذلِكُمُ اللَّهُ أى ذلكم المحيي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

[سورة الأنعام (6) : آية 96]

فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

الْإِصْباحِ مصدر سمى به الصبح. وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله :

أفنى رباحا وبنى رباح تناسخ الإمساء والإصباح «1»

بالكسر والفتح مصدرين ، وجمع مساء وصبح. فإن قلت : فما معنى فلق الصبح ، والظلمة «2» هي التي تنفلق عن الصبح ، كما قال :

(1). «رباح» أبو حى من ير نوع ، ثم صار اسما للحي. وروى بالتحتية بدل الموحدة. والإمساء والإصباح : يرويان بكسر الهمزة على أنهما مصدران ، وبفتحهما جمع مساء وصباح. وظلام الليل ينسخ نور النهار ويزيله وبالعكس. وإسناد الافناء إلى التناسخ مجاز عقلى ، من باب الاسناد الزمان ، أو هو على اعتقاد الجاهلية فيكون حقيقة عندهم.
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت ما معنى فلق الصبح والظلمة وهي التي تنفلق ... الخ»؟ قال أحمد : وقيل الخالق والفالق بمعنى ، فيكون المراد خالق الإصباح. والأظهر ما فسره عليه المصنف ، والله أعلم.

تردّت به ثمّ انفرى عن أديمها تفرّى ليل عن بياض نهار «1»

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد فالق ظلمة الإصباح ، وهي الغبش في آخر الليل ، ومنقضاه الذي يلي الصبح. والثاني : أن يراد فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره. وقالوا : انشق عمود الفجر. وانصدع الفجر. وسموا الفجر فلقا بمعنى مفلوق.

وقال الطائي :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأوّل الغيث قطر ثمّ ينسكب «2»

وقرئ : فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، بالنصب على المدح. وقرأ النخعي : فلق الإصباح وجعل الليل. والسكن : ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحاً إليه ، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار : سكن، لأنه يستأنس بها. ألا تراهم سموها المؤنسة ، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه «3». ويجوز أن يراد : وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله لتسكنوا فيه وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ قرئا بالحركات الثلاث ، فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ،

(1) كأن بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب في سواد عذار
تردت به ثم انفرى عن أديمها تفرى ليل عن بياض نهار
لأبى نواس يصف الخمرة. يقول : كأن بقايا الذي هلك وذهب من فقاقعها شيب أبيض متفرق في عذار أسود ، لأن كلا منهما أبيض منتشر فيما يخالف لونه ، ولا يلزم من ذلك أنها سوداء كما يدل عليه ما بعده ، ثم قال : تردت ، أى استترت بالحباب ، فالتردى : استعارة التستر ، ثم انفرى : انشق وزال عن أديمها أى وجهها كتفرى الليل وانشقاق ظلامه عن بياض النهار ، والجامع استتار كل بغيرها ، ثم ظهوره بتفرق ذلك الغير فهو مركب. ولا يلزم من ذلك أن الحباب أسود كالليل ، والخمرة بيضاء كالنهار ، وانظر كيف خيل أنه في الأول أبيض وفي الثاني أسود وهي بالعكس. وهذا من العجب الداعي للطرب. وفيه أنه يرى في الأول أبيض معجبا ، ثم تعرض عنه النفس وتريد الخمرة ، فيتخيل أنه مظلم ، ثم ينكشف وتظهر هي بيضاء ترهقها صفرة ، كالسماء وقت الاسفار.
(2) هذى مخايل برق خلفه مطر جود وورى زناد خلفه لهب

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب
لأبى تمام. وقيل للبحترى. و«مخايل» أضواء تتخيلها ، أو تخيل إلينا المطر بعدها. والجود - في الأصل - جمع جائد ، كصحب وصاحب ، وهو الكثير النافع. والورى : قدح الزند ، والزناد جمعه ، ككلب وكلاب ، وقد يكون مفرداً ككتاب. يقول : إن أوائل الأمور تبدو قليلة ثم تكثر ، فينبغي الحرص من أول الأمر قبل بلوغه غايته فيكثر الضرر ويعسر درؤه ، أو المعنى أنه ينبغي التأنى إلى بلوغ المراد ، فالكلام كله من باب التمثيل. وروى
وكاذب العمر يبدو قبل صادقه
وروى بعد هذا البيت :
ومثل ذلك وجد العاشقين هوى بالمزح يبدو وبالادمان ينتهب
ونسبا لابن الرومي ، أى الوجد في أوله هوى وفي آخره نار ، والإدمان : الادامة.
(3). قوله «و جمامه» أى راحته من التعب. وفي الصحاح «الجمام» بالفتح - : الراحة. (ع)

أى وجعل الشمس والقمر حسباناً. أو يعطفان على محل الليل. فإن قلت كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية ، لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضىّ ، ولا تقول : زيد ضارب عمرا أمس؟ قلت : ما هو في معنى المضىّ ، وإنما هو دال على جعل مستمرّ في الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب ، وفالق الإصباح ، كما تقول: اللّه قادر عالم ، فلا تقصد زماناً دون زمان ، والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والشمس والقمر مجعولان حسباناً ، أو محسوبان حسباناً. ومعنى جعل الشمس والقمر حسباناً : جعلهما على حسبان ، لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحسبان - بالضم - : مصدر حسب ، كما أنّ الحسبان - بالكسر - مصدر حسب. ونظيره الكفران والشكران ذلِكَ إشارة إلى جعلهما حسبانا ، أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الذي قهرهما وسخرهما الْعَلِيمِ بتدبيرهما وتدويرهما.

[سورة الأنعام (6) : آية 97]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97)

فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ في ظلمات الليل بالبر والبحر ، وأضافها إليهما لملابستها لهما ، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات.

[سورة الأنعام (6) : آية 98]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

من فتح قاف المستقر ، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدراً. ومن كسرها ، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول. والمعنى : فلكم مستقرّ في الرحم. ومستودع في الصلب ، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها. أو فمنكم مستقرّ ومنكم مستودع. فإن قلت : لم قيل يَعْلَمُونَ مع ذكر النجوم «1» ويَفْقَهُونَ مع ذكر إنشاء بنى آدم؟ قلت كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له.

(1). قال محمود : «إن قلت لم قيل مع ذكر النجوم يعلمون ... الخ» قال أحمد : لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة ، وما هذا الجواب إلا صناعى. والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ ، لما في ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسينا للنظم واتساقا في البلاغة. ويحتمل وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه ، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات اللّه ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآية المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الالهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة وتقلباتهم في أطوار مختلفة وأحوال متغايرة ، فانه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها ، فإذا تمهد ذلك. فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا ، ويفقهون هاهنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف إذا فهمه ولو أدنى فهم ، وليس من فقه بضم القاف ، لأن تلك درجة عالية. ومعناه : صار فقيها. قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم. وفي حديث سلمان أنه قال - وقد سألته امرأة جاءته - : فقهت ، أى فهمت ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه.
وإذا قيل فلان لا يفقه شيئا ، كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئا ، وكان معنى قولك : لا يفقه شيئا ليست له أهلية الفهم وإن فهم. وأما قولك : لا يعلم ، فغايته نفى حصول العلم له. وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم. والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة في غيره قوله تعالى وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ
فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفا. وقولنا في أدراج الكلام أنه نفى العلم عن أحد الفريقين ونفى الفقه عن الآخر ، يعنى بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة والتفقه

فيها بقوم ، فأشعر أن قوما غيرهم لا علم عندهم ولا فقه ، واللّه الموفق. فتأمل هذا الفصل وإن طال بعض الطول ، فالنظر في الحسن غير مملول.

[سورة الأنعام (6) : آية 99]

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

فَأَخْرَجْنا بِهِ بالماء نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ نبت كل صنف من أصناف النامي ، يعنى أن السبب واحد وهو الماء. والمسببات صنوف مفتنة ، كما قال يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ. فَأَخْرَجْنا مِنْهُ من النبات خَضِراً شيئاً غضا أخضر. يقال أخضر وخضر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة نُخْرِجُ مِنْهُ من الخضر حَبًّا مُتَراكِباً وهو السنبل. وقِنْوانٌ رفع بالابتداء. ومِنَ النَّخْلِ خبره. ومِنْ طَلْعِها بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان. ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه، تقديره : ومخرجة من طلع النخل قنوان. ومن قرأ : يخرج منه حب متراكب ، كان قِنْوانٌ عنده معطوفا على حب. والقنوان : جمع قنو ، ونظيره : صنو وصنوان. وقرئ بضم القاف وبفتحها ، على أنه اسم جمع كركب ، لأنّ فعلان ليس من زيادة التكسير دانِيَةٌ سهلة المجتنى معرضة للقاطف ، كالشىء الداني القريب المتناول ، ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتى بالثمر لا تنتظر الطول. وقال الحسن : دانية قريب بعضها من بعض. وقيل : ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة : لأنّ النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة ، كقوله سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ. وقوله وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد : وثم جنات من أعناب ، أى مع النخل. والثاني : أن يعطف على قِنْوانٌ على معنى : وحاصلة ، أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب ، أى من نبات أعناب ، وقرئ وَجَنَّاتٍ بالنصب عطفاً على نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أى : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص ، كقوله وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ لفضل هذين الصنفين مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ يقال اشتبه الشيئان وتشابها ، كقولك استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وقرئ : متشابها وغير متشابه. وتقديره : والزيتون متشابها وغير متشابه ، والرمّان كذلك كقوله : كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدَيَّ بَرِيّا

والمعنى : بعضه متشابها وبعضه غير متشابه ، في القدر واللون والطعم. وذلك دليل على التعمد دون الإهمال انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال. وقرئ وَيَنْعِهِ بالضم. يقال : ينعت الثمرة ينعاً وينعاً. وقرأ ابن محيصن : ويانعه. وقرئ : وثمره ، بالضم.

[سورة الأنعام (6) : آية 100]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

إن جعلت لِلَّهِ شُرَكاءَ مفعولي جعلوا ، نصبت الجن بدلا من شركاء ، وإن جعلت لِلَّهِ لغوا كان شُرَكاءَ الْجِنَّ مفعولين قدّم ثانيهما على الأول. فإن قلت : فما فائدة التقديم؟ قلت : فائدته استعظام أن يتخذ للّه شريك مَن كان ملكا أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم اللّه على الشركاء. وقرئ الجن بالرفع ، كأنه قيل : من هم؟ فقيل : الجن. وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين. والمعنى أشركوهم في عبادته ، لأنهم أطاعوهم كما يطاع اللّه. وقيل : هم الذين زعموا أنّ اللّه خالق الخير وكل نافع ، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ وَخَلَقَهُمْ وخلق الجاعلين للّه شركاء. ومعناه : وعلموا أن اللّه خالقهم دون الجن ، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكا للخالق. وقيل : الضمير للجن. وقرئ : وخلقهم ، أى اختلاقهم الإفك ، يعنى : وجعلوا للّه خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى اللّه في قولهم وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها ، وَخَرَقُوا لَهُ وخلقوا له ، أى افتعلوا له بَنِينَ وَبَناتٍ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير ، وقول قريش في الملائكة يقال : خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه ، بمعنى : وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها : كان الرجل إذا كذب كذبة في نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقها واللّه ، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه ، أى اشتقوا له بنين وبنات ، وقرئ : وخرّقوا بالتشديد للتكثير ، لقوله بَنِينَ وَبَناتٍ وقرأ ابن عمر وابن عباس رضى اللّه عنهما : وحرّفوا له ، بمعنى : وزوّروا له أولاداً لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل بِغَيْرِ عِلْمٍ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة. من غير فكر وروية.

[سورة الأنعام (6) : آية 101]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

بَدِيعُ السَّماواتِ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، كقولك : فلان بديع الشعر ، أى بديع شعره. أو هو بديع في السموات والأرض ، كقولك : فلان ثبت الغدر ، أى ثابت فيه ، والمعنى أنه عديم النظير والمثل فيها. وقيل : البديع بمعنى المبدع ، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ أو فاعل تعالى : وقرئ بالجرّ ردّاً على قوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ أو على سُبْحانَهُ. وبالنصب على المدح ، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأنّ الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والداً. والثاني : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة. والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ : ولم يكن له صاحبة ، بالياء.

وإنما جاز للفصل كقوله :

لَقَدْ وَلَدَ الأُخَيْطِلَ أُمُّ سُوءٍ «1»

(1) لقد ولد الأخيطل أم سوء على باب استه صلب وشام
لجرير يهجو الأخطل. والأخيطل : تصغير الأخطل. وأم سوء - بالاضافة - : فاعل ، فكان حق الفعل التأنيث ، لكن سوغ تركه الفصل بالمفعول. والاست - بوصل الهمزة - الدبر. والصلب : جمع صليب. والشام اسم جمع شامة ، وهي العلامات والنقوش. وكان الأخطل - وهو غياث بن غوث - من نصارى العرب. ويروى «على باب استها» أى الأم. وهو أقعد في المعنى ، وأشنع في هتك الحرمة.

[سورة الأنعام (6) : آية 102]

ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

ذلِكُمْ إشارة إلى الموصف مما تقدم من الصفات ، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أى ذلك الجامع لهذه الصفات فَاعْبُدُوهُ مسبب عن مضمون الجملة على معنى : أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يعنى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال ، رقيب على الأعمال.

[سورة الأنعام (6) : آية 103]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

البصر : هو الجوهر اللطيف «1» الذي ركبه الله في حاسة النظر ، به تدرك المبصرات. فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعال أن يكون مبصراً «2» في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا ، كالأجسام والهيئات وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك وَهُوَ اللَّطِيفُ يلطف عن أن تدركه الأبصار الْخَبِيرُ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.

[سورة الأنعام (6) : آية 104]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

(1). قال محمود : «البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله تعالى في حاسة النظر به تدرك ... الخ» قال أحمد : وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها ، لأن المصنف تعجل الكلام عليها قبل ، والذي يريده الآن أن الإدراك عبارة عن الاحاطة ، ومنه : حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أى أحاط به ، وإِنَّا لَمُدْرَكُونَ أى محاط بنا ، فالمنفى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا لا مجرد الرؤية ، ثم إما أن نقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا ، أو نزيد فنقول ، بدل لنا أن تخصيص الاحاطة بالنفي يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك ، وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول : لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجردها حاصلة لكل مؤمن ، فالاحاطة للعقل منفية كنفى الاحاطة للحس ، وما دون الاحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي.

ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهه ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة إذ اتباع الرهم يبعدهما جميعاً ، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً. وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع ، واللّه الموفق.
(2). قوله «لأنه متعال عن أن يكون مبصراً» استحالة الرؤية مذهب المعتزلة ، لظاهر هذه الآية. وجوازها مذهب أهل السنة لقوله تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ وكل يؤول مستند الآخر. وتحقيقه في التوحيد. (ع)

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ هو وارد على لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لقوله وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أى جاءكم من الوحى ، والتنبيه على ما يجوز على اللّه وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر فَمَنْ أَبْصَرَ الحق وآمن فَلِنَفْسِهِ أبصر وإياها نفع وَمَنْ عَمِيَ عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضرَّ بالعمى وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ، إنما أنا منذر واللّه هو الحفيظ عليكم.

[سورة الأنعام (6) : آية 105]

وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

وَلِيَقُولُوا جوابه محذوف تقديره. وليقولوا درست تصرّفها. ومعنى دَرَسْتَ قرأت وتعلمت. وقرئ : دارست ، أى دارست العلماء. ودرست بمعنى قدّمت هذه الآيات وعفت كما قالوا : أساطير الأولين ، ودرست بضم الراء ، مبالغة في درست ، أى اشتدّ دروسها. ودرست - على البناء للمفعول - بمعنى قرئت أو عفيت. ودارست. وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى اللّه عليه وسلم ، وجاز الإضمار ، لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم. ويجوز أن يكون الفعل للآيات ، وهو لأهلها ، أى دارس أهل الآيات وحملتها محمداً ، وهم أهل الكتاب. ودرس أى درس محمد. ودارسات ، على : هي دارسات ، أى قديمات. أو ذات دروس ، كعيشة راضية. فإن قلت : أى فرق بين اللامين في لِيَقُولُوا ، وَلِنُبَيِّنَهُ؟ قلت : الفرق بينهما أنّ الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، شبه به فسيق مساقه. وقيل : ليقولوا كما قيل لنبينه : فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله وَلِنُبَيِّنَهُ؟ قلت : إلى الآيات لأنها في معنى القرآن ، كأنه قيل : وكذلك نصرف القرآن. أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوما إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل ، كقولهم : ضربته زيداً. ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست : درست الكتاب ودراسته ، فيرجع إلى الكتاب المقدّر.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 106 إلى 107]

اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ اعتراض أكذبه إيجاب اتباع الوحى لا محلّ له من الإعراب. ويجوز أن يكون حالا من ربك ، وهي حال مؤكدة كقوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً.

[سورة الأنعام (6) : آية 108]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108)

وَلا تَسُبُّوا الآلهة الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ لتنتهينّ عن سب آلهتنا أو لنهجونّ إلهك. وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب اللّه تعالى.

فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صحّ النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصي؟

قلت : ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة كالنهى عن المنكر هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدّى إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب النهى عن ذلك النهى. كما يجب النهى عن المنكر. فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا. قلت : ليس هذا ممن نحن بصدده ، لأنّ حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة. وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن.

عَدْواً ظلماً وعدواناً. وقرئ عدوّاً بضم العين وتشديد الواو بمعناه. يقال : هذا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء. وعن ابن كثير : عدوّاً ، بفتح العين بمعنى أعداء بِغَيْرِ عِلْمٍ على جهالة باللّه وبما يجب أن يذكر به كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ مثل ذلك التزيين زينا لكل أمّة من أمم الكفار سوء عملهم ، أو خليناهم وشأنهم «1» ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم : أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم. وقولهم إن اللّه أمرنا بهذا وزينه لنا فَيُنَبِّئُهُمْ فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 109]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109)

لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ من مقترحاتهم لَيُؤْمِنُنَّ بِها ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وهو قادر عليها ،

(1). قوله «أو خليناهم وشأنهم» فسر التزيين بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، ويخلق الشر والخير عند أهل السنة. (ع)

ولكنه لا ينزلها الا على موجب الحكمة «1». أو إنما الآيات عند اللّه لا عندي. فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها وَما يُشْعِرُكُمْ وما يدريكم أَنَّها أن الآية التي تقترحونها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال عزّ وجلّ وما يدريكم أنهم لا يؤمنون ، على معنى أنكم لا تدرون ما سبق على به من أنهم لا يؤمنون به.

ألا ترى إلى قوله كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وقيل : «أنها» بمعنى «لعلها» من قول العرب : ائت السوق أنك تشترى لحماً. وقال امرؤ القيس : عوجا على الطّلل المحيل لأنّنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام «2»

وتقويها قراءة أبىّ : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى : وما يشعركم ما يكون منهم ، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال : أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة.

(1). قال محمود : «يعنى أن اللّه تعالى قادر على أن ينزل الآيات ولكنه لا ينزلها إلا على موجب الحكمة ... الخ» قال أحمد : ومحز النظر في الآية يتضح بمثال ، فنقول : إذا قال لك القائل «أكرم فلانا فانه يكافئك» وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة ، فإذا أنكرت على المشير بإكرامه قلت : وما يدريك أنى إذا أكرمته يكافئنى؟ فأنكرت عليه إثباته المكافأة وأنت تعلم نفيها ، فان انعكس الأمر فقال لك : «لا تكرمه فانه لا يكافئك» وكنت تعلم منه المكافأة فأنكرت على المشير بحرمانه قلت : وما يدريك أنه لا يكافئنى؟ تريد : وأنا أعلم منه المكافأة ، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندين فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال : وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، كما تقول في المثال منكراً على من أثبت المكافأة وأنت تعلم خلافها ، وما يدريكم أنه يكافئنى؟

بإسقاط «لا» وإن أثبتها انعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت وأنت تنكر على من نفى ، فلما جاءت الآية تفهم ببادئ الرأى أن اللّه تعالى علم الايمان منهم وأنكر على المؤمنين نفيهم له والواقع على خلاف ذلك ، اختلف العلماء ، فحمل بعضهم «لا» على الزيادة ، وبعضهم أول «أن» بلعل ، وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف. وقد تفتح «أن» بعد القسم فقال التقدير : واللّه أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وأما الزمخشري فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حذف ولا تأويل فقال قوله السالف ، ونحن نوضح اطراده في المثال المذكور ليتضح بوجهيه في الآية ، فنقول : إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافأته فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، تلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً ، فان أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافئ؟ وإن عذرته في عدم عليه بأنه لا يكافئ قلت : وما يدريك أنه لا يكافئ؟ يعنى ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته وانت لم تخبر أمره خبرى ، فكذلك الآية ، إنما ورد فيها الكلام قامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم اللّه تعالى وهو عدم إيمان هؤلاء ، فاستقام دخول «لا» وتعين وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار باقامة الأعذار. واللّه الموفق للصواب.

(2). لامرئ القيس. والعوج : عطف رأس البعير بالزمام. والمحيل : الذي حال وتغير عن صفة الجدة إلى صفة البلى ، أو الذي أصابه المحل والاقفار. هذا وفي الصحاح : أحال الشيء إذا أتى عليه الحول. ومنه الطلل المحيل ، فهو اسم فاعل وهو الوجيه ، ولأننا: بفتح اللام والهمزة ، بمعنى لعلنا. قال في التسهيل : في لعل عشر لغات ، وعد منها أن المفتوحة ، ولأن. وابن خذام بمعجمتين أول من بكى الديار من شعراء العرب ، وكان طبيبا حاذقا يضرب به المثل في الطب. [.....]

ومنهم من جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح وقرئ : وما يشعرهم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. أى يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها.

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ... وَنَذَرُهُمْ عطف على يؤمنون ، داخل في حكم وما يشعركم ، بمعنى : وما يشعركم أنهم لا يؤمنون ، وما يشعركم اما نقلب أفئدتهم وأبصارهم : أى نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا. أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعا على قلوبهم ، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أى نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا «1» فيه. وقرئ : ويقلب. ويذرهم بالياء أى الله عزّ وجلّ. وقرأ الأعمش : وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ، على البناء للمفعول.

[سورة الأنعام (6) : آية 111]

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ كما قالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى كما قالوا : فَأْتُوا بِآبائِنا ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا كما قالوا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا قبلا كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا ، أو جماعات. وقيل قُبُلًا مقابلة. وقرئ قُبُلًا أى عيانا «2» إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ مشيئة إكراه واضطرار «3» وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ فيقسمون باللّه جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات.

---

(1). قوله «حتى يعمهوا فيه» أى يتحيروا. (ع)
(2). قوله «و قرئ قبلا أى عيانا» في الصحاح : رأيته قبلا وقبلا - بالضم - أى مقابلة وعيانا. ورأيته قبلا - بكسر القاف - قال الله تعالى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا أى عيانا. (ع)
(3). قال محمود : «معناه إلا أن يشاء الله مشيئة إكراه واضطرار ... الخ قال أحمد : بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الايمان ، فانه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للايمان لاختاروه وآمنوا حتما. ما شاء اللّه كان. والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أن اللّه تعالى شاء منهم الايمان اختياراً فلم يؤمنوا ، إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة ، ولا يطلقون القول كما أطلقه سلف هذه الأمة وحملة شريعتها. من قولهم : ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، بل يقولون إن أكثر ما شاءه لم يقع ، إذ شاء الايمان والصلاح من جميع الخلق ، فلم يؤمن ويعمل الصالح إلا القليل ، وقليل ما هم. وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ، فإذا صد منهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا في المدافعة بحمل للمشيئة المنفية على مشيئة القسر والاضطرار ، وإنما لم يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء ، وأما وهو القدوة والمتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه فالى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال ، واللّه الموفق للصواب.

أو ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرّهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

[سورة الأنعام (6) : آية 112]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112)

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا وكما خلينا بينك وبين أعدائك ، كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم نمنعهم من العداوة ، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر. وكثرة الثواب والأجر. وانتصب شَياطِينَ على البدل من عدوّا. أو على أنهما مفعولان كقوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس. وكذلك بعض الجنّ إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك ابن دينار : إنّ شيطان الإنس أشد علىّ من شيطان الجنّ ، لأنى إذا تعوّذت باللّه ذهب شيطان الجنّ عنى ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانا زُخْرُفَ الْقَوْلِ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه غُرُوراً خدعا وأخذاً على غرّة وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ ما فعلوا ذلك ، أى ما عادوك ، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف الفول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 113]

وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

وَلِتَصْغى جوابه محذوف تقديره : وليكون ذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّاً ، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر. والضمير في إِلَيْهِ «1» يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه ، أى ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين أَفْئِدَةُ الكفار وَلِيَرْضَوْهُ لأنفسهم وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ من الآثام.

[سورة الأنعام (6) : آية 114]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

(1). قوله «و الضمير في إليه» أى في قوله تعالى وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ. (ع)

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً على إرادة القول ، أى قل يا محمد : أفغير اللّه أطلب حاكما يحكم بيني وبينكم ، ويفصل المحق منا من المبطل هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ المعجز مُفَصَّلًا مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أو فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به. ويجوز أن يكون فَلا تَكُونَنَّ خطاباً لكل أحد ، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه ، فما ينبغي أن يمترى فيه أحد. وقيل : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خطاباً لأمته «1»

[سورة الأنعام (6) : آية 115]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد صِدْقاً وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ لا أحد يبدّل شيئاً من ذلك مما هو أصدق وأعدل. وصدقا وعدلا. نصب على الحال. وقرئ : كلمة ربك ، أى ما تكلم به. وقيل : هي القرآن.

[سورة الأنعام (6) : آية 116]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (116)

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أى من الناس أضلوك ، لأنّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم ، ثم قال إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ يقدّرون أنهم على شيء. أو يكذبون في أنّ اللّه حرّم كذا وأحلّ كذا.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 117 إلى 119]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

(1). قوله «خطابا لأمته» لعله «خطاب». (ع)

وقرئ مَنْ يَضِلُّ بضم الياء أى يضله اللّه فَكُلُوا مسبب عن إنكار اتباع المضلين ، الذين يحلون الحرام ويحرّمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون اللّه ، فما قتل اللّه أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم ، فقيل للمسلمين : إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره

من آلهتهم أو مات حتف أنفه ، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكى ببسم الله وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا وأى غرض لكم في أن لا تأكلوا وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ وقد بين لكم ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مما لم يحرّم وهو قوله حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وقرئ : فصل لكم ما حرّم عليكم على تسمية الفاعل ، وهو الله عزّ وجلّ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ مما حرّم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ قرئ بفتح الياء وضمها ، أى يضلون فيحرّمون ويحللون بِأَهْوائِهِمْ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

[سورة الأنعام (6) : آية 120]

وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120)

ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ ما أعلنتم منه وما أسررتم. وقيل : ما عملتم وما نويتم. وقيل : ظاهره الزنا في الحوانيت ، وباطنه الصديقة في السرّ.

[سورة الأنعام (6) : آية 121]

وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهى ، يعنى وإنّ الأكل منه لفسق. أو إلى الموصول على : وإنّ أكله لفسق ، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقا. فإن قلت : قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل «1» ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد.

(1). قال محمود : «إن قلت قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد ... الخ» قال أحمد : مذهب مالك وأبى حنيفة واه في أن متروك التسمية عمدا لا يؤكل. سواء كان تهاونا أو غير تهاون ، ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته ، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعدة بينة ، فانه ذكر عقيب غير المسمى عليه قوله وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف وهو إهمال التسمية ، أو تسمية غير الله فلا يدخل النسيان ، لأن الناسي غير مكلف فلا يكون فعله فسقا ولا هو فاسق ، وإن كان نفس الفسق الذبيحة التي لم يسم عليها ولم يكن مصدرا ، فإنما تسمى الذبيحة فسقا نقلا لهذا الاسم من المصدر إلى الذات فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسيانا لا يصح أن تسمي فسقا ، إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق ، فإذا تمهد ذلك فاما أن يقول : لا دليل في الآية على تحريم منسى التسمية ، فبقى على أصل الاباحة. أو يقول : فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهى بما هو فسق ، فما ليس بفسق ليس بحرام. وهذا النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية. وأما إذا أثبت أنها مرادة ، تعين صرف الفسق إلى الآكل والمأكول ، وكان الضمير من قوله وَإِنَّهُ عائداً إلى المصدر المنهي عنه ، أو إلى الموصول. وحينئذ يندرج المنسى في النهى ولا يستقيم ، على أن الميتة مندرجة كاندراج المنسى ، لأن الوجه الذي به تندرج الميتة هو الوجه الذي به يندرج المنسى ، إذ يكون الفسق إما للأكل ، وإما للمأكول نقلا من الأكل ، ولا ينصرف إلى غير ذلك ، لأن الميتة لم يفعل المكلف فيها فعلا يسمى فسقا سوى الأكل ، والمنسى تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقا لأجل النسيان ، فيتعين صرفه إلى الأكل. ومن ثم قوى عند الزمخشري تعميم التحريم حتى في المنسى ، لأنه يرى أن الميتة مرادة من الآية ولا بد ، إذ هي سبب نزول الآية.

والتحقق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصا في السبب ظاهرا باقيا على ظهوره فيما عداه. وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسى كما تقدم. وحينئذ يضطر مبيح المنسى إلى مخصص ، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام «ذكر الله على قلب كل مؤمن من سمى أو لم بسم» وكان الناسي ذاكراً حكما وإن لم يكن ذاكرا وجودا ، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص ، ولكن منع لاندراج الناسي في العموم وسنده الحديث المذكور. ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص وإن قوى تناوله للسبب حتى ينهض الظاهر فيه نصا ، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه حتى ينحط عن أمالى الظواهر فيه ، ويكتفى من معارضته بما لا يكتفى به منه لولا السبب ، وهذا البحث متطلع بفنون شتى على نكت بديعة ، والله الموفق للصواب.

قلت : قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه «1» : كقوله أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ لَيُوحُونَ ليوسوسون إِلى أَوْلِيائِهِمْ من المشركين لِيُجادِلُوكُمْ بقولهم : ولا تأكلوا مما قتله الله. وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ لأنّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به. ومن حق ذى البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان ، لما يرى في الآية من التشديد العظيم ، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصا في النسيان دون العمد ، ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 122 إلى 123]

أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (123)

مثل الذي هداه اللّه بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدى والضال ، بمن كان ميتا فأحياه اللّه وجعل له نوراً يمشى به في الناس مستضيئا به ، فيميز بعضهم من بعض ، ويفصل بين حلاهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كمن صفته هذه وهي قوله فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها بمعنى : هو في الظلمات ليس بخارج منها ، كقوله تعالى مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ أى صفتها هذه ، وهي قوله فِيها أَنْهارٌ.

(1). قوله «و بما ذكر غير اسم اللّه عليه» لعله «اسم غير اللّه». (ع)

زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ أى زينه الشيطان ، أو اللّه عزّ وعلا على قوله زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ ويدل عليه قوله وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها يعنى : وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك. ومعناه : خليناهم ليمكروا «1» وما كففناهم عن المكر ، وخص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس ، كقوله أَمَرْنا مُتْرَفِيها.

وقرئ : أكبر مجرميها ، على قولك : هم اكبر قومهم ، وأكابر قومهم وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ لأنّ مكرهم يحيق بهم.

وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روى أن الوليدين المغيرة قال : لو كانت النبوّة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً وأكثر منك مالا.

وروى أن أبا جهل قال : زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبىّ يوحى إليه ، واللّه لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فنزلت.

ونحوها قوله تعالى بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

[سورة الأنعام (6) : آية 124]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (124)

اللَّهُ أَعْلَمُ كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوّة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا من أكابرها صَغارٌ وقماءة «2» بعد كبرهم وعظمتهم وَعَذابٌ شَدِيدٌ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 125 إلى 127]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)

(1). قوله «و معناه خليناهم ليمكروا» أو له بذلك لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ويخلقه كالخير عند أهل السنة ، وكذا قوله تعالى وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ... الخ وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً. (ع)
(2). قوله و«قماءة» أى ذل ، (ع)

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ أن يخذله ويخليه وشأنه «1» ، وهو

الذي لا لطف له يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً يمنعه ألطافه ، حتى يقسو قلبه ، وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان. وقرئ ضَيِّقاً بالتخفيف والتشديد حَرَجاً بالكسر ، وحرجا - بالفتح - وصفاً بالمصدر كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كأنما يزاول أمراً غير ممكن ، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة. وقرئ : يصعد ، وأصله يتصعد. وقرأ عبد الله : يتصعد. ويصاعد. وأصله : يتصاعد ويصعد ، من صعد. ويصعد من أصعد يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ يعنى الخذلان ومنع التوفيق ، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤدّى إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب وَهذا صِراطُ رَبِّكَ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان مُسْتَقِيماً عادلا مطرداً ، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لَهُمْ لقوم يذكرون دارُ السَّلامِ دار الله ، يعنى الجنة أضافها إلى نفسه تعظيما لها ، أو دار السلامة من كل آفة وكدر عِنْدَ رَبِّهِمْ في ضمانه ، كما تقول : لفلان عندي حق لا ينسى ، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها ، كقوله فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ مواليهم ومحبهم «أو ناصرهم على أعدائهم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ بسبب أعمالهم ، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

[سورة الأنعام (6) : آية 128]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ منصوب بمحذوف ، أى واذكر يوم نحشرهم ، أو ويوم نحشرهم قلنا يا مَعْشَرَ الْجِنِّ أو ويوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان مالا يوصف لفظاعته ، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم ، والجن هم الشياطين قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أضللتم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم فحشر معكم منهم الجم الغفير ، كما تقول : استكثر الأمير من الجنود ، واستكثر فلان من الأشياع وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أى انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات

(1). قوله «أن يخذله ويخليه وشأنه» فسر الإضلال بذلك ، لأنه تعالى لا يفعل الشر عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيفعله كالخير ، وكذا يقال في قوله «يمنعه ألطافه». (ع)

وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم، وقيل استمتاع الإنس بالجن ما في قوله وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال : أعوذ بربّ هذا الوادي ، يعنى به كبير الجن. واستمتاع الجن بالإنس : اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا يعنون يوم البعث. وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أى يخلدون في عذاب النار الأبد كله «1» ، إلا ما شاء الله ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النّار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم. أو يكون من قول الموتور «2» الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه.

أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد ،

(1). قال محمود : «معنى هذا الاستثناء أنهم يخلدون في عذاب النار الأبد كله ... الخ» قال أحمد : قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتا قطعياً ، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية وفي أختها في سورة هود ، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة لأنهم لا يخلدون ، وهذا تأويل أهل السنة. وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود وتناهي إلى ما نعوذ بالله منه ، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه راوى الحديث الشاهد لهذا التأويل ، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وفقهائهم وزهادهم. وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء. وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل. وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك.
وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط فقال : المراد - والله أعلم - إلا ما شاء من زيادة العذاب ، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء ، والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبينه فنقول : العذاب - والعياذ بالله - على درجات متفاوتة ، فكأن المراد أنهم مخلدون في جنس العذاب ، إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة تعد ليس من جنس العذاب وخارجة عنه ، والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه

بالضد كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل بربب وقد ، وهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب. وقد حام أبو الطيب حوله فقال :
لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد
فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته في التعبير بمعاملة المغاير ، وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط. وفي تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده ، والله الموفق.
(2). قوله «قوله الموتور» الموتور : المظلوم. (ع)

فيكون قوله : إلا إذا شئت ، من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة عَلِيمٌ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

[سورة الأنعام (6) : آية 129]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129)

نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.

[سورة الأنعام (6) : آية 130]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم ، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم ، لأنهم به آنس وله آلف. وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ، وإنما قيل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحَّ ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وقيل : أراد رسل الرسل من الجنّ إليهم ، كقوله تعالى وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ وعن الكلبي : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن الُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله لَمْ يَأْتِكُمْ

لأن الهمزة الداخلة على نفى إتيان الرسل للإنكار ، فكان تقريراً لهم. وقولهم هِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم ، وأنهم محجوجون بها. فإن قلت : ما لهم مقرّين في هذه الآية جاحدين في قوله وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ؟ قلت :

تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول ، فيقرّون في بعضها ، ويجحدون في بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم. فإن قلت : لم كرّر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت : الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون؟ والثانية : ذمّ لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 131 إلى 132]

ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)

ذلِكَ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة ، وهو خبر مبتدإ محذوف : أى الأمر ذلك. وأَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى تعليل ، أى الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، على أن «أن» هي التي تنصب الأفعال. ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، على معنى : لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم. ولك أن تجعله بدلا من ذلك ، كقوله وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ ، بِظُلْمٍ بسبب ظلم قدموا عليه. أو ظالما ، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب ، لكان ظلماء وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح وَلِكُلٍّ من المكلفين دَرَجاتٌ منازل مِمَّا عَمِلُوا من جزاء أعمالهم وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 133 إلى 134]

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ عن عباده وعن عبادتهم ذُو الرَّحْمَةِ يترحم عليهم بالتكليف ليعرّضهم المنافع الدائمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ من الخلق المطيع كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

[سورة الأنعام (6) : آية 135]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)
«المكانة» تكون مصدراً يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن. وبمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة. وقوله اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ يحتمل : اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله : على مكانتك يا فلان ، أى اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه إِنِّي عامِلٌ أى عامل على مكانتى التي أنا عليها. والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي ، فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أينا تكون له العاقبة المحمودة. وطريقة هذا الأمر طريقة قوله اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ وهي التخلية ، والتسجيل على المأمور «1» بأنه لا يأتى منه إلا الشر ، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه. فإن قلت : ما موضع مَنْ؟ قلت الرفع إذا كان بمعنى «أى» وعلق عنه فعل العلم. أو النصب إذا كان بمعنى «الذي» وعاقِبَةُ الدَّارِ العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها. وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدّة الوعيد ، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل.

[سورة الأنعام (6) : آية 136]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله ، وأشياء منها لآلهتهم ، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة ، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا بأنّ الله غنىّ ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها : وقوله مِمَّا ذَرَأَ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي ، لأنه هو الذي ذرأه وزكاه ، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكية بِزَعْمِهِمْ وقرى بالضم ، أى قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك ، لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القربة فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أى لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ من إنفاق عليها بذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ساءَ ما يَحْكُمُونَ في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 137]

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137)

(1). قوله «و التسجيل على المأمور» في الصحاح «السجل» الصك. وقد سجل الحاكم تسجيلا. وفيه أيضا : هي مسجلة البر والفاجر. قال الأصمعي : أى مرسلة ، يقال أسجلت الكلام أى أرسلته. (ع)

وَكَذلِكَ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين اللّه تعالى والآلهة ، أو ومثل ذلك التزيين البليغ «1» الذي هو علم من الشياطين. والمعنى : أن شركاءهم من الشياطين ، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم «2» بالوأد ، أو بنحرهم للآلهة،

(1). قوله «و مثل ذلك التزيين البليغ الذي» لعله التزيين الذي. (ع) [.....]

(2). قال محمود : «المعنى أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه : لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء ، وتاه في تيهاء. وأنا أبرأ إلى اللّه وأبرئ حملة كتابه وحفظة كلامه مما رماهم به «فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعا فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في شركائهم ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً فقرأه منصوبا ، قال المصنف : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالاضافة وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعنى ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه الذي يسمج في الشعر فضلا عن النثر فضلا عن المعجز. فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا منه ، وكان الصواب خلافه والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد والفعل بين المضاف والمضاف إليه ، بها يعلم ضرورة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبي صلى اللّه عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤن بها خلفاً عن سلف ، إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى اللّه عليه وسلم.

فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري ، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر ، فان المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعا وضرورة. ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين ، أعنى علم القراءة وعلم الأصول ، ولا يعد من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين. وأنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً ، فان هذا القائل لم يثبتها بغير النقل.

وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر. وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأى غير موقوفة على النقل.

وهذا لم يقل به أحد من المسلمين. وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها ، ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه. وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل ، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة حتى قال بعض النحاة :

إن إضافته ليست محضة لذلك. فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره. وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف ، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير فكة بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل وأضافه إلى الفاعل وبقي المفعول مكانه حين الفك ، ويسهل ذلك أيضا تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل وتارة يضاف إلى المفعول. وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل لوقوعه في غير مرتبته ، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل ، كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حل في غير رتبته ، لأن النية به التأخير. وأنشد أبو عبيدة

فداسهم دوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً :

يفرك حب السنبل الكنافج بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول. ومما يقوى عدم توغله في الاضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً ، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة. بشواهد من أقيسة العربية. تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة ، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربة ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة. وهذا القدر كاف إن شاء اللّه في الجمع بينهما واللّه الموفق. وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التي يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم يفرده في الدلالة المذكورة إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ، واللّه الموفق.

وكان الرجل في الجاهلية يحلف : لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم ، كما حلف عبد المطلب. وقرئ : زين ، على البناء للفاعل الذي هو شركاؤهم ، ونصب قَتْلَ أَوْلادِهِمْ وزين ، على البناء للمفعول الذي هو القتل ، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين ، كأنه قيل : لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه؟

فقيل : زينه لهم شركاؤهم. وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج وردّ.

زجّ القلوص أبى مزاده «1»

فكيف به في الكلام المنثور ، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته. والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء. ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب لِيُرْدُوهُمْ ليهلكوهم بالإغواء وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وليخلطوا ، عليهم ويشبهوه. ودينهم : ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك. وقيل : دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه. وقيل : معناه وليوقعوهم في دين ملتبس. فان قلت : ما معنى اللام؟ قلت : إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل ، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مشيئة قسر ما فَعَلُوهُ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل. أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك ، إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الاشارة وَما يَفْتَرُونَ وما يفترونه من الإفك. أو وافتراؤهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 138]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138)

(1) فزججتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده
الزج : الطعن : والمزجة : الرمح القصير ، لأنه آلة للزج. والقلوص : الناقة الشابة ، وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً. يقول : فطعنت الناقة أو الجماعة برمح قصير ، كطعن أبى مزادة القلوص في السير.

حِجْرٌ فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن ، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات : وقرأ الحسن وقتادة «حجر» بضم الحاء.

وقرأ ابن عباس : حرج ، وهو من التضييق وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وهي البحائر والسوائب والحوامي وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا في الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل : لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها. والمعنى : أنهم قسموا أنعامهم فقالوا : هذه أنعام حجر ، وأنعام محرّمة الظهور ، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله. فجعلوها أجناسا بهواهم ، ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله افْتِراءً عَلَيْهِ أى فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانتصابه على أنه مفعول له : أو حال، أو مصدر مؤكد ، لأنّ قولهم ذلك في معنى الافتراء.

[سورة الأنعام (6) : آية 139]

وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث ، وما ولد منها ميتا اشترك فيه الذكور والإناث. وأنث خالِصَةٌ للحمل على المعنى ، لأنّ ما في معنى الأجنة «1» وذكر مُحَرَّمٌ للحمل على اللفظ. ونظيره وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر. وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص ، كالعاقبة أى ذو خالصة. ويدل عليه قراءة من قرأ خالِصَةً بالنصب على أنّ قوله لِذُكُورِنا هو الخبر ، وخالصة مصدر مؤكد ، ولا يجوز أن يكون حالا متقدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله. وقرأ ابن عباس : خالصة على الإضافة.

(1). قال محمود : «و أنث خالصة للحمل على المعنى لأن ما في معنى الأجنة ... الخ» قال أحمد : ليسا سواء ، لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى وفيه إجمال ، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخرى الفن وقوعه في الكتاب العزيز ، وادعوا أن جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك ، وعدوا في الكتاب العزيز منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول. وعلى الجملة فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل وغيره أولى ما وجد إليه سبيل. وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك فقال : ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في راوية الشعر ، وأن يكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعافية أى ذو خالصة. وبدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب ، على أن قوله لِذُكُورِنا هو الخبر ، وخالِصَةً مصدر مؤكد. ولا يجوز أن يكون حالا متعدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله ، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجرور حتى يتعين المصدر.

وفي مصحف عبد الله : خالص. وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً وإن يكن ما في بطونها ميتة. وقرئ : وإن تكن ، بالتأنيث ، على: وإن تكن الأجنة ميتة. وقرأ أهل مكة : وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامّة وتذكير الضمير في قوله فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى ، فكأنه قيل : وإن يكن ميت فهم فيه شركاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

أى ، زاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله تعالى تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ.

[سورة الأنعام (6) : آية 140]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ(140)

نزلت في ربيعة ومضر والرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ لخفة أحلامهم ، وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم ، لا هم. وقرئ «قتلوا» بالتشديد ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من البحائر والسوائب وغيرها.

[سورة الأنعام (6) : آية 141]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

أَنْشَأَ جَنَّاتٍ من الكروم مَعْرُوشاتٍ مسموكات «1» وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ متروكات على وجه الأرض لم تعرّش. وقيل : المعروشات» ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ مما أنبته وحشياً في البراري والجبال. فهو غير معروش. يقال : عرّشت الكرم ، إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان. وسقف البيت : عرّشه مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ في اللون والطعم والحجم والرائحة. وقرئ «أكله» بالضم والسكون وهو ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه ، لكونه معطوفا عليه. ومختلفاً : حال مقدّرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ. وقرئ «ثمره» بضمتين. فإن قلت : ما فائدة قوله إِذا أَثْمَرَ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قلت : لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل : إذا أثمر ، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر ، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ الآية مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فأريد بالحق ما كان يتصدّق به على المساكين يوم الحصاد ،

(1). قوله «مسموكات» أى مرفوعات. وفي الصحاح «سمك الله السماء» رفعها. والسمك : السقف. (ع)

وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر ، ونصف العشر. وقيل مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة. ومعناه : واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء وَلا تُسْرِفُوا في الصدقة كما روى عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 142 إلى 144]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

حَمُولَةً وَفَرْشاً عطف على جنات. أى : وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح ، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش. وقيل : «الحمولة» الكبار التي تصلح للحمل ، «و الفرش» الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم ، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ بدل من حمولة وفرشاً اثْنَيْنِ زوجين اثنين ، يريد الذكر والأنثى ، كالجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والعنز - والواحد إذا كان وحده فهو فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منها زوجاً ، وهما زوجان ، بدليل قوله خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى والدليل عليه «1» قوله تعالى ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ثم فسرها بقوله مِنَ الضَّأْنِ

اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ونحو تسميتهم الفرد بالزوج ، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه : تسميتهم الزجاجة

(1). قوله «و الدليل عليه» عبارة النسفي : ويدل عليه. (ع)

كأساً بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وما عز ، كتاجر وتجر. وقرئا بفتح العين. وقرأ أبىّ. ومن المعزى. وقرئ : اثنان ، على الابتداء.

الهمزة في آلذَّكَرَيْنِ للإنكار والمراد بالذكرين : الذكر من الضأن والذكر من العز.

وبالأنثيين : الأنثى من الضأن والأنثى من المعز ، على طريق الجنسية. والمعنى إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئا من نوعي ذكورها وإناثها ، ولا مما تحمل إناث الجنسين ، وكذلك الذكران من جنسى الإبل والبقر ، والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما ، وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام «1» تارة ، وإناثها تارة ، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإناثاً ، أو مختلطة تارة ، وكانوا يقولون قد حرّمها الله ، فأنكر ذلك عليهم نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرّمتم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنّ الله حرّمه أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ بل أكنتم شهداء. ومعنى الهمزة الإنكار ، يعنى أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم؟ وذكر المشاهدة على مذهبهم ، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون : الله حرّم هذا الذي نحرّمه ، فتهكم بهم في قوله أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ على معنى : أعرفتم التوصية به مشاهدين ، لأنكم لا تؤمنون بالرسل فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم لِيُضِلَّ النَّاسَ وهو عمرو بن لحى بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

[سورة الأنعام (6) : آية 145]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

فإن قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبى من المعدود. وذلك أنّ الله عزّ وجلّ منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم ، فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها ، والاحتجاج على من حرّمها تأكيد وتسديد للتحليل ، والاعتراضات في الكلام لاتساق إلا للتوكيد فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه ، لا بهوى الأنفس مُحَرَّماً طعاماً محرّماً من المطاعم التي حرّمتموها إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أى مصبوباً سائلا ، كالدم في العروق ، لا كالكبد والطحال. وقد رخص في دم العروق بعد الذبح أَوْ فِسْقاً عطف على المنصوب قبله.

(1). قوله «ذكورة الأنعام» يجمع الذكر على ذكارة كحجارة ، وذكور وذكران. هذا ما في الصحاح ، لكن عبارة النسفي كعبارة المصنف ، فحرر. (ع)

سمى ما أهلّ به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق.

ومنه قوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وأهل : صفة له منصوبة المحل.

ويجوز أن يكون مفعولا له من أهلّ ، أى أهلّ لغير الله به فسقاً. فإن قلت : فعلام تعطف أُهِلَّ؟ وإلام يرجع الضمير فِي بِهِ على هذا القول؟ قلت : يعطف على يكون ، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ في يكون فَمَنِ اضْطُرَّ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات غَيْرَ باغٍ على مضطر مثله تارك لمواساته وَلا عادٍ متجاوز قدر حاجته من تناوله فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يؤاخذه.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 146 إلى 147]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

«ذو الظفر» ما له أصبع من دابة أو طائر ، وكان بعض ذات الظفر حلالا لهم ، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وقوله وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما كقولك : من زيد أخذت ماله ، تريد بالإضافة زيادة الربط. والمعنى أنه حرّم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شيء منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلا الشحوم الخالصة ، وهي الثروب «1» وشحوم الكلى.

وقوله إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما يعنى إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحقة «2» أَوِ الْحَوايا أو اشتمل على الأمعاء أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ وهو شحم الإلية. وقيل الْحَوايا عطف على شحومهما. و«أو» بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ذلِكَ الجزاء جَزَيْناهُمْ وهو تحريم الطيبات بِبَغْيِهِمْ بسبب ظلمهم «3» وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه ، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة.

(1). قوله «الثروب» هي شحوم رقيقة قد غشيت الكرش والأمعاء ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «من السحقة» السحقة : الشحمة الملتزقة بالجلد على الظهر من الكتف إلى الورك ، نقله في الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : معناه ذلك الجزاء جزيناهم ببغيهم بسبب ظلمهم ... الخ» قال أحمد : هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على الله ووعيد الكافر باتفاق واقع به غير مردود عنه. وأهل السنة وإن قالوا : يجوز العفو عن العاصي الموحد ، فلا يقولون إن ذلك حتم ، ولا يلزمهم ذلك ، لأن الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة ، علق حلول الوعيد بهم بالمشيئة ، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم ، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة ، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر فهو محمول على المقيد ، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر. والزمخشري إنما يدندن حول إلزامهم ذلك وأنى له.

فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب. فَإِنْ كَذَّبُوكَ في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة ، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً فَقُلْ لهم رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ لأهل طاعته وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ مع سعة رحمته عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 148 إلى 149]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إخبار بما سوف يقولونه ، «1» ولما قالوه قال وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يعنون بكفرهم وتمردهم «2».

(1). قال محمود : «هذا إخبار بما سوف يقولونه ... الخ» قال أحمد : وفائدته توطين النفس على الجواب ومكافحتهم بالرد وإعداد الحجة قبل أوانها ، كما قال سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ.
(2). عاد كلامه. قال : فلما وقع ذلك منهم قال وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يعنون بكفرهم ... الخ» قال أحمد رحمه الله : قد تقدم أيضا الكلام على هذه الآية ، وأوضحنا أن الرد عليهم ، إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك ، فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم ، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة ، ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته ، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون ، بقوله فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد ، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة. وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة ، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها ، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة.
والمصنف يغالط في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية ، مميزة بينها وبين أفعاله القسرية ، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقبا عاما لأهل السنة. وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا - إلى قوله - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ وتتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين ، فلم تقع من أكثرهم. ووجه الرد أن «لو» إذا دخلت على فعل مثبت نفته ، فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال فَلَوْ شاءَ لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم ، ولو شاءها لوقعت ، فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم ، فإذا ثبت اشتمال الاية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها ، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها ، فان أولها كما بينا يثبت للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية خيراً أو غيره ، وذلك عين عقيدتهم ، فإنهم كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة ، يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجته ملزم له بالطاعة على وفق اختياره،

ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده ، فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز ، يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق.

أن شركهم وشرك آبائهم ، وتحريمهم ما أحل الله ، بمشيئة الله وإرادته. ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كمذهب المجبرة بعينه «1» كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى جاءوا بالتكذيب المطلق ، لأنّ الله عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها ، والرسل أخبروا بذلك. فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله ، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم فَتُخْرِجُوهُ لَنا وهذا من التهكم ، والشهادة بأن مثل قولهم محال أنّ يكون له حجة إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ في قولكم هذا وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ تقدّرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بالتخفيف قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ يعنى فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّه الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم «2» فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ منكم ومن مخالفيكم في الدين ، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته ، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم ، لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

[سورة الأنعام (6) : آية 150]

قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

هَلُمَّ يستوي فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنث وتجمع. والمعنى : هاتوا شهداءكم وقرّبوهم. فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أنّ الله حرم ما زعموه محرما ،

(1). قوله «كمذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة ، من أن كل كائن فهو مراد له تعالى ولو شراً. وتحقيق الفرق بينه وبين قول المشركين في علم التوحيد ، ويكفى فيه أن قولهم من باب التهكم ، كما قالوا لما قيل لهم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. (ع)

(2). قوله «على قود مذهبكم» لعله من قاد الفرس ونحوه قوداً ، إذا جره بسهولة ، أى على طبق مذهبكم ، أى على مقتضاه وما يؤدى إليه. (ع)

ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء ، لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به. وقوله فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ يعنى فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقا بالآيات موحداً لله تعالى. فإن قلت : هلا قيل : قل هلم شهداء يشهدون أنّ الله حرّم هذا؟ «1» وأى فرق بينه وبين المنزل؟ قلت : المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم ، ليهدم ما يقومون به يحق الحق ويبطل الباطل ، فأضيفت الشهداء لذلك ، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ، والدليل عليه قوله تعالى فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ولو قيل : هلم شهداء يشهدون ، لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض. ويناقضه قوله تعالى فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ.

[سورة الأنعام (6) : آية 151]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

«تعالى» من الخاص الذي صار عاما. وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ. وما حَرَّمَ منصوب بفعل التلاوة ، أى أتل الذي حرمه ربكم.

أو يحرم بمعنى : أقل أىّ شيء حرّم ربكم ، لأن التلاوة من القول ، و«أن» في أَلَّا تُشْرِكُوا مفسرة و«لا» للنهى.

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا وأى فرق بينه وبين المنزل ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل ، وهو قوله : هلم بشهداء يشهدون ، يفهم أن الطالب للشهداء ليس على تحقيق من أن ثم شهداء ، كما يقول الحاكم للمدعى : هات بينة تشهد بذلك ، فهو لا يتحقق أن للمدعى بينة ، ثم يكون قوله فَإِنْ شَهِدُوا تحقيقاً لأن ثم شهداء ، فالجمع بينهما متناقض كما ترى ، والله الموفق. [.....]

فإن قلت : هلا قلت هي التي تنصب الفعل ، وجعلت أن لا تشركوا بدلا من ما حَرَّمَ؟

قلت : وجب أن يكون أَلَّا تُشْرِكُوا ولا تَقْرَبُوا ولا تَقْتُلُوا ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ نواهي لانعطاف الأوامر عليها ، وهي قوله وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً لأن التقدير : وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، وَأَوْفُوا، وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا.

فإن قلت : فما تصنع بقوله وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ فيمن قرأ بالفتح ، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل ، حتى يكون المعنى : أتل عليكم نفى الإشراك والتوحيد ، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيما؟ قلت : أجعل قوله وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً علة للاتباع بتقدير اللام ، كقوله تعالى وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً بمعنى : ولأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه. والدليل عليه القراءة بالكسر، كأنه قيل : واتبعوا صراطي لأنه مستقيم ، أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم. فإن قلت : إذا جعلت أَنَّ مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم ، وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرما كله ، كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهى ، فما تصنع بالأوامر؟ قلت : لما وردت هذه الأوامر مع النواهي ، وتقدمهنّ جميعاً فعل التحريم ، واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها ، وهي الإساءة إلى الوالدين ، وبخس الكيل والميزان. وترك العدل في القول ، ونكث عهد الله مِنْ إِمْلاقٍ من أجل فقر ومن خشيته ، كقوله تعالى خَشْيَةَ إِمْلاقٍ. ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ مثل قوله ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ. إِلَّا بِالْحَقِّ كالقصاص ، والقتل على الردّة ، والرجم.

[سورة الأنعام (6) : آية 152]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم ، وهي حفظه وتثميره والمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشدّه فادفعوه إليه بِالْقِسْطِ

بالسوية والعدل ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

إلا ما يسعها ولا تعجز عنه. وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك ، لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج ، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفوّ عنه وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل ، فما ينبغي أن يزيد في القول أو ينقص ، كقوله وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.

[سورة الأنعام (6) : آية 153]

وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)
وقرئ : وأن هذا صراطي مستقيما ، بتخفيف «أن» وأصله : وأنه هذا صراطي ، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث. وقرأ الأعمش : وهذا صراطي. وفي مصحف عبد الله : وهذا صراط ربكم. وفي مصحف أبىّ : وهذا صراط ربك وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الطرق المختلفة في الدين ، من اليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، وسائر البدع والضلالات فَتَفَرَّقَ بِكُمْ فتفرقكم أيادى سبا عَنْ سَبِيلِهِ عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام. وقرئ : فتفرق بإدغام التاء. وروى أبو وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خط خطا ثم قال : هذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم

تلا هذه الآية وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب. وقيل : إنهنّ أمّ الكتاب ، ومن عمل بهنّ دخل الجنة ، ومن تركهنّ دخل النار ، وعن كعب الأحبار : والذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شيء في التوراة. فإن قلت : علام عطف قوله ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ قلت : على وَصَّاكُمْ بِهِ. فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بثم - والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل - ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب ، فكأنه قيل : ذلكم وصاكم به يا بنى آدم قديماً وحديثاً.

[سورة الأنعام (6) : آية 154]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(154)

ثُمَّ أعظم من ذلك أَنَّا آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك. وقيل : هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ.

تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ تماماً للكرامة والنعمة ، على الذي أحسن ، على من كان محسنا صالحاً ، يريد جنس المحسنين. وتدل عليه قراءة عبد الله : على الذين أحسنوا : أو أراد به موسى عليه السلام ، أى تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته ، أى زيادة على علمه على وجه التتميم.

(1). أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى من طريق عاصم وغيره عن أبى وائل.

وقرأ يحيى بن يعمر : على الذي أحسن ، بالرفع ، أى على الذي هو أحسن ، بحذف المبتدإ كقراءة من قرأ مَثَلًا ما بَعُوضَةً بالرفع أى على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه. أو آتينا موسى الكتاب تماما ، أى تامّاً كاملا على أحسن ما تكون عليه الكتب ، أى على الوجه والطريق الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي : أتمَّ له الكتاب على أحسنه.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 155 إلى 157]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

أَنْ تَقُولُوا كراهة أن تقولوا عَلى طائِفَتَيْنِ يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل وَإِنْ كُنَّا هي إن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والأصل : وإنه كنا عن دراستهم غافلين ، على أن الهاء ضمير الشأن عَنْ دِراسَتِهِمْ عن قراءتهم ، أى لم نعرف مثل دراستهم لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ لحدّة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها ، على أنا أمّيون. وقرئ : أن يقولوا : أو يقولوا ، بالياء فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ تبكيت لهم ، وهو على قراءة من قرأ يقولوا على لفظ الغيبة أحسن ، لما فيه من الالتفات. والمعنى : إن صدقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم ، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ بعد ما عرف صحتها وصدقها ، أو تمكن من معرفة ذلك وَصَدَفَ عَنْها الناس فضلّ وأضلّ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ كقوله الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ.

[سورة الأنعام (6) : آية 158]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

الْمَلائِكَةُ ملائكة الموت ، أو العذاب أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أو يأتى كل آيات ربك.

بدليل قوله أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يريد آيات القيامة والهلاك الكلى ، وبعض الآيات.

أشراط الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وغير ذلك. وعن البراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «ما تتذاكرون؟ فقلنا : نتذاكر الساعة قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفا بالمشرق ، وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال ، وطُلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، وناراً تخرج من عدن «1»» لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ صفة لقوله نفساً. وقوله أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً عطف على آمنت. والمعنى أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرّة ، ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات ، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً ، فلم يفرّق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت «2» في غير وقت الإيمان ، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً ، ليعلم أنَّ قوله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جمع بين قرينتين ، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، حتى يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة والهلاك قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ وعيد. وقرئ : أن يأتيهم الملائكة ، بالياء والتاء.

وقرأ ابن سيرين : لا تنفع ، بالتاء ، لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك : ذهبت بعض أصابعه.

[سورة الأنعام (6) : آية 159]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (159)
فَرَّقُوا دِينَهُمْ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى.

---

(1). لم أجده لكن في مسلم عن حذيفة نحوه.
(2). قال محمود : «فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت ... الخ» قال أحمد رحمه الله ، هو يروم الاستدلال على صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية ، إذ سوى بينهما في عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات ، ولا يتم له ذلك ، فان هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف.
وأصل الكلام. يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاما واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً :
أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل ، فهو غير مخالف لقواعد السنة ، فانا نقول : لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخبر وإن نفع الايمان المتقدم في السلامة من الخلود ، فهذا بأن يدل على رد الاعتزال ، أجدر من أن يدل له.
والله الموفق.

وفي الحديث : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية ، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة. وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة «1»» وقيل : فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرئ : فارقوا دينهم ، أى تركوه وَكانُوا شِيَعاً فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم. وقيل من عقابهم. وقيل : هي منسوخة بآية السيف.

[سورة الأنعام (6) : آية 160]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (160)

عَشْرُ أَمْثالِها على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف ، تقديره عشر حسنات أمثالها ، وقرئ : عشر أمثالها ، برفعهما جميعاً على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الإضعاف.

وقد وعد بالواحد سبعمائة ، ووعد ثواباً بغير حساب. ومضاعفة الحسنات فضل ، ومكافأة السيئات عدل وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم.

[سورة الأنعام (6) : آية 161]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)

دِيناً نصب على البدل من محل إِلى صِراطٍ لأنّ معناه : هداني صراطاً ، بدليل قوله وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً والقيم : فيعل ، من قام ، كسيد من ساد ، وهو أبلغ من القائم.

(1). أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية محمد بن عمرو عن أبى هريرة ، دون «كلها» إلى آخر ما في المواضع ، لكن عند أبى داود في الأخيرة «ثنتان وسبعون في النار. وواحدة في الجنة» وللترمذي «كلهم في النار ، إلا ملة واحدة. وهي الناجية ، وافترقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة. كلها في الهاوية إلا واحدة. قالوا : من هي يا رسول اللّه؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى ، وأخرجه ابن حبان والحاكم. ورواه الطبراني من حديث عوف بن مالك كذلك ، إلا أنه قال «فرقة في الجنة وثنتان وسبعون في النار. قيل : من هي؟ قال : الجماعة» ومن حديث أبى أمامة في الأوسط ، بلفظ «كلها في النار إلا السواد الأعظم» ولأبى نعيم وابن مردويه من حديث زيد بن أسلم عن أنس نحوه. والبزار والبيهقي في المدخل من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص نحوه. وأخرجه أسلم بن سهل الواسطي في تاريخه من حديث جابر مثله. وبين أن السائل عن ذلك عمر بن الخطاب ، وفي إسناده واو لم يسم ، وفي الباب عن سعد بن أبى وقاص عند ابن أبى شيبة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعن معاوية أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وإسناده حسن ، واتفقت هذه الطرق على العدد المذكور أولا : وخالفهم كثير بن عبد اللّه بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جده لجعله قوم موسى سبعين فرقة وقوم عيسى إحدى وسبعين وهذه الأمة اثنين وسبعين.
وغير في كل منها كلها فقال «إلا واحدة» وقال في الأخيرة «الإسلام وجماعة» أخرجه الطبراني والحاكم.

وقرئ : قيما. والقيم : مصدر بمعنى القيام وصف به. ومِلَّةَ إِبْراهِيمَ عطف بيان.

وحَنِيفاً حال من إبراهيم.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 162 إلى 163]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(163)

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وعبادتي وتقرّبى كله. وقيل : وذبحى. وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ وقيل : صلاتي وحجى من مناسك الحج وَمَحْيايَ وَمَماتِي وما آتيه في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ خالصة لوجهه وَبِذلِكَ من الإخلاص أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لأن إسلام كل نبىّ متقدّم لإسلام أمّته.

[سورة الأنعام (6) : آية 164]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم ، والهمزة للإنكار ، أى منكر أن أبغى ربا غيره وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره ، كما قال قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ، وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها جواب عن قولهم اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ.

[سورة الأنعام (6) : آية 165]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ لأن محمداً صلى اللّه عليه وسلم خاتم النبيين فحلفت أمّته سائر الأمم. أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً. أو هم خلفاء اللّه في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ في الشرف والرزق لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ من نعمة المال والجاه ، كيف تشكرون تلك النعمة ، وكيف يصنع الشريف بالوضيع ، والحرّ بالعبد ، والغنى بالفقير إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ لمن كفر نعمته وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لمن قام بشكرها.

ووصف العقاب بالسرعة ، لأن ما هو آت قريب.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى اللّه عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوما وليلة «1».

سورة الأعراف

مكية ، غير ثمان آيات : واسئلهم عن القرية ، إلى : وإذ نتقنا الجبل وهي مائتان وست آيات [نزلت بعد ص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعراف (7) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

كِتابٌ خبر مبتدأ محذوف ، أى هو كتاب. وأُنْزِلَ إِلَيْكَ صفة له. والمراد بالكتاب السورة فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ أى شك منه «2» ، كقوله فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ وسمى الشك حرجاً ،

(1). سبقت طرقه في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث أبى بن كعب بتمامه.
وفيه أبو عصمة. وهو متهم بالكذب. وأوله عند الطبراني في الصغير في ترجمة إبراهيم بن نائلة من حديث ابن عمر إلى قوله «و التحميد» وفيه يوسف بن عطية ، وهو ضعيف ، وأخرجه عنه ابن مردويه في تفسيره وأبو نعيم في الحلية.

(2). قال محمود : «الحرج : الشك ... الخ» قال أحمد : ويشهد له قوله تعالى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح ، بأن «العقد» ربط الفكر بمعتقد. و«الاعتقاد» افتعال منه ، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبلج والثقة. وما أحسن تنبيه بقوله : والاعتقاد افتعال منه.
يريد : إذا كان العقد مبايناً للعلم ، فما ظنك بالاعتقاد ، لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى. ومنه الاعتماد والاحتمال.
ومن ثم ورد في الخبر «كسب» وفي نقيضه «اكتسب» لأن النفوس في الشهوات والمخالفات واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات وقمع الأغراض ، وعلى ذلك جاء لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ وإن كان «العلم» من «الأعلم» المأخوذ من «العلمة» بالتحريك ، وهي انشراح الشفة وانشقاقها ، فالذي ذكره الامام حينئذ نهاية في نوعه ، والله الموفق.

لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه. أى لا تشك في أنه منزل من الله ، ولا تحرج من تبليغه «1» لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم ، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم. فإن قلت : بم تعلق قوله لِتُنْذِرَ؟ قلت : بأنزل ، أى أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهى ، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار ، لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه ، متكل على عصمته. فإن قلت : فما محل ذكرى؟ قلت : يحتمل الحركات الثلاث. والنصب بإضمار فعلها. كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو بأنه خبر مبتدإ محذوف. والجر للعطف على محل أن تنذر ، أى للإنذار وللذكر. فإن قلت : النهى في قوله فَلا يَكُنْ متوجه «2» إلى الحرج فما وجهه؟ قلت : هو من قولهم : لا أرينك هاهنا.

[سورة الأعراف (7) : آية 3]

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3)

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من القرآن والسنة وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ من دون الله أَوْلِياءَ أى ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم ، وأمركم باتباعه. وعن الحسن : يا ابن آدم ، أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم. والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار : ولا تبتغوا ، من الابتغاء وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً. ويجوز أن يكون الضمير في مِنْ دُونِهِ لما أنزل ، على : ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره. وقرى : تذكرون ، بحذف التاء.

ويتذكرون ، بالياء. وقَلِيلًا : نصب بتذكرون ، أى تذكرون تذكرا قليلا. وما مزيدة لتوكيد القلة.

[سورة الأعراف (7) : آية 4]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4)

(1). عاد كلامه. قال : «أو ولا تحرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له ... الخ» قال أحمد : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ الآية.
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت النهي في قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج ، فما وجهه؟ قلت : هو من قولهم لا أرينك هاهنا» قال أحمد : بريد أن الحرج منهى في الآية ظاهراً والمراد النهى عنه ، والله أعلم.

فَجاءَها فجاء أهلها بَياتاً مصدر واقع موقع الحال ، بمعنى بائتين. يقال : بات بياتاً حسناً ، وبيتة حسنة. وقوله هُمْ قائِلُونَ حال معطوفة «1» على بياتا ، كأنه قيل : فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين. فإن قلت : هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل قَرْيَةٍ أو قبل الضمير في أَهْلَكْناها؟ قلت : إنما يقدّر المضاف للحاجة ولا حاجة ، فإنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها. وإنما قدّرناه قبل الضمير في فَجاءَها لقوله أَوْ هُمْ قائِلُونَ فإن قلت : لا يقال : جاءني زيد هو فارس ، بغير واو ، فما بال قوله هُمْ قائِلُونَ؟ قلت : قدّر بعض النحويين الواو محذوفة ، ورده الزجاج وقال : لو قلت جاءني زيد راجلا ، أو هو فارس. أو جاءني زيد هو فارس ، لم يحتج فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول. والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالا. لاجتماع حرفى عطف ، لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل ، فقولك : جاءني زيد راجلا أو هو فارس ، كلام فصيح وارد على حدّه.

وأمّا جاءني زيد هو فارس ، فخبيث. فإن قلت : فما معنى قوله أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس؟ قلت : معناه أردنا إهلاكها كقوله إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة ، لأنهما وقت الغفلة والدعة ، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع ، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر ، وقوم شعيب وقت القيلولة.

(1). عاد كلامه. قال : «و قوله هُمْ قائِلُونَ حال معطوفة على بياتا كأنه قيل ، لجاءهم ... الخ» قال : أحمد :
الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالا ضعيف. والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري. وأما الزجاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافيا في الاسمية ، إما الواو وإما الضمير. وأما قول الزمخشري : إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهي واو عطف أيضا مع مثلها ، ففيه نظر. وذلك أن واو الحال لا بد أن تمتاز عن واو العطف بمزية. ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد وهو راكب ، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين وإن لم يكن قبيحا ، فالأصح خلافه ، فلما رأينها تتوسط بينهما والكلام حينئذ هو الأفصح أو المتعين ، علمت أنها ممتازة بمعنى وخاصية عن واو العطف ، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة ، فلا غرو في اجتماعها معها ، وإن كان فيها معنى العطف مضافا إلى تلك الخاصية ، فاما أن تسلبه حينئذ لاغناء العاطف عنها ، أو تستمر عليه ، كما تجتمع الواو. ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية ، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت : سبح الله وأنت راكع ، أو وأنت ساجد ، لكان فصيحا لا خبث فيه ولا كراهة فالتحقيق - والله أعلم - في الجملة المعطوفة على الحال : أن المصحح لوقوعها حالا من غير واو ، هو العاطف ، إذ يقتضى مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه في الحال ، فيستغنى عن واو الحال ، كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله في حكم القسم من غير واو موقعة في مثل وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى وفي مثل فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ ولو قلت في غير التلاوة : وبالليل إذا عسعس ، لجاز ، ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم لنيابة العاطف منابه.
فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية ، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف ، لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستثقال ، بل أمدت تأكيداً. وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

[سورة الأعراف (7) : آية 5]

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5)

فَما كانَ دَعْواهُمْ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده. وقولهم إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فيما كنا عليه. ويجوز : فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا ، لأنه لا مستغاث من الله بغيره ، ومن قولهم دعواهم : يا لكعب. ويجوز ، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم ، وأن لات حين دعاء ، فلا يزيدون على ذمّ أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم ، دَعْواهُمْ نصب خبر لكان ، وأَنْ قالُوا رفع اسم له ، ويجوز العكس.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 6 إلى 7]

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (7)

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أُرْسِلَ مسند إلى الجار والمجرور وهو إِلَيْهِمْ ومعناه :

فلنسألنّ المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم ، كما قال : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ويسأل المرسلين عما أجيبوا به ، كما قال : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم بِعِلْمٍ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم وعما وجد منهم ، فإن قلت : فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم ، فما معنى سؤالهم؟ قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 8 إلى 9]

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ يعنى وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها. ورفعه على الابتداء. وخبره يَوْمَئِذٍ. والْحَقُّ صفته أى : والوزن يوم يسأل الله الأمم «1» ورسلهم

(1). قوله «أى والوزن يوم يسأل الله الأمم» هذا إنما ينبنى على أن يومئذ متعلق بالوزن ، والحق خبر. أما على ما قاله ، فالتقدير : ويوم يسأل الخ ، ويمكن أن مراده : والوزن كائن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، أى الوزن الحق ، وكان الأقرب : أى والوزن الحق يوم يسأل ... الخ (ع)

الوزن الحق ، أى العدل. وقرئ : القسط. واختلف في كيفية الوزن فقيل : توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان ، تنظر إليه الخلائق ، تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للمعارة ، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم ، وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما تثبت في صحائفهم فيقرءونها في موقف الحساب. وقيل : هي عبارة عن القضاء السوىّ والحكم العادل فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ جمع ميزان أو موزون ، أى فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات. أو ما توزن به حسناتهم. وعن الحسن : وحقّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل. وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف. بِآياتِنا يَظْلِمُونَ يكذبون بها ظلماً : كقوله فَظَلَمُوا بِها.

[سورة الأعراف (7) : آية 10]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10)

مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً. أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. وما يتوصل به إلى ذلك. والوجه تصريح الياء. وعن ابن عامر : أنه همز ، على التشبيه بصحائف.

[سورة الأعراف (7) : آية 11]

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ يعنى خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ، ثم صورناه بعد ذلك. ألا ترى إلى قوله ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الآية مِنَ السَّاجِدِينَ ، ممن سجد لآدم.

[سورة الأعراف (7) : آية 12]

قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

أَلَّا تَسْجُدَ «لا» في أَلَّا تَسْجُدَ صلة بدليل قوله : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي. ومثلها لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ بمعنى ليعلم : فإن قلت : ما فائدة زيادتها؟ قلت : توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب. وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ إِذْ أَمَرْتُكَ لان أمرى لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتما لا بدّ لك منه فإن قلت : لم سأله عن المانع من السجود ، وقد علم ما منعه؟ قلت : للتوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم ، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه ، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب. فإن قلت : كيف يكون قوله أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ

جواباً لما منعك ، وإنما الجواب أن يقول : منعني كذا؟ قلت : قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وبعلة فضله عليه ، وهو أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين ، فعلم منه الجواب وزيادة عليه ، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كأنه يقول : من كان على هذه الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به.

[سورة الأعراف (7) : آية 13]

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

فَاهْبِطْ مِنْها من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة ، إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين فَما يَكُونُ لَكَ فما يصح لك أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها وتعصى فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ من أهل الصغار والهوان على اللّه وعلى أوليائه لتكبرك ، كما تقول للرجل : قم صاغراً ، إذا أهنته. وفي ضدّه : قم راشداً. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار. وعن عمر رضى اللّه عنه : من تواضع للّه رفع اللّه حكمته «1» وقال : انتعش أنعشك اللّه. ومن تكبر وعدا طوره وهصه «2» اللّه إلى الأرض «3».

[سورة الأعراف (7) : الآيات 14 إلى 15]

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15)

---

(1). قوله «رفع اللّه حكمته» في الصحاح : حكمة اللجام ما أحاط بالحنك. (ع)

(2). قوله : «و هصه اللّه إلى الأرض» وهصه : أى غمزه إلى الأرض والوهص : كسر الشيء الرخو وشدة الوطء على الأرض ، كذا في الصحاح. (ع)

(3). أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه. حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد اللّه بن إدريس وسفيان بن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبى حية عن عبيد اللّه بن عبيد اللّه بن عدى بن الخيار قال : قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : «إن العبد إذا تواضع للّه رفع اللّه حكمته وقال : انتعش أنعشك اللّه ، فهو في نفسه صغير ، وفي أنفس الناس كبير. وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره وهصه اللّه إلى الأرض. وقال : اخسأ خسأك اللّه ، فهو في نفسه كبير وفي أنفس الناس صغير ، لهو أحقر عندهم من خنزير ، وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق على بن المديني عن سفيان.

وقد روى بعضهمرفوعا ، أخرج الدارقطني في العلل من حديث ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما من آدمى إلا وملك آخذ بحكمته. فإذا رفع نفسه قيل للملك : ضع حكمتك - وإذا وضع نفسه قيل للملك : ارفع حكمتك» قال : لا يثبت. فيه على بن زيد وهو ضعيف.

فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم «1» قلت : لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب ، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 16 إلى 17]

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17)

فَبِما أَغْوَيْتَنِي فبسبب إغوائك إياى لأقعدنّ لهم. وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغى ولم يثبت كما ثبتت الملائكة ، مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفسا ومناصب «2». وعن الأصم : أمرتنى بالسجود فحملني الأنف على معصيتك. والمعنى : فبسبب وقوعى في الغيّ لأجتهدن في إغوائهم «3» حتى يفسدوا بسببي ، كما فسدت بسببهم. فإن قلت : بم تعلقت الباء ، فإن تعلقها بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم ،

---

(1). قال محمود : «فان قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ... الخ» قال أحمد : وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على اللّه تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده ، واللّه الموفق. [.....]

(2). قوله «و من آدم أنفسا ومناصب» هذا عند المعتزلة ، أما عند أهل السنه فآدم أفضل منهم. (ع)

(3). قال محمود : «و المعنى : فبسبب وقوعي في الغى لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي ... الخ» قال أحمد : تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان :

إحداهما : تحريفه الإغواء إلى التكليف ، لأنه يعتقد أن اللّه تعالى لم يغوه ، أى لم يخلق له الغى بناء على قاعدة التحسين. والتقبيح والصلاح والأصلح ، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود ، لأنه كان سبباً في غيه. وكثيراً ما يؤول أفعال اللّه

تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب ، ويجعل ذلك من مجاز السببية ، لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب ، فاسناده إلى الفاعل حقيقة ، وإسناده إلى بقيتها مجاز ويجعل الفعل مسندا إلى الله تعالى لأنه مسببه لا أنه فاعله. وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوسا في مال عليه ، هذه وضعت القيود في رجليك ، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة رآها عند المسجون ، أى اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سببا في تبذير المال الذي آل بك إلى وضع القيود في رجليك.

فعلى هذا يروم حمل هذه الآية ، يعنى بما كلفتنى من التكليف الذي كان سببا في خلقي الغى لنفسي لأقعدن ، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة. وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فمجاز. هذه إحدى النزغتين.

والأخرى : جعله التكليف من جملة الأفعال ، لأنه يزعم أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله ، لا صفة من صفاته ، والتكليف من الكلام ، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما. وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما ، لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى ، إذ هو خالق كل شيء ، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفى الشرك ما لم يسبق به إبليس؟ نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

لا تقول : والله بزيد لأمرّنّ؟ قلت : تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره : فبما أغويتنى أقسم بالله لأقعدنّ ، أى فبسبب إغوائك أقسم. ويجوز أن تكون الباء للقسم ، أى : فأقسم بإغوائك لأقعدنّ ، وإنما أقسم بالإغواء ، لأنه كان تكليفا ، والتكليف من أحسن أفعال الله ، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد ، فكان جديراً بأن يقسم به. ومن تكاذيب المجبرة «1» ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام ، فقام الرجل ، فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى ، وهذا يقول : أنا أغوى نفسي ، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه ، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين «2». وقيل «ما» للاستفهام ، كأنه قيل : بأى شيء أغويتنى ، ثم ابتدأ لأقعدنّ. وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية ، قليل شاذ. وأصل الغىّ الفساد. ومنه : غوى الفصيل ، إذا بشم. والبشم : فساد في المعدة لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدوّ على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف ، كقوله:...
كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ «3»

---

(1). قوله «و من تكاذيب المجبرة ما حكوه» يعنى أهل السنة ، وسماهم المعتزلة بذلك ، لقولهم : إن خالق أفعال العباد ولو قبيحة هو الله تعالى ، فيكون العبد مجبوراً فيها. فكيف يصح تكليفه ، ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب في أفعاله ، ولذلك صح تكليفه. أما الجبر المنافى للتكليف ، فهو أن لا يكون للعبد دخل في فعله أصلا ، بحيث يكون كالريشة المعلقة في الهواء. وبه قالت المجبرة الحقيقية ، كما هو مذكور في أواخر المواقف. (ع)

(2). عاد كلامه. قال : «و من تكاذيب المجبرة : ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى. وهذا يقول : أنا أغوى نفسي. انتهي كلام طاوس على زعمهم. وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه وتعالى أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين» انتهى كلامه. قال أحمد : وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة لتبلج الحجة في وجوب الرد عليه وتعينه على مر هداه الله إليه. ولقد صدق طاوس رضى الله عنه. وأما قول الزمخشري في أهل السنة الذين سماهم مجبرة أنهم يتهالكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى ، فحاصله : أنهم يخلصون التوحيد حتى لا يؤمنون بخالق غير الله ، ولكي يصدقوا قوله تعالى متمدحا اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا كالقدرية الذين هم يتهالكون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيؤولون الفاعل بالمسبب.
فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، والله الموفق للصواب.

(3) لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب
لساعدة بن جؤية ، يصف رمحاً بأنه لين يضطرب صلبه في الكف بسبب هزه ، فلا يلبس فيه ، كما عسل أى اضطرب الثعلب في الطريق ، فحذف الجار من الثاني الضرورة ، واغتفر لذكره في الأولى ، وفي عسل معنى الدخول بسرعة.

وشبهه الزجاج بقولهم : ضرب زيد الظهر والبطن ، أى على الظهر والبطن. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة : قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك وتتغرب ، فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل «1»» ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ من الجهات الأربع التي يأتى منها العدوّ في الغالب. وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ. فإن قلت : كيف قيل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ بحرف الابتداء وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ بحرف المجاوزة؟ قلت : المفعول فيه عدّى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس. وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى «على يمينه» أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلى من المستعلى عليه. ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له. ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره ، كما ذكرنا في «تعالى». ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس ، وعلى القوس ، ومن القول ، لأنّ السهم يبعد عنها ، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ، ويبتدئ الرمي منها. كذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه ، لأنهما ظرفان للفعل.

ومن بين يديه ومن خلفه : لأن الفعل يقع في بعض الجهتين ، كما تقول : جئته من الليل ، تريد بعض الليل ، وعن شقيق : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يديّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي : أمّا من بين يدي فيقول : لا تخف ، فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وأمّا من خلفي ، فيخوّفنى الضيعة على مخلفي فأقرأ وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وأمّا من قبل يميني ، فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وأمّا من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ. وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ قاله تظنيناً ، بدليل قوله وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وقيل : سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 18]

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

(1). أخرجه النسائي وأحمد وابن حبان وأبر يعلى والطبراني من حديث سمرة ابن الفاكه وابن أبى الفاكه به وأتم منه. «تنبيهان» أحدهما : قوله «بأطرقه» ضبطه ثابت في الدلائل بكسر الراء ، بمثناة وبضم الراء. وبهاء.
ثانيهما : قوله «بأطرقه» : وقع عند الطيبي ، رواه النسائي من حديث سيرة بن معبد. وهو وهم.

مَذْؤُماً من ذأمه إذا ذمّه. وقرأ الزهري : مذوما بالتخفيف ، مثل مسول في مسؤل.

واللام في لَمَنْ تَبِعَكَ موطئة للقسم. ولَأَمْلَأَنَّ جوابه ، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط مِنْكُمْ منك ومنهم ، نغلب ضمير المخاطب ، كما في قوله إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. وروى عصمة عن عاصم : لمن تبعك ، بكسر اللام ، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد ، وهو قوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ، على أن لَأَمْلَأَنَّ في محل الابتداء ، ولَمَنْ تَبِعَكَ خبره.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 19 إلى 22]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

وَيا آدَمُ وقلنا يا آدم. وقرئ : هذى الشجرة ، والأصل الياء ، والهاء بدل منها. ويقال : وسوس ، إذا تكلم كلاماً خفيا يكرره. ومنه وسوس الحلىّ ، وهو فعل غير متعدّ ، كولولت المرأة ووعوع الذئب ، ورجل موسوس - بكسر الواو - ولا يقال موسوس بالفتح ، ولكن موسوس له ، وموسوس إليه ، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له : فعل الوسوسة لأجله ، ووسوس إليه : ألقاها إليه لِيُبْدِيَ جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور «1»

(1). قال محمود : «فيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ... الخ» قال أحمد : وفي هذه الكلمات أيضا جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين ، أحدهما : قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبحا في العقول ، فانه ينشأ عن اعتقاده أن القبح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة ، إلا أنه لا يريد به ظاهره ، إذ التحسين والتقبيح إنما يدركان بالشرع والسمع لا بالعقل. ومعنى هذا الإطلاق ولو صدر من سنى :
أن العقل يدرك المعنى الذي لأجله حسن الشرع الستر وقبح الكشف. الأمر الثاني : استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى. ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخالدا أولا يكونا ملكين؟ وهو في ذلك كاذب مبطل ، فلا دليل فيه ، إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لا بليس على ذلك ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما ، إذ قال الله تعالى عنه فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فلعل تفضيله الملكية على النبوة من جملة غروره ، والله أعلم.

وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول. فإن قلت : ما للواو المضمومة في «و روى» لم تقلب همزة كما قلت في أو يصل؟ قلت : لأن الثانية مدّة كألف وارى. وقد جاء في قراءة عبد الله أورى ، بالقلب إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ إلا كراهة أن تكونا ملكين. وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى ، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا. وقرئ : ملكين ، بكسر اللام ، كقوله وَمُلْكٍ لا يَبْلى . مِنَ الْخالِدِينَ من الذين لا يموتون ويبقون

في الجنة ساكنين. وقرئ : من سوأتهما ، بالتوحيد. وسوّاتهما ، بالواو المشدّدة وَقاسَمَهُما وأقسم لهما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فإن قلت : المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك «1» تقول : قاسمت فلاناً حالفته ، وتقاسما تحالفا. ومنه قوله تعالى تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ. قلت : كأنه قال لهما : أقسم لكما إنى لمن الناصحين ، وقالا له : أتقسم باللّه إنك لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة بينهم. أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها «2». أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة ، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم فَدَلَّاهُما فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة بِغُرُورٍ بما غرهما به من القسم باللّه. وعن قتادة : وإنما يخدع المؤمن باللّه. وعن ابن عمر رضى اللّه عنه : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك، فقال : من خدعنا باللّه انخدعنا له «3» فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها. وقيل : الشجرة هي السنبلة. وقيل : شجرة الكرم بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أى تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر. وعن عائشة رضى اللّه عنها : ما رأيت منه ولا رأى منى «4». وعن سعيد بن جبير : كان لباسهما من جنس الأظفار.

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك ... الخ» قال أحمد : ويكون في الكلام حينئذ لف ، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم ، ولكن بالخطاب ، فجعل القسم من الجانبين كلاما واحداً مضافا لا بليس.

(2). عاد كلامه. قال : «أو أقسم لهما على النصيحة وأقسما له على قبولها» قال أحمد ، وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه. وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير ، فيبعد التأويل المذكور ، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمى قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة ، كما قيل في قوله تعالى وَواعَدْنا مُوسى أنه سمى التزام موسى للوفاء والحضور للميعاد ، ميعادا، فأسند التعبير بالمفاعلة ، واللّه أعلم.

(3). أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال «كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه - وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه. فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد. فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه. فيقول له أصحابه : - فذكره. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

(4). أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبي العلاء عن أبى صالح - رواه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : قالت عائشة «ما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحدا من نسائه إلا متقنعا مرخى الثوب على رأسه ، وما رأيته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا رآه منى - تعنى الفرج» إسناده ضعيف. وروى الترمذي وابن ماجة وأحمد وابن أبى شيبة من رواية عبد اللّه بن يزيد عن مولى عائشة قالت «ما رأيت فرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قط» وروى الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله - وزاد «و لا نظر إلى فرجي قط» وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك. وهو ضعيف ، وقال لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري. وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه. وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي ، وهو متروك.

وعن وهب : كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال : طفق بفعل كذا ، بمعنى جعل يفعل كذا. وقرأ أبو السمال : وطفقا بالفتح يَخْصِفانِ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها ، كما يخصف النعل ، بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور. وقرأ الحسن : يخصفان ، بكسر الخاء وتشديد الصاد ، وأصله يختصفان. وقرأ الزهري : يخصفان ، من أخصف ، وهو منقول من خصف أى يخصفان أنفسهما وقرئ : يخصفان ، من خصف بالتشديد مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قيل : كان ورق التين أَلَمْ أَنْهَكُما عتاب من اللّه تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما اللّه من عداوة إبليس وروى : أنه قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدّا. فأهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز.

[سورة الأعراف (7) : آية 23]

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلما لأنفسهما «1» وقالا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات ، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 24 إلى 25]

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (24) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (25)

(1). قال محمود : «سميا ذنبهما ظلما وإن كان صغيراً مغفوراً ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا اعتزال خفى ، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها. فهذا معنى قول الزمخشري : وإن كان صغيرا مغفوراً. وإنما وسمت هذا

الاعتزال بالخفاء ، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة ، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً : أن الله تعالى تفضل بغفرانه ، ولو شاء لآخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر ، لا كما بزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته ، والله الموفق.

اهْبِطُوا الخطاب لآدم وحواء وإبليس. وبَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ في موضع الحال ، أى متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه مُسْتَقَرٌّ استقرار ، أو موضع استقرار وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني : لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة ، فجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى الذي أصابنى فيك ، فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا ، وحنطته وكفنته في وتر من الثياب ، وحفروا له ولحدوا ، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند ، وقالوا لبنيه : هذه سنتكم بعده.

[سورة الأعراف (7) : آية 26]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(26)

جعل ما في الأرض منزلا من السماء ، لأنه قضى ثم وكتب. ومنه وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ والريش لباس الزينة ، استعير من ريش الطير ، لأنه لباسه وزينته ، أى أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سوءاتكم ، ولباسا يزينكم ، لأن الزينة غرض صحيح ، كما قال لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً. وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ وقرأ عثمان رضى الله عنه. ورياشاً ، جمع ريش ، كشعب وشعاب وَلِباسُ التَّقْوى ولباس الورع والخشية من الله تعالى ، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمّا الجملة التي هي ذلِكَ خَيْرٌ كأنه قيل : ولباس التقوى هو خير ، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. وأمّا المفرد الذي هو خير وذلك صفة للمبتدإ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تحلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى ، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة ، لأنّ مواراة السوأة من التقوى ، تفضيلا له على لباس الزينة. وقيل : لباس التقوى خبر مبتدإ محذوف ، أى وهو لباس التقوى ، ثم قيل : ذلك خير. وفي قراءة عبد الله وأبىّ : ولباس التقوى خير. وقيل : المراد بلباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر «1» وغيرها مما يتقى به في الحروب وقرئ : ولباس التقوى ، بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ الدالة على فضله ورحمته على عباده. يعنى إنزال اللباس لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

(1). قوله «الجواشن والمغافر» الجواشن : هي ما ينسج من الدروع على قدر الصدر. والمغافر : ما ينسج منها على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة. (ع)

[سورة الأعراف (7) : آية 27]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة ، كما محن أبويكم بأنّ أخرجهما منها يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما حال ، أى أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأنه كان سبباً في أن نزع عنهما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ تعليل للنهى وتحذير من فتنته ، بأنه بمنزلة العدوّ المداجى «1» يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. وعن مالك بن دينار. إنّ عدواً يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة إلا من عصم الله وَقَبِيلُهُ وجنوده من الشياطين ، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون» ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدّعى رؤيتهم زور ومخرقة إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ أى خلينا بينهم وبينهم «3» لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سئلوا لهم من الكفر والمعاصي ، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول. فإن قلت : علام عطف وقبيله؟ قلت : على الضمير في يراكم المؤكد بهو ، والضمير في أنه للشأن والحديث ، وقرأ اليزيدي وَقَبِيلُهُ بالنصب وفيه وجهان : أن يعطفه على اسم إن ، وأن تكون الواو بمعنى مع ، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في أنه ، كان راجعاً إلى إبليس.

[سورة الأعراف (7) : آية 28]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28)

(1). قوله «العدو المداجى» في الصحاح «المداجاة» المداراة. يقال : داجيته ، إذا ، داريته ، كأنك ساترته العداوة. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «و فيه دليل بين أنهم لا يرون ... الخ» قال أحمد : أين يذهب به هما ورد في الحديث الصحيح ، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبي صلى الله عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته ، حتى أمكنه الله منه فأخذه عليه الصلاة والسلام فدغنه وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد يلعب به الصبيان ، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه. وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام كان جائزا لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة ، لكن الزمخشري يصده عن ذلك جحده لكرامة الأولياء ، لأنه عقيدة إخوانه ، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق ، فكيف ينالها من يشك في إسلامه ، فإنهم لفي عذر من جحدها والتكذيب بها.
رزقنا الله الايمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلا ، والله الموفق.
(3). قوله «أى خلينا بينهم وبينهم» فسر الجعل بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. وعند أهل السنة يخلقة كالخير. (ع)

الفاحشة : ما تبالغ في قبحه من الذنوب ، أى : إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم وبأنّ الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها. وكلاهما باطل من العذر «1» لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق العلم. والثاني افتراء على الله وإلحاد في صفاته ، كانوا يقولون : لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه. وعن الحسن : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة «2» يحملون ذنوبهم على الله. وتصديقه قول الله تعالى وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه «3» لعدم الداعي ووجود الصارف ، فكيف يأمر بفعله أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط.

وقيل : المراد بالفاحشة : طوافهم بالبيت عراة.

[سورة الأعراف (7) : آية 29]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)

بِالْقِسْطِ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز. وقيل : بالتوحيد وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ وقل : أقيموا وجوهكم أى اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود وهو الصلاة وَادْعُوهُ واعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى الطاعة ، مبتغين بها وجه الله خالصاً كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم ، احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق ، والمعنى : أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة.

[سورة الأعراف (7) : آية 30]

فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

(1). قال محمود : «و كلاهما باطل من العذر لأن أحدهما ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من الاعتزال الخفي ، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح ، ومراعاة الصلاح والأصلح ، واستحالة مخالفة ذلك على الله تعالى «و لا يتم من ذلك غرض ، لأن المنكر عليهم : دعواهم أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء ، وهم كاذبون في هذه الدعوى ، ولا يلزم من سلب الأمر الارادة ، لأن الله تعالى يأمر بما لا يريد ، ويريد ما لا يأمر به.
(2). قوله «و هم قدرية مجبرة» أى كالمجبرة يعنى أهل السنة ، لقولهم : إن الله يريد الشر كالخير ، والارادة هي الأمر عند المعتزلة، لكنها غيره عند أهل السنة ، فالفحشاء بإرادته تعالى ، لكنه لا يأمر بها. وتحقيقه في التوحيد.
(3). قوله «فعل القبيح مستحيل عليه» يريد أن الله لا يريد فعل القبيح وهي عقيدة المعتزلة. أما عند أهل السنة فالله يريد القبيح والحسن «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» (ع)

فَرِيقاً هَدى وهم الذين أسلموا ، أى وفقهم للإيمان وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ أى كلمة الضلالة ، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون. وانتصاب قوله وَفَرِيقاً بفعل مضمر يفسره ما بعده ، كأنه قيل : وخذل فريقا حق عليهم الضلالة إِنَّهُمُ إنّ الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ أى تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به ، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم ، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله.

[سورة الأعراف (7) : آية 31]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

خُذُوا زِينَتَكُمْ أى ريشكم ولباس زينتكم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ كلما صليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وإنما كان أحدكم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه ، لأنهم قالوا : لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها : وقيل : تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب.

وقيل : الزينة المشط. وقيل : الطيب. والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة ، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : فإنا أحق أن نفعل ، فقيل لهم : كلوا واشربوا ولا تسرفوا. وعن ابن عباس رضى الله عنه : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة «1» ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني «2» حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علمان ، علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال : وما هي؟ قال : قوله تعالى وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة. قال : وما هي؟ قال قوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء «3»

(1). أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن ميسرة عن عطاء وطاوس عنه بهذا ، لكن قال «خلتان». وروى النسائي وابن ماجة وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافا ولا مخيلة».

(2). لم أجد لها - أى حكاية الرشيد - إسنادا.

(3). لم أجده ، وروى العقيلي في الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الرهاوي عن زيد ابن أبى أنيسة عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة - رفعه «المعدة حوض البدن. والعروق إليها واردة : فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم» وقال : حديث باطل لا أصل له. وقال الدارقطني لا يصح ولا يعرف من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طبيبا ، فجعل له إسنادا.

وأعط كل بدن ما عوّدته» فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

[سورة الأعراف (7) : آية 32]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

زِينَةَ اللَّهِ من الثياب وكل ما يتجمل به وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ المستلذات من المآكل والمشارب. ومعنى الاستفهام في من : إنكار تحريم هذه الأشياء. قيل : كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا غير خالصة لهم ، لأنّ المشركين شركاؤهم فيها خالِصَةً لهم يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يشركهم فيها أحد. فإن قلت : هلا قيل : هي للذين آمنوا ولغيرهم. قلت : لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة ، وأن الكفرة تبع لهم ، كقوله تعالى وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وقرئ : خالصة بالنصب على الحال ، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

[سورة الأعراف (7) : آية 33]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

الْفَواحِشَ ما تفاحش قبحه أى تزايد. وقيل هي ما يتعلق بالفروج وَالْإِثْمَ عام لكل ذنب. وقيل : شرب الخمر وَالْبَغْيَ الظلم والكبر ، أفرده بالذكر كما قال وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ. ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فيه تهكم، لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره «1» وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

[سورة الأعراف (7) : آية 34]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم وقرئ : فإذا جاء آجالهم. وقال ساعَةً لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه : في ساعة ، يريد أقصر وقت وأقربه.

(1). قال محمود : «في هذا تهكم لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره» قال أحمد : وإنما يعنى التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان ، إلا أنه لم ينزل ، لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به ولم ينف أن يكون له سلطان ، وكان أصل الكلام : وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به فينزل فيكون على طريقة :

على لا حب لا يهتدى بمناره

[سورة الأعراف (7) : الآيات 35 إلى 36]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36)

إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ هي «إن» الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط. ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت : فما جزاء هذا الشرط؟ قلت : الفاء وما بعده من الشرط والجزاء. والمعنى : فمن اتقى وأصلح منكم ، والذين كذبوا منكم. وقرئ : تأتينكم ، بالتاء.

[سورة الأعراف (7) : آية 37]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37)

فَمَنْ أَظْلَمُ فمن أشنع ظلماً ممن تقوّل على الله ما لم يقله ، أو كذب ما قاله أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له ، أى إلى وقت وفاتهم ، وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام ، والكلام هاهنا الجملة الشرطية ، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا. ويَتَوَفَّوْنَهُمْ حال من الرسل ، أى متوفيهم. والرسل ملك الموت وأعوانه. «و ما» وقعت موصولة بأين في خط المصحف ، وكان حقها أن تفصل ، لأنها موصولة بمعنى : أين الآلهة الذين تدعون ضَلُّوا عَنَّا غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ، اعترافا منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 38 إلى 39]

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

قالَ ادْخُلُوا أى يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ وهم كفار العرب فِي أُمَمٍ في موضع الحال ، أى كائنين في جملة أمم ، وفي غمارهم مصاحبين لهم ، أى ادخلوا في النار مع أمم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ وتقدّم زمانهم زمانكم لَعَنَتْ أُخْتَها التي ضلت بالاقتداء بما حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها أى تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار قالَتْ أُخْراهُمْ منزلة وهي الأتباع والسفلة لِأُولاهُمْ منزلة وهي القادة والرؤوس. ومعنى لأولاهم : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع الله لا معهم عَذاباً ضِعْفاً مضاعفا لِكُلٍّ ضِعْفٌ لأنّ كلا من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ قرئ بالياء والتاء فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة لِكُلٍّ ضِعْفٌ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، وأنا متساوون في استحقاق الضعف فَذُوقُوا الْعَذابَ من قول القادة ، أو من قول الله لهم جميعاً.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 40 إلى 41]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ لا يصعد لهم عمل صالح إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وقيل : إنّ الجنة في السماء ، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرّق لهم إليها ليدخلوا الجنة. وقيل : لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين.

وقيل : لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ، ففتحنا أبواب السماء. وقرئ : لا تفتح ، بالتشديد.

ولا يفتح بالياء. ولا تفتح ، بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب ، على أنّ الفعل للآيات. وبالياء على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس : الجمل ، بوزن القمل. وسعيد بن جبير : الجمل ، بوزن النغر. وقرئ : الجمل «بوزن القفل. والجمل ، بوزن النصب. والجمل. بوزن الحبل. ومعناها القلس الغليظ «لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة. وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه ، إلا أن قراءة العامّة أوقع لأن سم الابرة مثل في ضيق المسلك. يقال : أضيق من خرت الابرة. وقالوا للدليل الماهر : خرّيت ، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر.

والجمل : مثل في عظم الجرم. قال : جسم الجمال وأحلام العصافير «1»

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام ، فقيل : لا يدخلون الجنة ، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع ، في ثقب الإبرة. وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل ، فقال : زوج الناقة ، استجهالا للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ فِي سَمِّ بالحركات الثلاث : وقرأ عبد الله : في سم المخيط ، والخياط ، والمخيط كالحزام والمحزم : ما يخاط به وهو الإبرة وَكَذلِكَ ومثل ذلك الجزاء الفظيع نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب ، وأن كلّ من أجرم عوقب ، وقد كرره فقال وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه مِهادٌ فراش غَواشٍ أغطية. وقرئ : غواش. بالرفع، كقوله تعالى : «و له الجوار المنشآت» في قراءة عبد الله.

[سورة الأعراف (7) : آية 42]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42)

لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها جملة معترضة بين المبتدإ والخبر ، للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح. وقرأ الأعمش : لا تكلف نفس.

[سورة الأعراف (7) : آية 43]

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

---

(1) حار بن عمرو ألا أحلام تزجركم عنا وأنتم من الجوف الجماخير
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم الجمال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصير
لحسان. و«حار» مرخم حارث ، مبنى على الضم لأنه منادى حذف قبله ياء النداء. و«الأحلام» جمع حلم بالضم : العقول. و«الجوف» بالضم : جمع أجوف ، أى واسع الجوف. و«الجماخير» جمع جمخور ، أى عظيم الجسم. يقول : كيف لا يكون لكم أحلام وأنتم عظام الأجرام ، ثم بين ذلك بقوله : لا بأس ولا ضرر يعترى هؤلاء من جهة الطول والغلظ ، يعنى : لا نقص بهم من ذلك. وفيه تهكم بهم. أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به ، أو لا بأس يعتريك بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجمال ، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقول ، يعنى أنه لا عقل لهم. ويروى «جسم البغال» وشبههم في فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالقصب :

إذا انشقت أجواف أسافله فأعاليه أكثر. وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحسن. و«الأعاصير» جمع إعصار ، وهي ريح تهب مستديرة ذاهبة نحو السماء. واستعار النفخ لا دخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ. وفي القافية الاقواء ، لاختلاف حركة الروى بالكسر والضم.

من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه ، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وعن علىّ رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم «1» هَدانا لِهذا أى وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ اللام لتوكيد النفي «2» ويعنون : وما كان يستقيم أن تكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه. وفي مصاحف أهل الشام : ما كنا لنهتدي بغير واو ، على أنها جملة موضحة للأولى لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا ، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً ، كما نرى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أن مخففة من الثقيلة تقديره : ونودوا بأنه تلكم الجنة أُورِثْتُمُوها والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أى ، لأنّ المناداة من القول ، كأنه قيل : وقيل لهم أى تلكم الجنة أورثتموها «3»

---

(1). أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه. والطبري من رواية معمر عن قتادة عن على وكلاما منقطع. وفي ابن أبى شيبة من رواية ربحى عن على. وهو متصل.

(2). قال محمود : اللام لتوكيد النفي يعنون وما كان يستقيم ... الخ» قال أحمد : وهذه تكفح وجوه القدرية بالرد ، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدى من خلق الله له الهدى ، وأن غير ذلك محال أن يكون ، فلا يهتدى إلا من هدى الله ، ولو لم يهده لم يهتد ، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ، فهو إذاً مهتد وإن لم يهده الله ، إذ هدى الله العبد خلق الهدى له - وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ، ولا يتوقف ذلك على خلقه - تعالى الله عما يقولون - ولما فطن الزمخشري لذلك ، جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه ، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل : المهتدى من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله - أى يخلق له الهدى ، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ وانظر تباين هذين القولين ، أعنى قول المعتزلي في الدنيا ، وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق. واختر لنفسك أى الفريقين تقتدى به ، وما أراك - والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكي عن أوليا الله في دار السلام منوها به في الكتاب العزيز ، قول قدرى ضال تذبذب مع هواء وتعصبه في دار الغرور والزوال ، نسأل الله حسن المآب والمآل.

(3). عاد كلامه. قال : «و قوله تعالى وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المراد بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقول المبطلة» قال أحمد : يعنى بالمبطلة قوما سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله وبرحمته. قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «و لا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فقالوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء هم أهل السنة. قيل لهم : فما معنى قوله تعالى وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟ قالوا : الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل ، فضلا منه ورحمة ، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب العباد وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، جمعا بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل ، الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء ، فانظر أيها المنصف ، هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة؟ وحاكم نفسك إليها ، ثم إذا وضح لك أنهم برآء في هذا البر ، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقا بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها - تعالى وتقدس عن ذلك - ويطلقون القول بلسان الجرأة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه. بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه. وانظر أى الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة ، والسلام.

بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بسبب أعمالكم لا بالتفضل ، كما تقول المبطلة «1»

[سورة الأعراف (7) : الآيات 44 إلى 45]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ(45)

«أن» في أَنْ قَدْ وَجَدْنا يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً ، وكذلك أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتة بأصحاب النار ، وزيادة في غمهم ، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها ، وكذلك قول المؤذن بينهم : لعنة الله على الظالمين. وهو ملك يأمره الله فينادى بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار. وقرئ : أنّ لعنة الله ، بالتشديد والنصب. وقرأ الأعمش : إن لعنة الله ، بكسر إن على إرادة القول ، أو على إجراء فَأَذَّنَ مجرى قال. فإن قلت : هلا قيل : ما وعدكم ربكم ، كما قيل : ما وعدنا «2» ربنا؟ قلت : حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول : أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة ، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع ، ولأن الموعود كله مما ساءهم ، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

[سورة الأعراف (7) : آية 46]

وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)

وَبَيْنَهُما حِجابٌ يعنى بين الجنة والنار. أو بين الفريقين ، وهو السور المذكور في قوله تعالى فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ. وَعَلَى الْأَعْرافِ وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه ،

---

(1). قوله «كما تقول المبطلة» يريد أهل السنة القائلين : دخولها بالفضل ، واقتسامها بالأعمال ، كما في الحديث. (ع) [.....]
(2). عاد كلامه : قال : فان قلت هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا ... الخ» قال أحمد : ولقائل أن يقول :
ولو ذكر المفعول حسب ذكره في الأول فقيل : فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، لكان الفعل مطلقا أيضا باعتبار الموعود به ، لأنه لم يذكر ، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب ، الذي هو أنواع من جملتها التحسر على نعيم أهل الجنة ، فليس ذلك خاصا بحذف المفعول الواقع على الموعودين ، فالوجه أن حذفه إيجاز وتخفيف واستغناء عنه بالأول. والله أعلم.

جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك رِجالٌ من المسلمين من آخرهم دخولا في الجنة لقصور أعمالهم ، كأنهم المرجون لأمر الله ، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة يَعْرِفُونَ كُلًّا من زمر السعداء والأشقياء بِسِيماهُمْ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها ، يلهمهم الله ذلك : أو تعرّفهم الملائكة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 47 إلى 49]

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادرا رجالا من رؤوس الكفرة يقولون لهم أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ إشارة لهم إلى أهل الجنة ، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون.

وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدّم والتأخر على حسنها ، وأن أحداً لا بسبق عند الله إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسيء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه. وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملا. وقوله وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ فيه أن صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش: وإذا قلبت أبصارهم وقرئ : أدخلوا الجنة ، على البناء للمفعول. وقرأ عكرمة : دخلوا الجنة. فإن قلت : كيف لاءم هاتين القراءتين قوله لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ؟ قلت : تأويله : أدخلوا ، أو دخلوا الجنة مقولا لهم : لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فإن قلت : ما محل قوله : لم يدخلوها وهم يطمعون؟ قلت : لا محل له لأنه استئناف ، كأن سائلا سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل : لم يدخلوها وهم يطمعون ، يعنى حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة ، فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا. ويجوز أن يكون له محل ، بأن يقع صفة لرجال ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ المال أو كثرتكم واجتماعكم وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ واستكباركم عن الحق وعلى الناس ، وقرئ : تستكثرون ، من الكثرة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 50 إلى 51]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

أَفِيضُوا عَلَيْنا فيه دليل على أن الجنة فوق النار أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد : أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة. كقوله : عَلَفْتُهَا تِبْنا وَمَاءً بَارِدا«1»

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم ، كما يفعل المضطر الممتحن.

حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرّم عليه ويحظر ، كقوله : حَرَامٌ عَلَى عَيْنَىَّ أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى «2»

(1) ما حططت الرحل عنها واردا علفتها تبنا وماء باردا
يقول : لما حططت الرجل عن الناقة حال كوني وارداً للماء ، علفتها تبنا وسقيتها ماء بارداً ، على حذف العامل في ماء. ويحتمل أن المعنى : ناولتها تبنا وماء على التجوز في العلف ، وذلك لأن الماء لا يكون معلوفا لها. ويجوز أن يكون مفعولا معه ، أى علفتها تبنا مصاحبا للماء ، فلا يلزم أن يكون الماء معلوفا ، ومنعه لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف ، فيه نظر ، لجواز أنه وضع لها التبن ووضع لها ماء معه ، لتتناول ما شاءت. ورواية الفراء هكذا :
علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همالة عيناها
وشتوت بموضع كذا : أقمت به زمن الشتاء ، أى حتى كانت زمن الشتاء محالة : أى كثيرة الدموع عيناها ، همالة :
نصب على الحال ، وعيناها : فاعل به. ويروى : حتى غدت ، وحتى بدت.
(2) حرام على عيني أن تطعم الكرى وأن ترقئا حتى ألاقيك يا هند
«الكرى» النعاس ، وهو أول النوم. يقال : كرى يكرى كرى ، من باب تعب إذا نعس. وشبه بالمطعوم على طريق المكنية. و«أن تطعما» أى تذوقا تخييل. ورقأ الدمع والدم - بالهمز - : سكن. وإسناده للعين مجاز عقلى ، لأنه للدمع. ويحتمل أنه استعار ترقئا لتغمضا ، لأن فيه سكون الجفون. يقول : ممتنع على عينى النعاس والغموض ، أو عدم البكاء امتناعا مؤكداً ، كما يمتنع المحرم على المكلف ، ففيه استعارة تصريحية حتى ألاقيك يا هند.
وأنال من نوالك. وفي النداء معنى التفجع.

فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا كما فعلوا بلقائه فعل الناسين ، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 52 إلى 53]

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء حكيما قيما غير ذى عوج. وقرأ ابنُ محيصن : فضلناه ، بالضاد المعجمة. بمعنى فضلناه على جميع الكتب ، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها. وهُدىً وَرَحْمَةً حال من منصوب فضلناه ، كما أن على علم حال من مرفوعه إِلَّا تَأْوِيلَهُ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ أى تبين وصحّ أنهم جاءوا بالحق نُرَدُّ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، داخلة معها في حكم الاستفهام ، كأنه قيل : هل لنا من شفعاء ، أو هل نردّ. ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم ، كما تقول ابتداء : هل يضرب زيد؟

ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه. فلا يقدّر : هل يشفع لنا شافع أو نردّ. وقرأ ابن أبى إسحاق. أو نردّ ، بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا. أو تكون «أو» بمعنى «حتى أنّ» أى يشفعوا لنا حتى نردّ فنعمل ، وقرأ الحسن بنصب نُرَدُّ ورفع فَنَعْمَلَ بمعنى : فنحن نعمل.

[سورة الأعراف (7) : آية 54]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54)

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وقرئ يغشى بالتشديد ، أى يلحق الليل النهار ، والنهار بالليل يحتملهما جميعاً. والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس : يغشى الليل النهار ، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار ، أى يدرك

النهار الليل ويطلبه حثيثاً ، حسن الملاءمة لقراءة حميد بِأَمْرِهِ بمشيئته وتصريفه ، وهو متعلق بمسخرات أى خلقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره ، وكما يريد أن يصرفها سمى ذلك أمرا على التشبيه ، كأنهنّ مأمورات بذلك. وقرئ : والشمس والقمر والنجوم مسخرات ، بالرفع. ولما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ أى هو الذي خلق الأشياء كلها ، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 55 إلى 58]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً نصب على الحال ، أى ذوى تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً.

والتضرع تفعل من الضراعة «1» وهو الذل ، أى تذللا وتملقا. وقرئ. وخفية «2» وعن الحسن رضى الله عنه : إنّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي ، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ،

(1). قال محمود : «التضرع تفعل من الضراعة وهي الذل ... الخ» قال أحمد : وحسبك في تعين الاسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية. فالاخلال به كالاخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى «فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء ، خصوصا في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد ، وتستد المسامع وتستد ، ويهتز الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء ، وفي المسجد. وربما حصلت للعوام حينئذ رقة ، لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار ، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر وأو في وأزكى ، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق ، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.
(2). قوله «و قرئ وخفية» لعل هذه بالكسر. (ع)

إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم. وذلك أنّ الله تعالى يقول ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً وقد أثنى على زكريا فقال إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج ، هو رفع الصوت بالدعاء. وعنه : الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل : هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «سيكون قوم يعتدون في الدعاء. وحسب المرء أن يقول : اللهمّ إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل «1» ثم قرأ قوله تعالى إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ كقوله وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً. وإنما ذكر قَرِيبٌ على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أى شيء قريب. أو على تشبيه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول كما شبه ذاك به ، فقيل قتلاء وأسراء ، أو على أنه بزنة المصدر ، الذي هو النقيض والضغيب «2». أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي. قرئ : نشراً وهو مصدر نشر. وانتصابه إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان ، فكأنه قيل : نشرها نشراً : وإمّا على الحال بمعنى منتشرات. ونشراً جمع نشور.

ونشراً تخفيف نشر ، كرسل ورسل. وقرأ مسروق : نشراً ، بمعنى منشورات ، فعل بمعنى مفعول ، كنقض وحسب. ومنه قولهم «ضم نشره» وبشراً جمع بشير. وبشراً بتخفيفه. وبشراً - بفتح الباء - مصدر من بشره بمعنى بشره ، أى باشرات ، وبشرى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أمام رحمته ، وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً أَقَلَّتْ حملت ورفعت ، واشتقاق الإقلال من القلة ، لأنّ الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلا سَحاباً ثِقالًا سحائب ثقالا بالماء جمع سحابة سُقْناهُ الضمير للسحاب على اللفظ ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث ، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلا لِبَلَدٍ مَيِّتٍ لأجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه. وقرئ : ميت فَأَنْزَلْنا بِهِ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق. وكذلك فَأَخْرَجْنا بِهِ ... كَذلِكَ مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

(1). أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهران عن قيس بن عنان عن مولى لسعد بن سعد سمع ابنا له يقول «اللهم إنى أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا. وأعوذ بك من النار وأغلالها وكذا وكذا. فقال : لقد سألت الله خيرا وتعوذت به من شر كثير. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : سيكون قوم يعتدون في الدعاء وبحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة - الخبر - وقال في آخره : لا أدرى قوله وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في الدعوات من طريقه. عن سعد بسنده ، إلا أنه قال «و بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم وفي الباب عن عبد الله بن معقل أخرجه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم.

(2). قوله «هو النقيض والضغيب» النقيض : هو صوت العقاب وصوت المحمل ، والضغيب : صوت الأرنب. (ع)